جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليـــا

الحركة الشعرية في الأندلس
(عصر بني الأحمر)

إعداد
أيمن يوسف إبراهيم جرار

إشراف
أ. د. وائل أبو صالح

قُدّمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس– فلسطين.
2007

الحركة الشّعرية في الأندلس

(عصر بني الأحمر)

إعداد الطالب

أيمن يوسف إبراهيم جرار

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 4/ 9 /2007م، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة:	التوقيع
أ. د. وائل أبو صالح ....مشرفا	....
أ.د. أبراهيم الخواجا .... ممتحنا خارجيا	....
أ.د. خليل عودة .... ممتحنا داخليا	....

الإهداء

إلى الماس الذي لا ينكسر... إلى حاضري ومستقبلي... إلى مَنْ أكنُّ له الحب والتقدير والإمـتنان والعرفان بالجميل... إلى الذي طالما انتظر هذه اللحظة أكـثر منّي... إلى زوجتي الحبيبة "نوال"...

إلى مَــنْ تفتّحت بيـن حروفها الرياحين... وانتثرت من عبق اسـمها رائحة الياسـمين... إلى مَنْ تسمّت باسمها بلادُ العزِّةِ والكرامة... بـلاداً سـقتني علماً وأدباً... إلى طفلتي الغالية "شـام"...

إلى سـراج روحي وعقلي...إلى مَـنْ أولاني عزّاً وحياة... ووهبني العطاء والقدرةَ والثقـة... إلى الذي زرع في وجداني بذور الإيمان والانتماء... إلى "والدي الغالي"...

إلى نبع الحنان والعطاء... إلى الشـمعة المضيئة في حياتي... والزهرة الرقيقة في ربيع عمـري... إلى من تنحني القامات احتراماً لها وترتفع الهامات افتخاراً بها "أمي الغالية"...

إلى مَنْ لوّنوا حياتي بأجمل الألوان... وأطربوا روحي بأعذب الألحان... وكانوا الشـمس التي تبدِّد وحشتي... والبلسم الذي يـداوي جـراحات أيامي... إلى إخـوتي أخواتي: ملحم وخليل وأمين – دينا وفداء وميساء...

شكر وتقدير

ليس في الحياة أجمل من لحظة يحقّق فيها الإنسان ما تصبو إليه نفســه وتتوق إليه روحه... ولعلَّ لذّة النجاح، هي أعظم لذات الحياة جميعها، ولكن حرّيٌّ بنا ونــحن نقطف ثمرة النجاح أن نتقدّم بالفضل لكلّ مَنْ ساندنا وشدّ من أزرنا لبلوغ ما بلغنا، ولذا

فالشُّكر بداية لصاحب الفضل والمنّة لله العلي القدير الذي أعانني على إتمام دراستي...

ولصاحب الفضل الأول بعدهُ إلى أستاذي الذي بعث الأمل في العروق ليحييها من جديد... إلى الأستاذ الدكتور المشرف "وائل أبو صالح" الذي تفضّل بالإشراف على هذه الرسالة...

وأخصّ بالشكر الأستاذ الدكتور "صلاح جرّار" الذي لا يسعني وأنا أقطف من ثمارهِ العذبة أن أشـــكرَهُ على ما أبداه لي من تعاون فجزاه الله خيراً...

وأتقدم بالشكر إلى الأستاذ الدكتور خليل عودة والأستاذ الدكتور إبراهيم الخواجا اللذين قاما بمناقشـــة هذه الأطروحة فلهما مني كل تقدير .

ولا أنسى أخوتي في مكتبة بلدية جنين على ما أبدوه لي من تعاون ومحبّة...

فهرِس الموضوعات

(عصر بني الأحمر)

إعداد

أيمن يوسف إبراهيم جرار

إشراف

أ. د. وائل أبو صالح

الــمــلــخّـــص

أزدهرت الحركةُ الشعريةُ في مملكةِ بني الأحمر، التي نشأت في عام 637 للهجرة ضمن ظروف عدّة. ولعلّ من أهمّها ما كان يتعلقُ بالناحيةِ السياسيّةِ، فهذا الجانب جاء رافداً للعديد من الأغراض الشعرية، وفي مقدّمتها أشعار الجهاد واستنهاض الهمم.

إنّ المتتبع للأحداث التي جرتْ في هذه المملكة، يرى أنها مرّت بثلاث مراحل، كان لها أثرٌ واضحٌ في انتشار أغراض شعريّة دون أخرى:

المرحلة الأولى: تتّسمُ هذه المرحلة بانتشار الأشعار الحماسيّة التي تنادي بالعودة إلى الدّين واسترجاع ما ضاع من مدن الأندلس، وامتدَّت زهاء خمسة عقود.

المرحلة الثانية: وفيها عمّ الرَّخاء والازدهار، فانتشرت أشعار المدائح والخمريَّات، وتميّزت بالبذخ والتّرف، وامتدت مدّة قرن ونصف.

المرحلة الثالثة وهي الأخيرة: وتُعتبر مرحلة التراجع والسقوط، وفيها عودةٌ لأشعار الحماسة ورثاء المدن.

ولعبت الطبيعةُ دوراً مهمّاً في ازدهار هذه الحركة، وتميّزت غرناطة بطبيعةٍ جميلةٍ، حيث كَثُرَتْ فيها المياهُ والرّياضُ والقصورُ الجميلةُ.

وسار ملوكُ بني الأحمر على عادة مَنْ سبقوهم من ملوكِ الأندلسِ، فشجّعوا الآدابَ والعلومَ، وبنوا القصورَ التي عُقِدت فيها المجالسُ الأدبيَّةُ.

والفنونُ الشِّعريَّةُ التي ظهرت في هذا العصر، هي نفسُها التي جاءت في العصورِ السابقةِ، وجاء في مقدّمتِها وصفُ الطبيعة، ففي أحضانها قيلت أشعار الخمريّات والغزل.

وازدهر شعرُ الجهادِ نتيجةً للتَّسارعِ الذي حدث في سقوطِ مدنِهم، فهبّوا يستحثّون الهمم لاستعادة ما ضاع منهم. ونرى أن أشعارَهُم المدحية، قد انصبَّت في أكثرها على بيانِ نَسَبِ ملوكِهِم، الذي يتَّصِلُ بالصحابيِّ الجليلِ سعد بن عبادة الأنصاري.

وجاءت أشعارُهُم رقيقةً عذبةً، وفيها من لطيفِ الصورِ والأخيلةِ ما يبهجُ القلوبَ، وعُني شعراؤهم بتزيينِ ألفاظِهِم، فظهر عندهم الجناسُ، والطباقُ، والاقتباسُ، وغيرُ ذلك من ألوانِ البيانِ والبديعِ، مِمَّا جعلَ ألفاظهم مناسبةً للمعاني التي تطرقوا إليها.

واستخدموا البحورَ الشعريةَ بما يتناسب وَوَاقعَ الحالِ عندَهُم، وأكثروا من استخدامهم لبحور الكاملِ، والوافرِ، والطويلِ، والبسيطِ .

تمهيـــد:

تعاقبت على الأندلس حضارات متعددّة، حملها إليها العربُ وغيرهم من الأمم الأخرى، وبسبب ذلك، فقد حفلت مناطقها بمعالم حضارية وثقافية متنوعة، وزادها في هذا ما جلبهُ إليها العرب من تقدم كان على الصعيدين المادي والروحي.

وقد كان لغرناطة النصيب الأوفر من معالم ومآثر هذا التقدّم، وساعدها على ذلك موقعها الجغرافي وخصائصها الطبيعية المتميزة، علاوةً على أنّها كانت آخر القلاع والحصون التي سقطت من أيدي المسلمين في الأندلس. فكانت الملاذ الأخير للعرب المسلمين الذين هُجِّروا مكرهين من ديارهم بعد أن اشتدت عليهم نار النصارى، فاستقرّوا في حمى هذه المدينة التي تحوّلت إلى دولة ذاعت شهرتها، وأصبحت حضارتها مركزاً يؤمه الأدباء والمفكّرون من شتى أنحاء البلاد وخاصة في ظلّ حكم ملوك بني الأحمر. ويرجع نسب بني الأحمر إلى سعد بن عبادة الأنصاري سيد الخزرج في المدينة المنوّرة، وكان كبيرهم وهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن قيس الخزرجي من أهل بلدةٍ صغيرة تسمى (أرجونة) جنوبي (جيان) وكانوا أسرة كبيرة في موطنها [1].

ونحن في حديثنا عن مملكة بني الأحمر سوف نتناولها من خلال الجوانب السياسية والاجتماعية والعلمية التي أحاطت بها.

الجانب السياسي:

لقد برزت هذه المملكة وسط ظروف سياسية صعبة، وظهر هذا واضحاً من خلال الهزائم المتتابعة التي لحقت بالمسلمين، مما أدّى إلى ضياع العديد من المدن والحصون. وهذا دفع المسلمين إلى الهجرة إلى هذه المملكة التي كانت بعيدةً عن متناول جيوش الإسبان.

ويعود الفضل في إنشاء هذه المملكة إلى مؤسسها محمد بن يوسف بن خميس بن نصر الملقب بابن الأحمر، فقد استطاع بذكائهِ أن يعمل على تثبيت سلطانه، وحماية نفسهِ ضد الأخطار

[1] ينظر: مؤلف مجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر. ت: د: حسين مؤنس. ط: 1. القاهرة: الزهراء للإعلام العربي. 1991. ص: 17.

التي كانت تحيط به، فقد واجه الفتن الداخلية من خلال المهادنة التي كان يظهرها لخصومهِ السياسيين. وهذا ظهر من خلال سياســتهِ مع أبي الحســن بن أشــقيلولة، فقد عينَهُ والياً على (وادي آش). وبعد وفاته قام بإحضار ولديه ونقل إليهما الوصاية على هذا الإقليم؛ لكي يحافظ على أركان دولته من النزاعات الداخلية [1].

وفي مقابل هذا فقد لجأ إلى الاستعانة ببني مرين في عُدْوة المغرب، والاستنصار بهم في مواجهة الخطر الخارجي المتمثل بالجيش الإسباني. فتظاهر لأول أمرهِ بطاعة الملوك بالعدوة وافريقية، يخطب لهم زماناً يسيراً، وتوصّل بسبب ذلك إلى إمداد منهم وإعانة [2].

ولعلَّ ابن الخطيب في كلامهِ هذا يشير إلى سياسة اتَّبعها ملوك بني الأحمر، وتتمثل في عدم الاعتماد على إخوانهم في عُدْوة المغرب، فقد لجأ ملوكهم إلى مهادنة الإسبان، وهذا ما فعله ابن الأحمر. فقد فاوض الإسبان، وحاول استعادة ثغر (طريف) من بني مرين فعسكر بقوّاتهِ في (مالقة)، وقدّم العون للنصارى من خلال إمدادهم بالمؤنة والجند، ولكنّ وعود ملوك قشتالة له لم تتحقق، فعاد يخطب ودّ بني مرين مرّة أخرى، وأوفد ابن عمّه الرئيسَ أبا سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف ووزيرَهُ أبا سلطان على رأس وفد من كبراء الأندلس، إلى السلطان أبي يعقوب في طلب المودّة، وتجديد العهد، وتقرير المعذرة في شأن طريف، فابرموا العقد وأحكموا الصلح [3]. وكانت سياساتهم تسير وفق الظروف السياسية المتغيرّة والمحيطة بهم، فهم يدركون أن مملكتهم صغيرة وضعيفة، فهي تعيش وسط قوات ثلاث هي: قشتالة، وأراغون، والمغرب.

ونحن لا ننظر إلى سياساتهم على أنها نوع من التخلّي عن الأندلس وأهلها، فهم بفضل هذه السياسة استطاعوا أن يحافظوا على وجود العرب المسلمين، وتأخير نهايتهم لما يقرب من قرنين ونصف من الزمان.

---

(1) أنظــر: ابــن خلدون، عبــد الرحمن: تاريــخ ابن خلــدون. ج: 7. ت: تركــي فــرحان المصــطفى. ط: 1. بيروت: دار إحياء التــراث العربي. 1999. ص: 207.

(2) أنظــر: ابن الخطيــب، لســان الدين: الإحاطة في أخــبار غرناطــة. ج: 2. ت: د: يوســف علي الطويــل. ط: 1. بيروت: دار الكــتب العلمية. 2003. ص: 52.

(3) أنظــر: ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون. ج: 7. ص: 211.

وتميّز نظام الحكم عندهم بالوراثي، وكانوا يحكمون رعيتهم حكماً مطلقاً، معتمدين على أحقيتهم بحماية المسلمين، فَهم من سلالة أنصار النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، فكان السلطان يمسك بمقاليد الحكم بنفسهِ، ولا يترك لأحد غيرَهُ أن يدير شؤون البلاد. والثابت أن جميع حكامهم كانوا من سلالة بني الأحمر ووصل عددهم إلى اثنين وعشرين ملكاً. (1)

الجانب الاجتماعي:

لقد ضمّ المجتمع الغرناطي بين طيّاتهِ العديد من الطبقات الاجتماعية، وهذا يدلّ على أنّ مجتمع غرناطة كان مجتمعاً طبقياً يسودهُ التناقض في امتلاك الثروات. وقد ساعد النظام الملكي على وجود طبقات غنيّة وأخرى فقيرة، وهذا يتحدّد من خلال قرب هذه الطبقات أو بعدها من مركز الحكم الذي كان مقرّه في قصر الحمراء.

طبقة الحكّام:

وتعتبر هذه الطبقة من أغنى الطبقات داخل المجتمع الغرناطي. وكان أفرادها يميلون إلى الترف والملذّات، وكانوا – على عادة أجدادهم الأمويين – يتسابقون في بناء القصور والمتنزهات فامتلكوا العديد منها، وأقاموا فيها جلسات السّمر، وكانت خزائنهم مليئة بالأموال (2).

إنَّ المتتبع لسير هؤلاء الملوك، يرى أن قسماً منهم كان يميل إلى خشونة العيش والبعد عن ملذات الدنيا الزائلة، وهذا نجده واضحاً في حياة محمد بن يوسف بن خميس بن نصر الملقّب بالغالب بالله "فقد كان آيةً من آيات الله في السذاجةِ والسلامة والجمهورية، جنديّاً، ثغريّاً

---

(1) أنظـــر: ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية. ص: 122 – 123.
ينظـــر: مؤلف مجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر. ص: 54 – 55.
ينظـــر: ابن الخطيب، لسان الدين: كناســـة الدكّان بعد انتقال الســـكان. ت: د: محمد كمال شـــبانة. مصر: المؤســـسة العربية للتأليف والنشر. ص: 20 – 21.

(2) أنظـــر: ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النّصرية. ص: 31.
ينظـــر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 1. ص: 28.

شهماً، عظيم التجلّد، رافضاً للدَّعة والراحة، يخصِف النعل، ويلبس الخشن، ويؤثر البداوة، ويستشعر الجدّ في أمورِه"[1].

وظهر ترف هذه الطبقة من خلال الجواري التي كثرت في قصورهم، فمال هؤلاء إلى حياة المجون كالسلطان أبي الحسن النصري، الذي انهمك في شهواتهِ وملذاته والتمتع بالجواري، فتزوج فتاة نصرانية تسمى إيزابيلا، وأسلمت وتسمّت بثريا، ولكنّها منذ اللحظة الأولى بدأت تدبر لنقل ولاية العهد إلى ابنها سعد [2] وهذا أثار الفتن الداخلية في هذه المملكة.

أمّا ما يخصَّ وراثة العيش، فلم أجد في المصادر ما يدلّ على قاعدةٍ محدّدةٍ يتم من خلالها أختيار ولي العهد داخل الأسرة الحاكمة، فالسلطان محمد الأول قام في حياتهِ بتعيين ولده محمد الثاني وليّاً للعهد [3].

وتولّى محمد الرابع الحكم بعد وفاةِ والدهِ في السابع والعشرين من شهر رجب من سنة خمس وسبعمئة للهجرة، ولم يكن قد بلغ بعد سنته العاشرة [4].

وتولّى الغني بالله الحكم بعد وفاة والدهِ على بغتةٍ من سنة خمس وخمسين وسبعمئة، وكان قريب العهد بالمراهقة، ونابَ عنه في الحكم الوزير أبو النعيم رضوان [5].

وقد انحصرت السلطة بين هذه الأسرة: فحكمت البلاد حكماً مطلقاً ولم نجد في سيرتهم – على الرغم من الفتن الداخلية – ما يدلّ على أنهم قد ظلموا رعيّتهم، بل عاش الناس في رخاءٍ وازدهار حتى أواخر عهد هذه المملكة.

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص: 52.
ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية. ص: 30.
(2) مؤلف مجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر. ص: 57 – 58.
(3) ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية. ص: 38.
(4) ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر نفسه. ص: 77.
(5) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص: 4.

طبقة الوزراء والخاصّة:

تمتع الوزير بمكانة مرموقة داخل البلاط الملكي في الدولة النّصرية، وظهر هذا من خلال مشاركتهِ في وضع وتنفيذ القرار السياسي داخل الدولة.

وساعدت الظروف السياسية على اتّساع مهام الوزير، فكان يتولى مهام السلطان أثناء غيابه، كما حدث لابن الخطيب حينما ناب عن أبي الحجاج أثناء حروبهِ، إذ ألقى إليه السلطان بسيفهِ وخاتمهِ، وسُمي بـــ "ذي الوزارتين" بجمعه بين الكتابة والوزارة [1].

ومِن الحكّام مَنْ كان يتخذ له جماعة من الوزراء، على نحو ما فعل (الغالب بالله) ومن الوزراء الذين اتخذهم الوزير عبد الملك ابن يوسف بن صناديد، زعيم قاعدة (جيِّان)؛ وهو الذي مكّنه من ناصية (جيّان) المذكورة. واستوزر علي بن إبراهيم الشيباني، والرئيس أبا عبد الله ابن الرئيس عبد الله الرّميمي، والوزير أبا يحيى ابن الكاتب، وغيرهم ممّن تبلغ به الشهرة مبلغاً [2].

ومن المناصب المهمّة في الدولة النصرية ما جاء في باب القضاء. ومثّل هذا المنصب السلطة الدينيّة، ولعلّ المسحة الدينيّة التي اتخذها حكّام غرناطة، قد ساعدت على بروز طبقةٍ من القضاة كان لهم أثرٌ بالغ في كيان هذه الدولة فكان لهم النّظر في جميع الأشياء، مِن إقامة الحقوق، وتغيير المناكر، والنظر في المصالح [3]. وكان القضاةُ من أصحاب الفضل، وأهل العلم والعدل، واتّصفوا بمعرفتهم العميقة بتعاليم الشريعة الإسلامية.

ومن القضاة المشهورين في غرناطة ابن الحاج البلنيقي الذي كان في عهد الغني بالله. "وكان التكلّم بالشعر أسهل شيء عليه، وله ديوانٌ كبيرٌ، يحتوي على ضروب الأدب" [4].

وقد عرفت غرناطة العديد من القضاة أمثال: القاضي أحمد بن فركون، والقاضي ابن مسعود المحاربي وغيرهم.

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية. ص: 103.

(2) أنظـــر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص: 53.

(3) النّباهي، ابن الحسن: تاريخ قضاة الأندلس. ت: د: مريم قاسم الطويل. ط: 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1995. ص: 21.

(4) النباهي، أبن الحسن: المصدر نفسه. ص: 204.

الجانب العلمي والأدبي:

لقد حفل عهد غرناطة بعدد كبير من الشعراء والأدباء، وعمّت البلاد نهضةٌ علميّةٌ وأدبية واسعة، فنبغ العديد منهم، ومن هؤلاء: الوزير لسان الدين بن الخطيب، والوزير ابن زمرك، وابن خاتمة الأنصاري، وابن الجيّاب والملك يوسف الثالث...

وقد شجع ملوك بني الأحمر الشعراء وقرّبوهم منهم، ومن أشهرهم الشاعر الوزير لسان الدين بن الخطيب، وكان من أهل العلم والأدب والدين والخير، ثم قرأ القرآن أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي، وقرأ عليهِ العربية، ولازم القراءة والفقه والتفسير، وكان شيخه ابن الفخار الألبيري، ومن تآليفهُ: الإحاطة في أخبار غرناطة، واللمحة البدرية في الدولة النصرية، وريحانة الكتاب، وروضة التعريف بالحب الشريف. وزادت مصنفاته على الخمسين [1].

ولعلّ المتصفح لكتب التراجم الخاصة بهذا العصر يثيرهُ الانتباه، إذ لا يجد متخصصاً نظم الشعر دون سواه من فنون الأدب المختلفة، فكانوا شعراء وكتّاباً في آن واحد، وهذا نجدهُ عند ابن الخطيب وابن زمرك وابن الجياب وغيرهم.

ولم يختلف شعراء غرناطة عمّن سبقوهم من شعراء الأندلس، فجاءت أشعارهم في الوصف والمدح والهجاء وغيرها من الأغراض الأخرى، والمتتبع لها يجدها في مجملها لا تخرج عن كونها أغراضاً كانت منتشرة عند الشعراء السابقين، ولكن في مقابل هذا نجد أغراضاً قد ازدهرت دون غيرها مثل أشعار الحماسةِ ورثاء المدن.

وإلى جانب هذا نجد الشعر الديني المفعم بحب الله، وكان يلقى في المناسبات الدينيّة، أو عند الاستعداد للحروب ضد العدو المسيحي، لإيقاظ الهمم، والدعوة لنصرة الدين، والدفاع عن

---

[1] أنظر: المقّري، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عيّاض. ج: 1. ت: مصطفى السقا وآخرون. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. 1939. ص: 187 – 189.
ينظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة. 373/4.

المسلمين: كما كانوا تارة يدعون للجهاد في سبيل الله، وأحياناً أخرى يبكون أسراهم بأرض العدو وما يلقونه من تعذيب هناك [1].

وقد لعبت الصراعات والفتن الداخلية دوراً رئيساً في توجيه الشعراء، وهذا ما حصل مع الشاعر ابن زمرك في خلافهِ مع شيخهِ لسان الدين بن الخطيب، حيث كان سبباً في قتلهِ. فبعد فرار ابن الخطيب بسبب ما كان يدبرهُ ابن زمرك من مؤامرات ضده، استطاع هذا أن يتصدّى للعديد من الفتن الداخلية من خلال تنفيذ أوامر سلطانه في القضاء على وزير مشاغب خطير هو لسان الدين بن الخطيب [2].

وكان للعلوم حظٌ في مملكة غرناطة، فقد مالت أذهان المفكّرين إلى الاهتمام بمختلف العلوم التي انتشرت بشكل واسع في كل أرجاء المملكة، حتى غدت تضم العديد من المبدعين والمفكّرين الذين ألّفوا وأَبدعوا في هذا المجال. وقد حرص أهل الأندلس على التميّز في العلوم والفنون، فالجاهل الذي لم يوفقهُ الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعةٍ، والعالم عندهم معظّمٌ من الخاصة والعامة، يُشار إليه، ويُحال عليه. ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة. وكل العلوم لها عندهم حظٌ واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم، فإنَّ لها حظّاً عظيماً عند خواصهم، ولا يُتّظاهَرُ بها خوف العامة. ولا مذهب عند أهل الأندلس سوى مذهب مالك بن أنس [3].

ومن الذين نبغوا في دولة بني الأحمر في علوم القرآن والتفسير، محمد بن محمد النُّمري الضرير، وكان حافظاً للقرآن، طيب النّغمةِ به، طِرفاً في ذلك، ومن أهل المشاركة في العلم، واعظاً بليغاً، ويستحضر الشواهد من كتاب الله [4].

---

(1) أنظـــر: المقّري، شهاب الدين أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 1. ص: 277.

(2) أنظـــر: ابن زمرك، محمد: الديوان. ت: محمد توفيق النيفر. ط: 1. بيروت: دار الغرب الإسلامي. ص: 14.

(3) أنظـــر: المقّري، أحمد: نفح الطيب عند غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. ج: 1. ت: يوسف الشيخ محمد البقاعي. ط: 1. بيروت: دار الفكر. 1998. ص: 181.

(4) أنظـــر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 19.

ونبغ من علماء الدين والفقه في تلك الفترة، القاسم بن عبد الله بن الشّاط الأنصاري، وله كتاب (البرنامج) عن قضاة الأندلس [1].

ومن الذين نبغوا في اللغة والفقه، محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي، وكان فقيها وحافظاً في فنون كثيرة. واشتغل بالتدريس بغرناطة، وتولى منصب الخطابة بالجامع الأعظم، ولهد عدّة مؤلفات منها كتاب "التسهيل لعلوم التنزيل" و"الأنوار السنية في الألفاظ الكلمات السُّنيَّة" وله فهرسة كبيرة اشتهرت واشتملت على جملة كبيرةٍ من علماء المشرق والمغرب[2].

[1] أنظـــر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 4. ص: 217.

[2] أنظـــر: المقّري، أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج: 7. ص: 54.

الـــمُقـــدِّمـــة:

يُعدُّ عصر بني الأحمر من الأعصر التي نالها ظلمٌ كبيرٌ من الباحثين، ومردّ هذا، كونهم اعتبروه امتداداً لعصر الموحدين، على الرّغم من ظروفهِ السياسية والاجتماعية والثقافيّة المستقلّة، والتي واكبها نتاج أدبيٌّ واسع.

ومنذ بداية البحث، توجّهتُ إلى التنقيب في المصادر التي توفرّت بين يدي من خلال توجيهات الأستاذ المشرف، والأمر اللافتُ للنّظر، أنّ الباحثين في هذا الأدب لم يتطرّقوا إلى عصر بني الأحمر – وإن فعلوا – كانوا في عجالةٍ من أمرهم، وكأنهم أخرجوه من الأعصر الأدبية في الأندلس.

هذا الأمر دفعني إلى البحث عن هذه المصادر داخل الوطن وخارجه، فوجدتُ بعضاً منها في الأردن والعراق وسوريا، وكان اعتمادي في بحثي على المصادر الأصيلة لهذا العصر، كالدواوين، وكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، الذي كان المرشد الأساس في تعيين الشعراء الذين دخلوا غرناطة في هذا العصر. وإضافة إلى هذا الكتاب، فقد لجأتُ إلى النّفح والأزهار وهما من تأليف المقرّي التلمساني.

وقد تم تقسيم هذا البحث على فصول ثلاثة، جعلتها على النحو الآتي:

الفصل الأول: وتناولتُ فيه العوامل التي أدّت إلى ازدهار الحركة الشعرية في هذا العصر، وفيه ابتعدتُ عن التقليد، وحاولت الخروج بشيء جديد حول هذا الازدهار. وفيه عدتُ إلى المصادر والمراجع والدراسات الحديثة، من الناحية الأدبية والتاريخيّة والدينيّة.

الفصل الثاني: وهو دراسة للأغراض الشعرية التي ظهرت في هذا العصر، وأظنُّها شاملةً، فمن خلال العودة للأشعار الواردة في المصادر، استطعتُ الخروج بأربعة عشر غرضاً، بدأتها بغرض الوصف الذي يعتبر الأوسع انتشاراً، لما فيهِ من خصوصيّات دون غيرهِ، وأنهيتها بأقلها انتشاراً كالشعر التعليمي.

أمَّا الفصل الثالث: فقد تناولت فيهِ الخصائص الفنيّة المتعلِّقة بهذه الأشعار، وجاء هذا من النواحي البلاغية والأسلوبية والصوتية، وانصبّ اعتمادي في هذا الفصل على المراجع الحديثة التي تعنى بهذه النواحي.

وحاولت الربط بين الدراسات القرآنية وما فيها من آراء للعلماء في اللغة، وبين الأشعار الواردة في هذه الحقبة، مما دعاني إلى العودة إلى كتب عُنيت بهذا الجانب، ككتب التجويد والترتيل وغيرها.

أمّا الخاتمة، ففيها عَددٌ من النتائج التي توصّلتُ إليها من خلال دراستي، وأضفتُ إليها الفهارس التي تبين الأشعار، والآيات القرآنية، والأحاديث، والأمثال، وقائمةً بالمصادر والمراجع والمخطوطات.

أما عن منهجيّة البحث، فانَّني اتَّبعتُ في دراستي أكثر من منهج، وجاء هذا متماشياً مع طبيعة كلّ فصل، فقد اتبعتُ المنهج الوصفي في الفصل الأول؛ لما تميّز به من معلوماتٍ تعتمد على الجانب التاريخي. أمّا الفصل الثاني والثالث، فقد اتَّبعتُ فيهما المنهج التحليلي والنقدي.

الفصل الأول

عوامل ازدهار الحركة الشعرية في عصر بني الأحمر

تمهيد.

المبحث الأول: تشجيع الأمراء ووجود الملوك والشعراء.

المبحث الثاني: الهجرة من المدن الأندلسية إلى غرناطة.

المبحث الثالث: السعي من أجل تثبيت الشخصية العربية والحفاظ عليها.

المبحث الرابع: ضياع المدن الأندلسية واستنهاض الهمم.

المبحث الخامس: تأثر أهل غرناطة بالمشرق العربي.

المبحث السادس: التأثر بالأمم الأخرى داخل المجتمع الأندلسي.

المبحث السابع: الطبيعة الجغرافية.

عـوامل ازدهار الحركة الشـعرية في عصر بني الأحمر

تأثرت الحركة الشعرية في عصر بني الأحمر بمجموعة من العوامل التي ساعدت على تقدّمها وازدهارها. ونحن بدورنا لا نستطيع أن نغلِّب عاملاً على آخر، فجميعها تآلفت في رفـد النتاج الشعري وجعله يأخذ مكانهُ بين غيرهِ من الآداب. وكانت هذه الحركة في النصـف الأول من القرن السابع الهجري، تحاول رغم اضطرابها أن تعمل على وصل ماضيها بحاضرها. فلما نهضت مملكة غرناطة من غمرة الفوضى، بدأت الأندلس حياتها الجديدة في ظلّ هـذه المملكـة الفتيّة، حيث أخذت هذه الحركة في الاستقرار والهدوء.

وكان ملوك غرناطة من حماة العلوم والآداب، وكان بلاطهم يسطع بتقاليدهِ الأدبية كمـا فعل من قبلهم ملوك الطوائف. وخرج من بينهم الشعراء الذين تركوا نتاجاً شعرياً لا يقـل عـن غيره جمالاً وفناً، على نحو ما سنرى عند الملك يوسف الثالث. واشتهر مؤسس دولتهم محمد بن الأحمر بحبّهِ للشعراء والعلماء ورعايتهما، فكان يعقد مجلساً يستقبلهم فيه، فينشدونه قصائدهم.

وساعدت الهجرة التي قام بها سكان المدن التي سقطت بيد الإسبان، على تقدّم أغـراض عديدة من الشعر، ولاسيّما رثاء المدن، والذي عبّر بدورهِ عن هموم المسلمين الذين عـانوا ذلّ التهجير الذي مارسه عليهم الإسبان، وما ترافقهُ من قتلٍ وتنكيل، فلم يفرقوا بين طفل رضيع ،أو شيخٍ طاعن في السنّ، وأصبحت غرناطة ملاذاً يلجأ إليه الشعراء وعامّة الناس.

وكان العامل السياسي رافداً رئيساً للنتاج الشعري في هذا العصـر، وجـاءت أحداثـهُ متسارعةً، حيث تراجع النفوذ الإسلامي في الأندلس، وواكب هذا التراجع ثوراتٌ وفتنٌ داخليـةً جرت بين ملوكهم، على نحو ما حدث مع الغني بالله وغيرهِ من الملوك. وقد تنبّه الشعراء إلـى هذا الواقع، فلم يرضوا عنه، وهذا ما دفعهم إلى إرسال الصرخات مـن أجـل الحفـاظ علـى الشـخصيّة العربية، واسـتنهاض الهمم للوصـول إلى الغايـة المرجـوّة وهـي الحفاظ على الأرض والإنسان.

وأولع الأندلسيون كثيراً بالطبيعة، وأكثروا من وصفها، فكانت منتجع العيون والأفئـدة. ويندر أن نجد شاعراً أندلسياً يغفل هذا الموضوع، كما أنهم كانوا يصدّرون قصائدهم بمقـدمات تصف طبيعة بلادهم، على غرار أسلافهم من الجاهليين الذين كانوا يبدؤون قصائدهم من خـلال الوقوف على الأطلال وبكاء الحبيب. فجاء وصف الطبيعة عندهم ظاهراً في معظم أغراضـهم الشعرية، وعبّرت قصائدهم عن حبّهم لوطنهم وتعلّقهم به. ولم ينفصل هـؤلاء الشـعراء عـن إخوانهم في المشرق، فجاءت المعاني والأفكار التي عرضوها في قصائدهم متأثرةً بهم، وكـان هذا واضحاً في أشعارهم. وهذا أمر طبيعي، فالروابط لم تنقطـع بيـنهم، فالأندلسـيون كـانوا ينظرون إلى الأدب في المشرق نظرة احترام وتقدير. فهو جزء لا ينفصل عن أدبهم. واستمرت الهجرات والرحلات بينهم طوال حكم المسلمين في الأندلس.

وسنحاول في هذا الفصل أن نعرض على نحو من التفصيل العوامل التي أسـهمت فـي ازدهار الحركة الشعرية في هذا العصر.

المبحث الأولً: تشجيع الأمراء ووجود الملوك الشعراء:

تبوأ الشعراء مكانةً هامّة في مجتمعاتهم، وكان لهم دور بارز في كسب رأي عامّة الناس بمختلف طبقاتهم، ويرجع هذا إلى طبيعة الإنسان العربي، التي اتّسمت بالعاطفية ورقة المشـاعر من جانب، والعصبية القبلية من جانب آخر، فالولاء للقبيلة والأسرة عُرِف منذ العصر الجـاهلي واستمّر إلى عصرنا الحديث.

هذا الدور لم يغفله أصحاب السياسة والحكم، بل منحوه جلّ اهتمامهم، من أجل الحصول على ودّ الشعراء، أو أن يأمنوا ألسنتهم على أقلّ تقدير.

والمتتبع للتاريخ العربي، يرى أن بلاطات الحكّام والخلفاء، لم تخلُ منهم، فقد جعلـوهم المدافعين عن سياساتهم الداخلية تجاه شعوبهم، أو الخارجية في مواجهة خصومهم، على النحـو الذي ساد في سياسات ملوك بني الأحمر. لقد كان للشّعر مكانة لدى الملوك، فنبـغ مـنهم مَـنْ يقرض الشعر، ودرجوا على استوزار الشعراء، فكان الوزير نديم الملـك، وشـاعره، ومـدبر

مملكته، فاعتزّ الشعراء بذلك، وسمت مكانتهم، وحفلت بهم دور الأمراء، ودرّ عليهم الرّزق، كما اتّفق لابن الخطيب عند بني الأحمر.[1]

ونـــلاحظ أنّ الحركـــة الفكرية في الأندلـــس – منذ النّصـــف الأول مـــن القرن السّابع الهجري – تحاول أن تعمل على وصل ماضيها بحاضرها. فلمّا نهضت مملكـــة غرناطـــة مـــن غمرة الفوضى، وبدأت الأندلس حياةً جديدة، أخذت الحركة الفكرية بالاستقرار، وكـــان ملـــوك غرناطة جرياً – على سنن ملوك الأندلس السّابقين – من حماة الأدب، وكـــان بلاطهـــم يســـطع بتقاليدهِ الأدبية الزاهرة.

وقد بلغت الحركة الثقافية مبلغاً مهماً في عهد السلطان محمد بن يوسف بن نصر ثـــاني ملوك بني نصر، وأيام السلطان أبي الحجاج يوسف الأول، الذي تميّز عهدهُ بوفرة الإنتاج الأدبي نثراً ونظماً.[2]

والمتصفح لكتب التراجم الخاصة بهذا العصر يثيرهُ الانتباه، إذ لا يجد متخصصاً انكـــبّ على نظم الشّعر دون سواه من الفنون المختلفة أمثال ابن الخطيب، وابن الأحمر، وابن زمـــرك، فكلهم كانوا كتّاباً وشعراء في آن واحد. بل نجد ابن الخطيب وابن الأحمر أبا الوليد إسماعيل بن يوسف اشتهرا بالشعر أكثر من شهرتهما كاتبين[3].

وقد عُرِف عن ابن الأحمر – إلى جانب بنائهِ القصر المشهور – أنّهُ كان يعقـــد مجلســـاً عامّـــاً يومين في الأسبوع، ترتفع إليه الظلامات، ويشافهه طلاب الحاجات، وينشدهُ الشعراء، وتـــدخل إليه الوفود، ويشاور أرباب النصائح في مجلس يحضرهُ أعيان الحضرة وقضاة الجماعة[4].

---

[1] أنظر الركابي، جودت: في الأدب الأندلسي. ط2. مصر: دار المعارف 1966. ص 63.

[2] أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية . القاهرة: المطبعة السلفية .ص:38.

[3] الدوسري، أحمد ثاني:الحياة الاجتماعية في غرناطة في دولة بني الأحمر. الإمارات العربية المتحدة: المجتمع الثقافي. 2004. ص 233 – 235.

[4] ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النّصرية. ص31.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في تاريخ غرناطة. ج2. تحقيق يوسف الطويل. ط1. بيروت. دار الكتب العلمية. 2003. ص 23.

وكان من بين كتّابه المحدّث الشهير أبو الحسن علي بن محمد بن سعيد اليحصبي اللّوشي. وكان من شعرائهِ أبو الطيّب الرّندي صاحب المرثية الشهيرة، وكان أثيراً لديه، وقد نظم في مدحه غرر قصائده.[1]

وإذ اما نظرنا إلى ملوك بني الأحمر فإنّنا نجد كثيراً منهم ممن خاضوا ميادين الشعر، ونذكر منهم: محمداً الثاني الملقب بالفقيه، وأبا عبد الله محمد الثالث، والملك يوسف الثالث، وله ديوان شعر احتوى على معظم أغراض الشعر العربي من مديح وفخر وغير ذلك من الأغراض الأخرى.

وجاء في وصف محمد أبي عبد الله (محمد الثالث) الملقّب بالمخلوع، أنّه كان يقرض الشعر، ويصغي إليه، ويثيب عليه، فيجيز الشعراء، ويرضخ للندماء باذلاً لهم العطايا، ويعرف مقادير العلماء، ومن شعرهِ:

مَلّكْتُكِ القلبَ وإنّي امرؤ ... عَلَيَّ ملك الأرضِ قد وُقّفا

أوامري في الناسِ مسموعةٌ ... وليس مني في الوَرَى أشرفا

نحنُ ملوكُ الأرضِ مَنْ مِثْلنا ... حُزْناً تَليدَ الفخرِ والمُطْرَفا[2]

(السريع)

ومن الملوك الشعراء الرئيس إسماعيل بن الأمير أبي سعيد فرج خامس ملوك بني الأحمر، حيث وصفه الأمير إسماعيل بن يوسف صاحب كتاب (نثير الجمان في شعر من نظمني وإيّاه الزمان) بقوله: "طلع في سماء البراعةِ نجماً، وبرز في ميدان البلاغة ضيغماً شهماً، حاز من الفصاحة ما لم يحزهُ سواه، ومن الذكاء ما هو ألذّ من الشهد في الأفواه. ومع ذلك فهو

---

[1] أنظر: عنان، محمد عبد الله: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين وهو العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس.ط:3. مطبعة لجنة التأليف والترجمة.1966: ص 460.

[2] ابن الخطيب، لسان الدين. الإحاطة في أخبار غرناطة. ج1. ص 316.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصريّة. ص 48 – 49.

بالأدب عارفٌ، وعلى محبتهِ عاكف. وربّما نظم القصائد، فتأتي كالقلائد في أجياد الخرائد، وتشبيهاتهِ في الأدب ملوكيّة".(1)

وقد انتشرت ظاهرة التكليف في قول الشعر في عصر بني الأحمر على نحو ما فعل أبو الحجّاج، عندما طلب من لسان الدين بن الخطيب القول في أغراض يقترحها عليه.

يقول ابن الخطيب "وقلتُ أصفُ ليلة أنسٍ حسبما كلّفتُ ذلك، و "قلت من النظم القديم باقتراحهِ رحمهُ الله".وما أكثر هذه الأشياء التي يراها السلطان أبو الحجاج وغيرهِ من السلاطين الذين اتّصل بهم ابنُ الخطيب، فيريدون فيها شعراً، فيلبي هذه الإرادة ابنُ الخطيب، ومن ثمة نجد شعراً كثيراً قاله باقتراح".(2)

وقد ساعد غنى الأندلس وأمراؤها على تشجيع الأدب، وأُغدقوا الأموال والجوائز على الأدباء، وتفاوت شعر هذه الطبقة بين الجودة والضعف، أو بين الضعف والتكلّف، واتّجهوا في معظم أشعارهم نحو الغزل بالجواري والفخر والحماسة.(3)

أثّرت الصراعات السياسية الداخلية والخارجية في نتاجات غالبية شعراء غرناطة، وظهر هذا في بدايات دولة بني الأحمر، وفي ظلّ هذه الظروف، تنبّه الشعراء لأهميّة مناصرة الحكام في خوض هذه الصراعات، ولهذا كانت أشعار ابن الخطيب هي سبيله الوحيد لاحتلال أعلى مكانة عند الأمير. "واشتهر بأشعاره وأسلوبه الممتاز في كتابة رسائل الدولة لحكّام البلاد الأخرى. ولقد قدّم لسيدهِ ملك غرناطة أكبر الخدمات برسالتيه اللتين بعث بهما إلى سلطان مراكش، واستدرّ بهما عطف السلطان ودموع رجال بلاطهِ".(4)

(1) ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل: نثير الجمان في شعر مَنْ نظمني وإياه الزمان. ص 81.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج1. ت: محمد مفتاح. ط1. الدار البيضاء: دار الثقافة. 1989. ص 18.

(3) أنظر: ياغي، هاشم وآخرون: تاريخ الأدب العربي. ط1. عمان: منشورات جامعة القدس المفتوحة. 2005. ص 321.

(4) أنظر:ابن الخطيب، لسان الدين:نفاضة الجراب في علالة الأغتراب. ت:أحمد مختار العبادي. القاهرة:دار الكتاب العربي ص:343.

ويصعب علينا اليوم أن نتحدث عن شعرائهم، فالكلّ يقرض الشعر ويرتجلــهُ. وجميــع الملوك والوزراء ورجال الدولة ورجال السيف والقلم قد نظموا الشعر وتغنّوا به.[1]

والتنافس بين الأمراء والحكام، لم يقتصر على الجانب السياسي، بل كان يشمل الناحيــة الأدبية أيضاً، وكان كلّ أمير يعمل على أن يكون في كنفه من الشعراء ما يفوق ما لدى منافســه عدداً ومكانةً.[2]

وما من شك أن موقفهم الإيجابي، قد رفع من شأن الأدب والعلم في أعين الناس، وشجّع على التنافس والإبداع، مما أكسب الحركة الأدبية أبعاداً جديدة. وقد اتّخذ هؤلاء الملوك حجــابهم ووزراءهم من مشاهير الأدباء، الذين استطاعوا أن يبثّوا روح التجديد والتطور، حتى نمت آداب الأندلس، وبلغت ذروة كمالها.[3]

فالسلطان بحاجة دائمة إلى أن يكون حكمهُ شرعيّاً، وهنا يأتي دور الشعر في إثبات هذه الناحية، واستمدّ بنو الأحمر هذه الشرعيّة في حكمهم معتمدين في ذلك على نَسبهم الذي يتّصــل بالصحابي الجليل سعد بن عبادة الأنصاري. وظهر هذا واضحاً من خلال سياستهم في الحكــم، فمنذ البدايات نراهم يتّخذون شعارهم الديني "لا غالب إلا الله". وهم في هــذا يمنحــون أنفســهم الأحقيّة في حكمهم للمسلمين في الأندلس. وقد حاولوا أن يظهروا أمام العامّة بمظهر المخلِّصــين الذين اختارهم الله لحماية دينهِ. وهذا الأمر لم يغفلهُ الشعراء، فقد أدركوا أهميتهُ بالنسبة إلى بني الأحمر فكانوا يتقرّبون إليهم من خلالهِ. وهذا ما دفعهم لذكرهِ في أشعارهم وخصوصــاً الكبــار منهم أمثال: ابن الخطيب وابن زمرك وابن خاتمة الأنصاري.

يقول ابن زمرك موضّحاً نسبهم:

يا ابن الألــى قد أحرزوا فضل العلا   وسَــمَوا بطــيب أرومــةٍ ونِــجارِ

---

[1] هونكة، زيغريد: شمس العرب تسطع على الغرب. نقلهُ عن الألمانية فاروق بيضون وكمال الدسوقي. ط8. بيروت: دار صادر. 2002. ص 506.

[2] الركابي، جودت، في الأدب الأندلسي. ص 64.

[3] عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. القاهرة: دار الآفاق العربية. ص 156. ينظر الحمصي، أحمد: ابن زمرك الغرناطي سيرته وأدبه.

وتتوبُ عـــن صوبِ الغَمـــامِ أكفُّهـــم   وتتوب أوجُـــهـــهـــم عـــن الأقمـــارِ
مِـــنْ آلِ ســـعدٍ رافـــعي علـــمَ الهُدَى   والمصـــطفَيْن لنصـــــــرةِ المـــختارِ
وأصبحتَ وارثَ مجـــــدهم وفخارهم   ومشـــــــرِّفَ الأعصار والأمصارِ(1)

(الكامل)

ولعلّ لسان الدين بن الخطيب مِنْ أكثر الشعراء الذين حاولوا إبراز أحقيّة ملـــوكهم فـــي حكمهم، فجاءت هذه الدعوة سمةً واضحةً في أغلب أشعارهِ التي قيلت فـــي مـــدحهم وإظهـــار شجاعتهم في الحروب التي يخوضونها دفاعاً عن الإسلام والمسلمين. ومن هذا ما جاء في مدح السلطان أبي الحجاج بن نصر حيث يقول في نسبهم:

أبني عُـــبَادَةَ إنَّ فخـــــــــرَ قديمكُم   تُلِيَتْ بفرقانِ الهُدى أســـــطارُهُ
النّصـــرُ لفـــظٌ أنتُـــــم مَدْلُـــولُـــــه   والدِّيـــنُ روضٌ أنتُـــم أنـــوارُهُ
نصـــرُ النبوّةِ فيكم مســـــــــــتُوْدَعٌ   فهو النَّســــــيمُ وأنتُم أسَـــــحارُهُ
القـــومُ ظـــــلُّ الله بينَ عبـــــــادِهِ   حاطَ اليقينُ بِهِم مَعـــزَّ ذِمَـــــارُهُ
من كان أنصــــــارُ النبيِّ جـــدُودَهُ   فملائكُ السّـــَبْعِ العلا أنصـــارُهُ(2)

(الكامل)

وكثيرٌ من الشعراء لم يلتفت إلى ذكر هذه القضيّة في أشعارِه، إلا أنهم التفتوا إلى بيـــان دورهم في حماية الدِّين والدِّفاع عنه، وهم بهذا يُسهِمون في رفعِ مكانتِهم بين النّاسِ، حيثُ يقول أبو عبد الله محمد بن أبي عاصم القيسي مبيّناً دورهم في حماية الدين، وجاء هذا في سياق مدحه للسلطان إسماعيل بن فرج:

شــــيّدتَ بملكِكَ للهـــدى أركانُ   وســـــــما له فوق السّـــها بـــنـــيانُ
والله أســــــــعدهُ بـــدولتكَ التـــي   هـــــي لـــلـــعـــبـــاد والبلادِ امـــانُ
أخلصتَ في دين الإله ســــــريرةً   هي بالرّضى لك عندهُ إعــــــــــلانُ

(1) ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 54.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 373 – 374.

وأقمتَ من ســنن النبيّ محمــدٍ   ما قامَ مــنكَ بشــــكرهِ الإيمــان[1]

(الكامل)

رأينا أنَّ ملوك الأندلس كان أكثرهم من الشعراء على عكس ملوكِ الشرق، فلــدينا مـــا يشبه القاعدة العامّة، وهي أنّ الملوكَ كلُّهم شعراء، وقلّما وجدنا فيهم ملكاً أو أميراً غير شـــاعرٍ، "وأغلب الظنِّ أنَّ البراعةَ في الشعر والبيان، كانت من المرشِّحات لِلمُلْك وللمناصـــب العاليـــةِ، وكذلك تنافس في الشعر كلّ مَنْ طالت نفسهُ إلى الرياسة".[2]

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة. ص: 173.

(2) انظر:حميد، بدير: قضايا أندلسية. ط1. القاهرة: دار المعرفة. 1964. ص 127.ينظر: مؤلف مجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر.

المبحث الثاني: الهجرة من المدن الأندلسية إلى غرناطة:

أصبحت غرناطة حاضرة المسلمين الكبرى في الأندلس، إلا أنّها لم تستطع بقوة أمرائها من بني الأحمر حماية جميع الأندلس التي كانت تحت حماية سلطان الموحدين، وسقطت مدن (قرطبة)، (وبلنسية)، و(إشبيلية)، ومجموعة من المدن والحصن الإسلامية، وكان سقوط (إشبيلية) مؤذناً بالانهيار التّام للوجود العربي، وسبباً في إثارة أطماع النصارى، وخاصة البرتغاليين الذين هالهم ما قام به فردلند الثالث من أعمال.

وكان ابن الأحمر رجلاً بصيراً بالأمر حسن التصرف، وأحسن من سياسة الرعية، وتفانى لخدمة دولتهِ، وحصل على مساعدة المرينيين ملوك مراكش في صراعهم للقوى الاسبانية، فأطال ذلك من وجود المسلمين في الأندلس، كما وفد على غرناطة ألوف النازحين من الممالك الإسلامية التي سقطت بأيدي النصارى، من أرباب العلم والحرف والصناعات ورجال السيف، فَعَمَرَ ابن الأحمر مملكته واتّخذ منهم جيشاً، وهكذا عُقِدَت عليه الآمالُ لإحياء الأمجادِ العربيةِ الإسلاميةِ.[1]

ولعلّ السقوطَ المتسارعَ للمدنِ الأندلسيةِ، وعدم وجود الفاصل الزمني بينها، هو الذي دفع غرناطة لأن تنهض سريعاً من أجل الدفاع عن الوجود العربي في الأندلس.

"إن العدد الكبير للمدن والحصون التي سقطت بيد الأسبان، أدّى بالمسلمين قسراً أن ينحازوا في ركن ضيّق بالجنوب هو مملكة غرناطة".[2]

لقد شعر الأندلسيون أن غرناطة ستكون ملاذهم الأخير، والمتتبع للهزائم التي لحقت بالمسلمين، يلاحظ هذا الأمر بشكل جليّ وواضح، فعندما سقطت (لوشة) بيد القشتاليين في سنة

---

[1] أنظر : ابن الخطيب ،لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية. ص:30 . ينظر عودات، أحمد وآخرون: تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس الهجري حتى القرن العاشر الهجري. اربد: دار الأمل للنشر والتوزيع. 1989. ص 160.

[2] أنظر ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي. ط10. القاهرة: دار المعارف. 1960. ص 411. المقرّي، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج5. ت: يوسف الشيخ محمد البقاعي. ط1. بيروت: دار الفكر. 1998. ص 194.

إحدى وتسعين وثمانمئة ،هاجر أهلها إلى غرناطة، وعندما قدم ملك غرناطة إلى (إلبيرة) خـرج أهلها وقدموا على غرناطة ،وأصبحت في نهاية الأمر تجمعاً لكلّ بلد تسقط في يد الأسبان.(1)

ومع تزايد هجرات المسلمين الأندلسيين إلى غرناطة، فقد أصبحت المدينـة مسـتودعاً لتراث الأندلس القومي والسياسي والفكري والحضاري بشكل عام. ونشأت عـادات اجتماعيـة محببة في مجتمع غرناطة، كالصدق والعدل والتكافل واحترام الغريب.(2)

في هذا المقام لا بدّ أن نبين أمراً، هو أنّ المهاجرين لم يلجأ جميعهم إلى غرناطة، وإنّما لجأ بعضهم إلى المغرب، ولكنّ الكثرة الغالبة فضّلت البقاء في الأندلس ممثلة بحصنها الأخيـر وهو غرناطة. حيث تجّمع فيها على مدى السنين أكثر من مليون أندلسي، انضم إليهم في القـرن الثالث عشر نحو نصف مليون أندلسي آخر، جاء أكثر من نصفهم من مـدن قرطبـة وأشـبيلية وشريش وقادس (300.000 تقريباً)، ونحو 50.000 شخص من مملكة بلنسية وما حولها. ولم تكن هذه القوة كافية لانتزاع الأراضي التي احتلها القشتاليون، إلا أنّها كانت قادرة علـى صـدّ الشماليين فترة طويلة.(3)

ولعلّ من أهمِّ الأسباب التي دفعت المسلمين للهجرة إلى غرناطة، الشعور الذي سـيطر عليهم – وهم محقّون في ذلك – بأنّ حكامهم لم يعودوا قادرين على حمايتهم بسـبب خلافـاتهم السياسية، وتصاعد الدعوات بينهم لمهادنة العدو مقابل التنازل عن المدن والحصون. وخير دليل على ذلك، ما أبداهُ أهل (مالقة) من صمود أمام النصارى قبل سقوطها، فقد نفد ما عنـدهم مـن الأطعمة والزاد، وأكلوا ما كان معهم من المواشي، من خيل وبغال، وحمير وكلاب، والجلـود،

---

(1) المقرّي: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج5. ص 400.

ينظر: أخبار العصر في انقضاء دولـة بني نصر (مؤلف مجهول). ت: حسـين مؤنـس. ط1. القـاهـرة: الزهراء للإعلام العربي. 1991. ص91 – 92.

(2) أنظر جودة، صادق: تاريخ المغرب والأندلس. ط1. عمان: منشورات جامعة القدس المفتوحة. 1997. ص 291.

(3) أنظر بشتاوي، عادل: الأمة الأندلسية الشهيدة. ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 2000. ص 115.

وورق الشجر، وغير ذلك من الأشياء التي يمكن أكلها، ومات منهم الكثير، ولم يـدخل العـدو المدينة إلا بالمكر والخديعة، فأمعن فيهم القتل والأسر وسبي النساء والأطفال.[1]

وتعتبر هذه المرحلة من أخصب المراحل في مجال الشعر الوطني، بما اشتمل عليه من قصائد تحريض وحنين ورثاء واستصراخ. فمع ازديادها وكثرة عدد المهاجرين، استطاع ابـن الأحمر أن يؤلف جيشاً كبيراً عاودهم بعد حلم استرداد الممالك الضائعة، غير أن ذلك بقي حلمـاً مستحيلاً.[2]

ومع تنامي هذه الهجرات، فقد اتّسعت مدنٌ أخرى ومنها المريّة، حيث وفد إليها العديـد من مسلمي الأندلس الذين أنفوا الحياة في بلادهم في ظلّ الحكم المسيحي. وأصبحت في القـرن الرابع عشر الميلادي من أهمّ ثغور مملكة غرناطة بعد مدينة مالقة، فلم يبق للمسلمين من الثغور سوى (المريّة)، و(المنكب)، و(مالقة)، و(طريف)، و(الجزيرة الخضراء)، و(جبل طارق). ومـع تقلّص ملك المسلمين أصبحت مملكة غرناطة تقتصر على القسم الجنوبي من شبه جزيرة إلبيريا، وامتدّت سواحلها من المريّة شمالاً إلى طريق في أقصى الجنوب.[3]

وكان أغلب سكان الدولة النصرية من المسلمين، إلا أن أصولهم الوراثية غامضة. ففـي سنة 710 هجري، أعلن الرّسل الأراغونيون المبعوثون إلى القصر البابوي لكليمـون الحـادي عشر، أنّ مئتي شخص عربي يعيشون في غرناطة وليس بينهم سوى خمسين من أصل عربي. وبعد ذلك بخمسين سنة، أشار ابن الخطيب إلى أن معظم سكان غرناطة كانوا من العرب، تبعـاً لأصلهم إلى جانب البربر والمهاجرين. وانضمتّ إلى هذه الطائفة من السـكّان سـلالاتُ مـن العرب السوريين، ومن المولّدين، ومن اليهود.

إنّ هذا التباين في العناصر ساعد في تكوين الثقافة ونموّها، وكذلك فقد أعطـى لمملكـة غرناطة صفة عربية، ونذكر أنّ ابن الخطيب نفسه كان يفتخر بنسبه الـذي يمتـد إلـى قبيلـة

---

(1) أنظر: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر. ت: حسين مؤنس. (مؤلف مجهول). ص 97 – 98.

(2) أنظر:عيد، يوسف: أصوات الهزيمة في الشعر الأندلسي. ط1. بيروت: دار الفكر. 1993. ص 12.

(3) أنظر: سالم، السيِّد: تاريخ مدينة المريّة الإسـلامية، قاعدة أسـطول الأندلـس. ط:1. بيروت دار النهضة العربية للطباعة والنشـر. 1969. ص:102.

السلمانيين المتفرعة من المراديين، وهم عرب اليمن القحطانية، فعائلة لسان الدين نشـأت في سوريا، ثم هاجرت إلى إسبانيا في القرن الثامن الميلادي، واستقرّت بقرطبة، ومنها اتّجهت إلى (طليطلة) ثم إلى (لوشة)، وانتهى بها المقام في غرناطة.[1]

غير أن ما ذكر من عدد العرب بأنّه لم يتجاوز أكثر من مئتي شخص، فيه تناقض يرفضهُ العقل، لأنّ التجّمع العربي الأصيل كان موجوداً في غرناطة قبل قيام دولة بني الأحمر، مع الاعتراف بأثر الهجرات في نمو الدولة. ومن جانب آخر، رأينا أنّ الهجرات إلى غرناطة لم تتسارع إلا في بدايات القرن التاسع للهجرة.

ومما لا شكّ فيه أنَّ الإنسان الذي يُهجَّر من وطنه يحمل ذكرى المظالم السّابقة، وآلام المطاردة المحزنة، وأمل الانتصاف، وشعوراً لا يقهر ببغض النصرانية، كل هذا أدى إلى ازدهار شعر الاستنجاد، وتنامي الدعوات المتلاحقة للنُّهوض من أجل استرداد ما ضاع من المدن والأعراض.[2]

وخير ما يمثل هذا الواقع الذي وصل إليه الأندلسيون قول أبي الطيب صالح بن شريف الرّندي، إذ قال يندب بلاد الأندلس، وبهدف بعث العزائم وتحريكها، كي يهبَّ أهل الإسلام لنصرة الدين، فيقول مصوراً هذه الآلام من خلال أبياتٍ تدل على ضياع الأرض وانتهاك العرض، وهما أغلى ما يملك الإنسان:

وطَفلَةٍ ما رأتها الشمسُ إذ بَرَزَتْ ... كأنّما هي ياقوتُ ومرجانُ

يقودُها العِلجُ للمَكْروهِ مُكْرِهةً ... والعينُ باكيةٌ والقلبُ حَيْرانُ

لِمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كَمَدٍ ... إن كانَ في القلبِ إسلامٌ وإيمان[3]

(البسيط)

---

[1] أنظر:ابن الخطيب ،اسان الدين : الأحاطة في أخبار غرناطة :ج:1.ص:7.ينظر: الدوسري، أحمد: الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر. ص 67 – 68.

[2] أنظر:عنان، محمد: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين. ص 53.

[3] المقّري، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار عيّاض. ج1. ت: مصطفى السّقّا وآخرون. الرباط: مطبعة فضاله– المحمدية. 1979. ص 50.

وقد دخلت أسراتٌ عريقةٌ إلى مملكة غرناطة، حيث لجأت إلى المناطق الجنوبية والمدن السّاحلية، علاوةً على طوائف البربر الذين وفدوا من المغرب، وطــاب لهــم المقــام بــأرض الفردوس، حتى غدت بهم غرناطة يوما إمارة تميّزت بعنصر البرابرة، على الرّغم ممّا بها مــن سكان آخرين.[1]

اتّبع ملوك بني الأحمر سياسةً دفعت الكثير من الأدباء لكي يهاجروا إلى مملكتهم، ولهذا نستطيع أن نقول: إنّ من أساليب الهجرة إلى غرناطة وجود عامل الترغيب، وهنا نــدخل فــي سعي الشعراء نحو الجاه والمال، فالكثير منهم لم يحالفه الحظ في نيل مرتبة عند وليِّهِ وحاكمــه، فحاول أن يعيد ما فاته عِند ملوك بني الأحمر.

وإذا ما استعرضنا كتبَ التراثِ فإنّنا نجدُ الكثيرَ من هؤلاءِ أمثال: علي بن يوســف بــن محمد بن كماشة، وكان قائداً ووزيراً للغني بالله ثامن سلاطين بني نصر، وهو من بلدة طليطلــة التي تبعد عن (إشبيلية) عشرين ميلاً، وعلي بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكناني القيجــاطي، وأصلهُ من سبتة، واستوطن غرناطة، حتى عُدَّ من أهلِها قراءةً وإقراءً ولزوماً، وقد ورد علــى غرناطة مُسْــتَدْعًى عام اثني عشــر وســبعمئة هجري، وقعد بمســجدها الأعظــم، وكان أديباً لَوْذعيّاً فكِهاً.[2]

ولهذا فإنّنا نلحظ أنّ قســماً كبيراً مــن شــعراء هــذه الفترة هــم مــن الذين وفــدوا على غرناطة.

المبحث الثالث: السعي من أجل تثبيت الشخصية العربية والحفاظ عليها:

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: كناسة الدكّان بعد انتقال السكّان. ت: محمد كمال شبانة. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر . ص 17.
[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج4. ص 81.

حاول الأندلسيون الوقوف أمام هجمات النصارى المتكررة على المدن والحصـــون، لأنّ الإسبان استطاعوا أن يقودوا المعركة بوعيٍ وإدراك، وساعدهم في هذه المعركة عوامــل عــدّة نذكر منها:

1. عاش العرب في الأندلس ضمن الصراعات السياسية، وتمثل هــذا فــي صــراع ملــوك الطوائف، فقد سعى كلّ ملك للسّيطرة على الممالك الأخرى، فرأينــا صــراع المــرابطين والموحدين، ثم الصراع الذي دار بين بني الأحمر أنفسِهم، حتى أنّهم في أحلك الظــروف، دارت بينهم هذه الصراعات، ولا ننسى القتال الذي جرى بين أبي عبد الله الصغير وعمّــهِ أبي عبد الله الزُّغل، وقد كان الإسبان على أبواب غرناطة.

2. سعي الكثير من ملوك الأندلس لنيل رضى ملوك قشتالة، ومحاولة الميل إلى جانبهم وإهمال أهل المغرب في طلب النّصرة.

3. قتال الإسبان للمسلمين نبع من إيمانهم بأنهم يدافعون عــن أرض الآبــاء والأجــداد، فهــم ينظرون إلى العرب بأنّهم محتلّون، ويجب أن يعودوا إلى بلادهم.[1] فحربهم ضد المسلمين حرب استرداد من وجهة نظرهم.

4. استطاع الإسبان أن يكوِّنوا لأنفسهم صورة تدل على التسامح، ولهذا نراهم يتركون لســكّان المدن التي تسقط في أيديهم، حرية البقاء في أراضيهم لكي يزرعوها ويمارســوا حيــاتهم اليومية. ولكنّ هذا الأمر كان ينطوي على خديعةٍ أبطنها الأسبان في نفوسهم، فهم يــدركون أن هؤلاء المدجنين أصحابُ خبرة ودراية بالزراعة والصناعة، إضافة إلى ذلك، فــإنّهم إن أخرجوا من ديارهم، فلا بدَّ أن يلتحقوا بجيش غرناطة تحت قيادة ابن الأحمر.

وكان سقوطُ أيّه بقعةِ أو حصن من غرناطة في يد الأسبان، لا يعنــي انتهــاء الوجــود السياسي، بل حرب الإفناء في العقيدة، وفي الوجود البشري.

---

[1] أنظر: القاسمي، جاسم: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة. 2000. ص 175.

وعلى أيّة حال، فقد دخل العرب إلى الأندلس فاتحين وناشرين لدين الله، ومكوّنين دولـــةً إسلاميةً قويةً، ولكنَّ التواجد الاجتماعي المتنوّع العناصر، كان سبباً من أسباب ظهور النعــرات العنصرية العرقية، فالمجتمع الأندلسي تكوّن من العربِ والبربرِ وأهلِ البلادِ الأصـــليين، وظـــلّ العربُ يتسيّدون على العناصر الأخرى حتى ثار قسم منها على الدولة وعاثوا فيها فساداً.[1]

"والعرب كانوا يحسّون إحساساً قويّاً بنوعٍ من الأرستقراطية نـــابع مـــن غلبـــتهم علـــى الأسبان والبربر وإدخالهم في الإسلام، وكذلك من لغتهم التي تفوق غيرها. ولعلّ شعور التعـــالي هذا من قبل العرب، هو الذي كان يولِّد الثورات ضدهم".[2]

وعندما ننظر إلى الصلات التي قامت بين المسلمين القدامى والمسلمين الجدد، فإنّنا نرى أنَّ الصلات بينهم قد توثّقت على مرّ الزمان توثّقاً وتماسكاً بفضل الزواج، ولذلك فـــإنّ عـــرب أسبانيا الذين كانوا في العصور التي أعقبت الفتح، يفخرون أعظم الفخر، بتحدرهم من أجـــدادهم في بلاد العرب أو سوريا.

وقد قام الإسبان بعد سقوط المدن الأندلسية بمحاولة القضاء على الحضارة العربية، وما محاولتهم للقيام بإتلاف الكتب العربية، إلا من أجل طمس هذه الحضارة.[3]

قام الإسبان بتحويل المساجد في المدن التي تسقط في أيديهم، إلى كنائسَ واصـــطبلات لخيولهم، وهذا ما جرى في مسجد البيازين، أشهر أحياء غرناطة، فقد حوّله الأسبان إلى كنيســـةٍ بعـــد ســـقوطِ غرناطـــةَ، وما يـــزال حتى اليـــوم بعـــض أســـوار هذا المســـجد قائمةً مـــع جزء من صحنهِ.[4]

وهذا الأمر فعله فرناندو الثالث في مدينة اشبيلية، وأزيلت منها المعالم الإســـلامية، ولا نستثني الهجمة التي شنّها الأسبان على الآثار الإسلامية، ومحاولات التخريب التي جـــرت فـــي

---

[1] أنظر: القاسمي، جاسم: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس. ص 176.

[2] أنظر: عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص 133.

[3] أنظر: بروفنسال، ليفي: حضارة العرب في الأندلس. ترجمة ذوقان قرقوط. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.ص:71.

[4] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج3. ص 14.

قصر الحمراء. ويصف لنا ارفنج في كتابه (قصر الحمراء) فيقول: "أخذت الغرف رويداً تتسع للسفلة والمجرمين، واغتنمها قطاع الطرق فرصة من استقلالها الشرعي، وأخذوا يعيثون في الأرض فساداً، وهكذا اتّخذ اللصوص من هذا المكان ملاذاً لهم، ينقضّون منه للسلب على غرناطة".[1]

وفي هذا الصدد يقول غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) وهو يصف محاولة طمس الشخصية العربية في الأندلس، وذلك من خلال تدمير آثارهم التي خلّفوها بعد السقوط: "وأمّا مدينة غرناطة، فلا أنصحُ أحداً بأن يزورها، بعد أن وصفها شعراء العرب، بأنّها أنضر مدينةٍ تنالها أشعة الشمس وبأنها دمشق الأندلس". ولا أقدر أن أصفَ الحالَ التي كانت عليها غرناطة فيما مضى، ولكن غرناطة الحديثة، لم تكن سوى قريةٍ كبيرةٍ كئيبةٍ قذرةٍ ليس فيها ما يجدر ذكره سوى كاتدرائيتها الفخمة وحمرائها، فضلاً عن أنّها قائمةٌ على مكان يُعدّ من أجمل الأمكنة في العالم... حقّاً لم تكن غرناطة الجديدة سوى مدينةٍ ميّتة".[2]

ومن القضايا التي أثَّرت في الشخصية العربية في الأندلس بعد تتابع سقوط المدن، قضيّة الزواج بين المدجنين والنصارى، وفقَدَ المدجّنون بمضي الزمن دينهم ولغتهم التي كانوا يفاخرون بها، واندمجوا في المجتمع النصراني. ونرى من بين زعماء شرقي الأندلس، بعض الأمراء يرجعون إلى أصل نصراني، مثل محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ملك (بلنسية) و(مرسية)، وكان يتكلم القشتالية، ويلبس الثياب القشتالية، ويتقلد السلاح القشتالي، ومعظم ضباطه وجندهِ من النصارى.[3]

ومع توالي الهزائم التي مُني بها العرب في الأندلس، نلاحظ تراجع الفنون الشعرية التي تدلّ على اللهو والعبث وهوى النفس الإنسانية، ممثلةً بالغزل والمجون والخمرة، وفي مقابل هذا، فقد تعالت الأصوات التي تنادي بالحفاظ على كيان المسلمين، ولعلّ شعرَ الاستنجادِ والهزيمةِ ورثاءِ المدنِ والممالكِ خيرُ دليلٍ على هذا.

---

(1) إرفنج، داشنجتن: قصر الحمراء. ترجمة إبراهيم الإبياري. ط2. مصر: دار المعارف. 1957. ص 25.

(2) لوبون، غوستاف: حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر. ط2. مطبعة دار إحياء الكتب العربية. 1948. ص 367.

(3) أنظر:ابن الخطيب ،لسان الدين ،الأحاطة في أخبار غرناطة.ج2.ص :70.ينظر:عنان، محمد: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين. ص 199.

ويرجع اهتمام الكتّاب بالأصول العرقية المنتسبة إلى القبائل العربية، إلى أنّها محاولة للدلالة على أصالتهِ ونزاهتهِ. وقد عدّد ابنُ الخطيبِ الأصولَ العرقيةَ المنتسبةَ إلى القبائل العربية، ومنها على سبيل المثال: "القرشيّ، والفهريّ، والأمويّ، والأزديّ، والقيسيّ، والكنانيّ، والخزرجيّ، والقحطانيّ... وابن الخطيب كان دائمَ الفخرِ بنسبهِ الذي يمتدّ إلى قبيلة السلمانيين، وهم من عرب اليمن القحطانية".[1] وعندما كان يمدح الملوك، فإنّنا نراه يذكر أسماء الخلفاء العباسيين للدلالة على ارتباطهِ بالمشرق، وللتأكيد على أصولهِ العربيةِ، ولا ينسى أن يذكر الخصال الحميدة التي اشتُهر بها العربيّ مثل الكرم والشجاعة. يقول:

وبالسَّيْفِ "سَفَّاحٌ" وبالهَدْيِ "مُهْتَدٍ" وبالرُّعبِ "مَنْصور" وبالله "مُسْتكفِي"
مِن العَرَبِ الشمِّ الأنوفِ إذا اجتبُوا تَبَوْأتَ في جارٍ مجيرٍ وفي حِلْف
كِرَامٌ إذا ما الغيثُ في الأرضِ لم يَكِفْ بصَوْبِ حَيَا كانتْ أكفُّهُمْ تكفِي[2]

(الطويل)

هذا الحرص الذي أبداه لسان الدين من خلال تمسّكهِ بالشخصية العربية، نلمحهُ واضحاً لدى الملوك الذين ما انفكوا يتغنون بآبائهم وأجدادهم المشرقيين. يقول الملك يوسف الثالث مفاخراً بآبائهِ وأجدادهِ:

لنا السّلف الأرضى، حِماها قد ارتضى وناهِيكَ مِن جدٍّ كريمٍ ومِن أب
فنحن نُزَجّي بعدهُ كلَّ سابحٍ ظَفِرْنا بما نرجوه من كلّ مِطْلَبِ[3]

(الطَويل)

وقد أشعلَ ملوك النصارى النزعة الدينيّة عند شعوبهم، فكانوا يطلقون على معاركهم ضد المسلمين، ما يُعرف بحروب التحرير والاسترجاع، وجاء هذا من أجل إشعال الحماس الديني وتسيير الحملات الصليبيّة إلى أرض الأندلس.

---

(1) أنظر:ابن الخطيب،لسان الدين: الأحاطة في أخبار غرناطة .ج1 .ص 37.
ينظر: الدوسري، أحمد: الحياة الاجتماعية في عصر دولة بني الأحمر، ص68.
(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج2. ص 675.
(3) يوسف الثالث: ديوان ملك غرناطة.ت. عبد الله كنون. ط2. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. 1965. ص 15.

وفي كثير من الأحيان، كان الأسبان يرفضون عرض الصلح الذي تقدمه بعض المدن الأندلسية، لأنّهم أرادوا من المسلمين أن يخرجوا من الأندلس إلى حيث جاؤوا، لأن الهدف ليس التحرير، وإنّما الوجود الحضاري العربي. وبسبب طغيان التعصب عندهم، فقد حثّ بعض علماء المسلمين على الهجرة إلى أراضٍ لم تسقط بعد، في الوقت الذي بدأت فيه حرب الإبادة من الأسبان. وقد ساعد في هذا جماعة من الرهبان والقساوسة، ودفعهم هذا إلى شنّ حرب على الأمة الإسلامية.(1)

ويظهر هذا التعصب واضحاً في قول المطران الفارو وهو يصف المسلمين في الأندلس حيث يقول: "إنّ هناك أناساً يتحدّثون عن الله في المآذن، ومن أبراجهم العالية يوميّاً، وفي ضجيجٍ كبيرٍ ومخيف، وفي تكشيرةِ حيوانٍ وحشيّ وشفاهٍ متباعدة، وفمٍ مفتوحٍ على وسعهِ، مثل المصابِ بمرض القلب، يزعقون ويعوون مثل المجانين".(2)

واستند التعصُّب الأسباني ضد المسلمين على الجانب القومي، لهذا فقد استندوا في إمداداتهم أثناء الحروب على دول أوروبا، فهم لم يغفلوا أنَّ العرب اعتمدوا على إخوانهم المغاربة، وبهذا فقد انتقل الصراعُ من الجانب الإقليمي الذي انحصر في حدود الأندلس، إلى الجانب الدولي (العقائدي) الذي تمثّل في المواجهة بين العالمين الإسلامي والمسيحي.

كانت ممارسات النصرانية تنمي الرغبة عند المسلمين كي يدافعوا عن عقيدتهم، وهذا كان متأصلاً في نفوسهم، ولا بدّ أن ننوه إلى دور الإعلام في ضرب الشخصية العربية آنذاك. فالقساوسة يصوّرون للنَّاس والملوك أنهو ليس هناك شي في الدّنيا أسوأ من الإسلام، وأنّه لا بدّ من إزالتهِ والقضاء على مَنْ يتمسك به من الناس، في حين كان النَّصارى يعيشون في بلاد المسلمين آمنين، وإن كانت هناك ظواهر من سوء المعاملة هنا أو هناك.(3)

---

(1) عودات، أحمد وآخرون: تاريخ المغرب في الأندلس. ص 170.

(2) أمين، اسماعيل: العرب لم يغزوا الأندلس. ط1. لندن. رياض الرّيّس للكتاب والنشر. 1991. ص: 254.

(3) أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر. (مؤلف مجهول). ص 37.

أمّا بالنسبة لليهود، فإنّنا ننظر إليهم في بدايات الفتح بصورة مختلفة عمّا هو في بـــدايات السقوط، فقد وقفوا موقفاً محايداً أثناء الفتح الإسلامي، وسبب ذلك أنّهم كانوا ينظرون إلى العرب نظرة المخلصين لهم من طغيان المسيحيين. واليهود بدورهم لم يتخلّوا عن طبيعتهم فـــي المكـــر والخديعة والتمسّك بالسياسات المتذبذبة، لكي يضمنوا الطرف الأقوى دائماً. وهـــذا مـــا لمســـناهُ طوال وجودهم في غرناطة، التي عرفت بغرناطة اليهود، فلم يكد يصبح لهم كيان بفضل الحكـــم الإسلامي السَّمِح، حتى كادوا للإسلام، وتكتلوا ضد المسلمين، وحاربوهم دينيّاً وسياسيّاً، وسخروا من القرآن الكريم، وعملوا على تفتيت كلمة العرب ونازعوهم السلطان، وثاروا على عبد الله بن بكلين آخر ملوك غرناطة – زمن الطوائف – منتهزين محنته مـــع المـــرابطين فاضـــطرّ إلـــى مهادنتهم.[1] وفي هذا الجانب يقول ابنُ الخطيب: قلتُ في اليهود حســـبما اقتضـــاهُ وقـــتٌ مـــن الأوقات:

وعُصبْةِ شـــــــرٍّ من يهودٍ لَقِـيتُها ... يُجـانِبُها دَاعِـي الهُـدَى وَيُحَاشِـــــيها

إذا أَمِنُوا واســـتوثَقُوا البابَ أعْلَنُوا ... خَـبائثَ ما كانَ اللّـسَـانُ ليُـفْشـــيهـا

كأنّ رؤوسَ القَوْمِ عنــدَ صلاتِهِـم ... وقد أَوْمأَتْ لِــلأرضِ صُفْرَ شَوَاشـــيِها[2]

أَقاحٍ أمالتها الريـــاحُ على الثّـــرى ... وقد أَسْـقَطَتْ عَنها بياضَ حواشـــيهـا[3]

(الطويل)

ومن الأمور التي وقفت في مواجهة حماية الشخصية العربية في الأندلس، كونها اتصفت بـــالقلق وعدم الاستقرار، فالتاريخ الأندلسي كلّهُ تاريخ مواقف متتابعـــة مـــن القلاقـــل والاضـــطرابات ومحاولات الانفصال، وتعليلهم لهذه الظاهرة: هو التباين بين الأجناس التي تركّز منها المجتمـــع الأندلسي، ومن هنا يمكن أن نتصوّر هذه الشخصية التي عاشت خلال هذه الظروف بأنهـــا قـــد عاشت نوعاً من القلق.[4]

---

[1] أنظر: شلبي، إسماعيل: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر– عصر ملوك الطوائف. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر. ص 57.

[2] الشواشي: ج شاشية، وهي قبعة اليهودي.

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: ج2. ص 739.

[4] عناني، محمد: تاريخ الأدب الأندلســـــي، مصر: دار المعرفة الجامعية. 1999. ص 39 ينظر:هيكل، احمد: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة. ط7. مصر: دار المعارف. 1979. ص 50.

وربّما كان ذلك من أسباب ما نعرف من ميل الأندلسيين إلى ألوان من المتعة وصـــنوفٍ من اللهو، كالشراب والغناء والرقص والموسيقى، وما أشبه ذلك ما كان يكلف به الأندلسيون.

والذي يقرأ التاريخ يجدُ أنّ ما لحق بالعرب مـــن محـــاولات حثيثـــة لطمـــس هـــويتهم الحضارية، وهذه المحاولات – كما مرّ بنا – لم تكن جديدة، فهي قديمة سعى الإسبان من خلالها لإخراج العرب المسلمين من بلادهم والمهم في الأمر، أن هذه المحاولات التي ظاهرها إخـــراج المسلمين، لم تكن الهدف بكل غاياتهِ، بل هدفهم هو القضاء على حضارة الإسلام متمثلةً بكل ما يشير إلى تلك الحضارة التي دامت قرابة الثمانية قرون إن الآثار المبنيّة والمنحوتـــة، والفنـــون المكتوبة قد جرى تدميرها من قبلهم، لأنهم يدركون أن الإنسان مصيره إلى المـــوت والـــزوال، ولكن آثارهُ وأفعاله لن تزول.

ينظر: الفاخوري، حنا: الموجز في الأدب العربي وتاريخه. ج3. ط1. بيروت. دار الجيل. 1985. ص 158.

المبحث الرابعَ: ضياع المدن الأندلسية واستنهاض الهمم:

إنّ الظروف السياسية التي سادت الأندلس عند قيام دولة بني الأحمر، كانت مزيجاً مـــن الصراعات الداخلية بين ملوك وحكّام الطوائف. وأدّى هذا إلـــى ضـــياع الكثيـــر مـــن المـــدن والحصون الأندلسية، لأنّ الإسبان استطاعوا أن يرسموا مخططاً من أجل التفرّد بهذه الممالـــك، وتمّ لهم ما أرادوا، وكانت سياستهم تقتضي إسقاط هذه الممالك الواحدة تلو الأخـــرى. إنّ قـــوة العدو وتفوقه ووجود هذه الظروف، مكّنتهُ من افتراض الظـــروف المناســـبة لتنفيـــذ مشـــاريعهِ باقتطاع أجـــزاء مـــن الأندلـــس، تتلخص بالمناطـــق الأقـــرب إليه فهي أول ما يلقى المصـــير خلال تقدمهِ.

وكانت نتيجة هذا السقوط تشتت المسلمين وتفرقهم، ومن الطبيعي أن يواكـــبَ الشـــعراءُ هذه الظروف، وأن يعبّروا عنها من خلال أشعارهم التي حاولوا من خلالها أن يظهـــروا حجـــمَ المأساةِ التي أصابت أهالي تلك البلاد، ووجهوا الدعواتِ والصرخاتِ المتلاحقةَ لإخـــوانهم لكـــي يقفوا إلى جانبهم ،من أجل صدّ هذه الهجمة وأن ينهضوا لنصرتهم على عدوهم.

وشعر الاستنجاد لم يكن وليدَ هذا العصر ، فقد واكب الأعصر السّـــابقة مـــن التـــاريخ الأندلسي، وهذا ما رأيناه عند ابن الآبّار القضاعي في استغاثته صاحب افريقيا أبا زكريا بن أبي حفص، حيث يقول:

أدرك بخيلك خيل الله أندلســــــــــا	إنّ الســـبيل إلى منجاتـــها درســـا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست	فلم يزل منك عزّ النصر ملتمســـــا
وحاش ما تعانيـــــه حشـــــــاشـــتها	فطالما ذاقت البلوى صباح مســـــا
يا للجزيرة أضـــــحى أهلها جـــزرا	للحادثات وأمسى جدّها تعســــــــا
يا أيّها الملك المنصـــــــور أنت لها	علياء توسع أعداء الهدى تعســــا
طهّر بلادك منهم إنّهم نجــــــــــس	ولا طهارة ما لم تغســـل النجســـا
وأوطيء الفيلق الجرّار أرضـــــــهم	حتّى يطأطيء رأساً كلّ من رأســـا

وانصر عبيداً بأقصى شرقها شـــرقت   عيونهم أدمعاً تهمي زكا وخســـــا[1]

(البسيط)

وهذة القصيدة قيلت في سنة ستمئة وست وثلاثين للهجرة، أي في بدايات نشوء مملكـــة غرناطة، وشهد هذا التاريخ هجرة قوية إلى هذة المملكة الفتيّة.

والواقع أنّ الشّاعرَ قد استغلّ الفكرة المهدوية التي قامت على أساسها الدولة الموحديـــة في المغرب، فكيف لا يقوم الملك الحفصي بتطهير البلاد من الدنس والكفر ؟ فالتطهير صفة من صفات الإمام ، وكيف لا يقوم بنصرة الحقّ ؟ ونصر الحقّ مبدأ من مبادىء عقيدته . إنّ الأنباء في الأندلس متواترة ، على أنّ الملك سيتصدّى لقتل ملوك الصفر.[2]

وكثير من الشعراء، كانوا يتقلّدون مناصب سياسيةِ هامة، فَمنهم الوزراء والكتبة، ونتيجة لهذا، فقد كانوا قريبين من مركز القرار، وكان لهم الأثر الواضح في رسم السياســات لــبعض الملوك على نحو ما جرى مع الوزير الشاعر لسان الدين بن الخطيب.

وظلت المهادنة سائدةً طوال حكم بني الأحمر، وتقوم على إبقاء التــوازن بــين القــوى المتصارعة في الأندلس للاحتفاظ بمملكتهم. فهم تارة يستغيثون بسلاطين المغرب ضد النصارى إذا ازداد خطر هؤلاء عليهم، وتارة يستغيثون بالنصارى ضد سلاطين المغرب إذا قوي هــؤلاء وسيطروا على الأندلس.

ونتيجة لهذة السياسة؛ فقد تخلّى عنهم أهل المغرب عند السقوط. يقــول مؤلــف (نبــذة العصر في أخبار ملوك بني نصر): "إنَّ إخواننا من أهلِ عدوةِ المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحــد منهم؛ ولا عرّج على نصرتنا وإغاثتنا. وعدوُّنا قد بنى علينا وسكن معنا وهو يزداد قوَّةً".[3]

---

(1) المقّري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب.ج:5.ص: 349–350. زكا: الزوج من العدد ، الخسا: الفرد من العدد.

(2) أعراب، الطرايســي: الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلس/ مجلة عالم الفكر:المجلد الثاني عشـــر. الكويت: وزارة الإعلام. 1991. ص: 143

(3) مؤلف مجهــول : آخر أيام غرناطــة (نبذة العصــر في أخبار ملوك بني نصــر) تأليف مجاهــد مجهــول من المقاومة الإســـــلامية في غرناطة 900ـــــ100هـــ. ت/ الدكتور محمد رضوان الداية. ط:2. دمشق: دار الفكر المعاصر .2002.ص: 104 .

وفي سنة خمس وستين وستمئة ،جرت هذه المعاهدة حفاظاً على الوجود العربي، وجرى خلالها التنازل عن مدينة شريش ومجموعة من الحصون، فتحركت مشاعر أبي البقاء الرنـــدي لرثاء الأندلس:

لكلّ شـــيءٍ إذا مـــا تـــمَّ نقصـــانُ   فَلا يغرّ بطيبِ العيـــــشِ إنسانُ
هي الأمورُ كما شـــــــــاهدتَها دُوَلٌ   مَنْ سَـــــرَّهُ زمنٌ ساءتهُ أزمانُ
وهــذهِ الدار لا تُبقِي على أحـــــدٍ   ولا يدومُ على حالٍ لها شَـــانُ[1]

(البسيط)

وبسقوط معظم المدن بيد ملوك الشمال، ظلّ قليل من الشعراء متشبثين بفكـــرة مقاومـــة العدو والجهاد المقدّس، وذلك للحفاظ على مملكة غرناطة، تلك البقعة الصـــغيرة المتبقيـــة مـــن صروح الأندلس وأمجادها الغابرة. وبات على الشاعر الملتزمِ ألا تخمدَ جذوةُ كلمتـــه، وأصـــبح لزاماً عليه أن يحرّكَ الضمائرَ من أجل عدمِ إضاعةِ المزيدِ من الممالك، وهكذا اتّجـــه الشـــعراء نحو بني مرين حكام المغرب الزناتيين بوصفهم المنقذين الوحيدين الذين يُعتمد عليهم.[2] ومثّـــل هذا الدور أبو عمرو بن المرابط شاعر بني الأحمر فيقول:

أفـــلا تـــــذوب قـــلوبُكُـــم إخوانَنَـــا   مِمّا دَهَانا مــــــن رَدىً أو مِن ردِي
أفـــلا تـــراعـــونَ الأذِمّـــة بِيْنَـــنـــا   من حُـــــــــرْمَةٍ ومَـــحَـــبَّةٍ وتـــوَدُّدِ
أكَذا يعـــيثُ الـــرومُ فـــي إخوانِـــكُم   وَسُـــيُوفُـــكُم لـــلِثَّأرِ لـــمْ تـــتقـــلَّـــد[3]

(الكامل)

وكان ملوك بني الأحمر يعتمدون على المرينيين كلّما أحسّوا بدنو الخطر منهم، ويرجـــع سبب ذلك إلى قربهم من المغرب العربي، ومن الملوك الذين اعتمدوا علـــى بنـــي مـــرين فـــي الاستنجاد، السلطان يوسف أبو الحجاج، حيث أرسل وفداً من غرناطةَ يرأسه الوزيرُ لسانُ الدينِ ابنِ الخطيبِ، وبعد موتِ السلطانِ يوسفَ خَلَفَهُ ولدُهُ محمدُ الغنيُّ بالله، وبقي ابنُ الخطيـــب فـــي

---

[1] المقَّري. أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج5. ص 373.

[2] الطويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ط1. بيروت: دار الفكر. 1991. ص 32.

[3] ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون. ج7. ط1. ت: تركي فرحان المصطفى. بيروت. دار إحياء التراث العربي. 1999. ص:195.

منصبهِ معاوناً له، ولما رأى الغنيُّ بالله الاستنصارَ ببلاد فاس، أرسل وزيرَهُ ابنَ الخطيبِ سفيراً إلى أبي عنان على رأس وفدٍ من رجالات الأندلس يستنصر به.[1] وخاطبه ابن الخطيب بقولهِ:

لَــيـــــسَ لنا مـــــلجأ نُــؤمّــلهُ ... سِــوَاكَ أَنــتَ الثِّـــمالُ والوَزَرُ[2]

وَجْهُكَ في النائباتِ بَــدْرُ دُجــىً ... لَنَــا فـــي المَــحْلِ، كَفُّكُ المَطَــرُ

والنّـــاسُ طرّاً بأرضِ أنـــدلُــسٍ ... لَوْلاكَ ما أوطَنُوا ولا عَمَـــــــرُوا[3]

(المنسرح)

وقد أقرّ ملوك بني الأحمر بفضل بني مرين عليهم، ومن ذلك رسالة بعث بها الســلطان أبو الحجاج يوسف الأول إلى معاصره بالمغرب السلطان أبي عنان فارس المريني يقول فيهــا: "... فإنّنا إن عقدنا سلماً عقدناه بريحكم التي يحذر العدو هبوبها، وإن شئنا حرباً استعنّا بعزماتكم التي تنال بها الملّةُ مطلوبَهَا...".[4]

على أنّ العلاقة بين ملوكِ غرناطةَ وإخوانِهِم في المغرب كانــت تســوء فـــي بعــض الأوقات، ويرجع هذا إلى سببين؛ أولهما: أن ملوكَ غرناطةَ كانوا يلجؤون إلى مهادنـــة ملــوك قشتالة بين الحين والحين، وهذا ما فعله محمد الفقيه. مما أدى في النهاية إلى وقوع التنافر بينهم، وكان وبالاً على الإسلام في الإندلس.[5]

وثانيهما: هو مشيخة الغزاة، فهؤلاء مجموعة من الجند وضعها المرينيون في الأنــدلس، لتكون جاهزة لملاقاة القشتاليين، فهي فرقة عسكرية يوكلُ أمرُها إلى قائد مريني يحمــل لقــب

---

[1] أنظر:ابن خلدون ،عبد الرحمن :تاريخ ابن خلدون .ج:7 .ص319 .ينظر: الملاح، ياسر: من الفجر إلى الغروب، قصة الأدب العربي في الأندلس. ط1. القدس: مطبعة الإسراء. 1993. ص 247.

[2] الثمال: المعتمد، الوَزَر: الملجأ.

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج1. ص 404.

[4] ابن الخطيب، لسان الدين: كناسة الدكّان بعد انتقال السكّان. ص 104.

[5] أنظر: مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس. ط1. القاهرة: دار ومطابع المستقبل. 1980. ص 387.

(شيخ الغزاة)، وقد أدّت هذه خدمات كبيرة لمملكة غرناطة، في الوقت نفسه كانت قاعدة لتـدخّل المرينيين في شؤون غرناطة الداخلية، وهو أمر لم يقبله ملوك بني الأحمر.[1]

وقد ساعد ضياع المدن والحصون إلى ازدهار كثير مـن الفنـون الشـعرية كالمـديح والرثاء، فهذين الفنيّن في بدايتهما انصبّا على مديحِ الأشخاصِ ورثاءِ الأحبّةِ والأقاربِ، وانعطف مسارُهُما نتيجةً لهذه الظروفِ، فلا تكاد تسمع أشعاراً في المديح خلت من تمجيد الانتصارات في المعارك ووصف البطولات، ومن ذلك قول الكاتب أبي العلاء محمد بن محمد بن سماك العاملي يمدح السلطانَ الغنيَّ بالله:

فتح قضاهُ لملككَ الرحمـــنُ　　　لـم تـأتِ قط بمثلهِ الأزمانُ
فلأيِّ يـومِ سـعادةٍ أولاكَـهُ　　　ذَلّتْ بعزةِ نصـــرهِ الصُلبانُ[2]

(الكامل)

ويبدو أن هذا الأمر قد ألهب مشاعر العامّة والخاصّة من الناس، وكيف لا يكون ذلـك، والكـلّ يشعر بأن ما حصل مع أصحاب المدن المنكوبة لابدّ أن يصل إليه، ولكنَّ القدر شاءَ أن يـؤخِّرَ ساعةَ سقوطِهِ.

وصوّرت أشعارهم الحالة التي وصل إليها الأندلسيون، حيث سادهم الضياع والاضطهاد والفرقة، وبالرغم من هذه المآسي، فقد تميّزت أشعارهم برفع الهمـم والمعنويّـات، ولامسـت المشـاعر الدينيـة عنـد سـامعيها، يقول السـلطان أبو الوليد إسـماعيل بن الأحمر صاحب (نثير الجمان):

لـولا صَبْرُنا في كلِّ حـربٍ　　　لكان لجانبِ الديـنِ اهتضامُ
نحاربُ دونَـهُ الأعـداءَ حتى　　　تـذلَّ لعـزّهِ النُّوبُ العِظـامُ
ولـيسَ يضـُرنا أنّـا قـليلٌ　　　لَعَمْرُ أبيكَ مـا كثُـرَ الكِرامُ

---

[1] أنظر : مكي، محمد: الحضارة العربي الإسلامية في الأندلس. ط1. بيروت: منشورات مركز دراسات الوحدة العربية. 1998. ص129.

[2] ابن الخطيب، لسـان الدين: الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شـعراء المئة الثامنة. ت: إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة. 1983. ص198.

إذا ما الرّايةُ الحمراءُ هــزّتْ   فَثَمَّ هنـــاكَ للحـــرب ازدحـــامُ[1]

(الوافر)

ومن الأسباب التي جعلت القشتاليين يسيرون بخطىً حثيثة للاستيلاء على المزيـــد مـــن المدن، أنّه برزت في تلك الفترة ــ أي في العام ثمانية وستين وثمانمئـــة للهجـــرة ــ مخـــاوفُ قشتالية من احتمال استخدام العثمانيين أو الفرنسيين مملكـــة غرناطـــة للضـــغط علـــى قشـــتالة وأرغون، وكذلك فإنّ استيلاء إيزابيلا على غرناطة يعني إســـكات المعارضـــة الداخليـــة؛ لأنّ الأنظار ستتجه إلى العدو الغرناطي.

وقد احتلّ فرناندو (رندة) عام تسعين وثمانمئة ،و(مالقة) عام اثنين وتســـعين وثمانمئـــة، ونصب المدفعية حول غرناطة عام خمسة وتسعين وثمانمئة، ونشر نحو ثلاثين ألـــف جنـــديّ، وأسند إليهم مهمة تخريب الحقول وحرقها وقطع الأشجار؛ لتشديد الضغط على الأهـــالي داخـــل المدينة.[2]

وأثناء الصراع الذي دار بين الأخوة أبناء الدين الواحد، استولى العدو على مدائن جليلة، وقلاع حصينة، وثغور شريفة، وربوع آهلة مثل مدينة (قَلَهُرَّة)، و(آنتيشـــة)، و(مدينـــة ســـالم)، و(المدينة البيضاء) وهي مدينة (سرقسطة)، و(شنترين)، و(أشبونة)، و(طبريـــة)، و(طليطلـــة)، و(بنسية)، و(ميورقة)، و(لبلة) و(جبل العيون) و(كورة باجة). لقد استولى الاسبان في تلك الحقبة على خمسمئة من البلدات، كل هذا والنزاع قائم بين ابن هود وابن نصر.[3]

ونشير إلى أن شعر الاستنجاد عدا عمّا أحدثه من أثر في الواقع السياسي، فقد كان له ردُّ فعل إيجابي على المستوى الأدبي، إذ أخذ شعراء البلاد يجيبون عن تلك القصائد بالروي والوزن نفسيهما، ويحرصون على أن تكون إجاباتهم مطمئنة، وأنّ النجدة في طريقها إليهم.

---

[1] ابن الأحمر، إسماعيل: نثير الجمان في شعر مَنْ نظمني وإيّاه الزمان. ت: محمد رضوان الداية. ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1987. ص 202.

[2] أنظر: مؤلف مجهول :أخر أيام غرناطة نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ت: محمد رضوان الداية ط:.دمشـــــــق دار الفكر .2002.ص66.
ينظر: بشتاوي، عادل: الأمة الأندلسية الشهيرة. ص 117 – 118.

[3] ابن الخطيب، لســـان الدين: تاريخ اسبانيا الإسلامية (كتاب أعمال الأعلام) في مَنْ بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. ت: ليفي بروفنسال. دار المكشوف. ص 293.

وقد لجأ بعضهم إلى تضخيم الإحساس بالخسارة، وما ينتج عن ذلك من لوعة تبرر ما سيذهب إليهِ من إثارة العواطف وحفز الهمم في سبيل العودة، ومنها ما يقوم على الحيرة والذهول ورفض الواقع الجديد الذي حدث، فيمزج الشاعر تلك المعاني بإحساسهِ بالهزيمة، حيث يستطيع تجسيد حنينهِ أكثر مما تجسّد أمله بالعودة.

وقد يعمد الشاعر إلى تلخيص المأساة في نهاية القصيدة، حيث يأتي البيت الأخير تجسيداً للغرض الذي من أجلهِ أنشأ قصيدته كما جاء في نهاية قصيدة أبي البقاء الرندي، حيث يصوّر حالة الضعف الذي وصل إليها مواطنوه:

لِمِثْلِ هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ   إنْ كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ[1]

(البسيط)

وقد أحسّ أهل غرناطة بأنَّ الدفاع عن مدينتهم يقع على عاتق المسلمين جميعاً؛ لأنّ الهجمة كانت موجهة ضد الإسلام والمسلمين، فليس هناك أحدٌ يُعفى من القيام بواجباتهِ، ولهذا فقد استخدم الشعراء الجانب الديني، فهم يلجؤون إلى وضع المستنجد به أمام واجباتهِ الدينية التي تحتم عليه أن يُلَبِّيَ النداء.[2]

وكان واضحاً لأهل غرناطة أنَّ انفرادَهُم بالجهاد غيرُ مجدٍ، لأنّ الأندلس بقواعدها الكبرى قبل سقوطها كانت تنوء بذلك، وكان المسلمون في هجرةٍ مستمرّةٍ عن الأندلس من دار الحرب، ومن غرناطة، إلى المغرب والمشرق، في حين كانت الممالك النصرانية تضيف عدداً إلى عدد، ومدداً إلى مدد.[3]

ونستطيع أن نقول: إنّ هذه الأشعارَ عبّرت عن صراع البقاء، حيث أدّى ذلك إلى صدور عددٍ كبيرٍ من الرسائل والقصائد التي تصوّر هذا الصراع مثل رسائل الاستنجاد ورثاء المدن، وقد تلوّنت معظم الموضوعات الأدبية باللون العسكري والسياسي، حتى لنجد معظم النقوشات

---

(1) عيد، يوسف: الشعر الأندلسي وصدى النكبات. ط1. بيروت: دار الفكر. 2002. ص 43 – 49.

(2) ياغي ، هاشم :تاريخ الأدب العربي . 314.

(3) ابن الأحمر، إسماعيل: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. بيروت: دار الثقافة. 1967. ص: 35.

الشعرية والنثرية على جدران قصر الحمراء وأبوابه مستمدّه كلّها مــن أجــواء الصــراع مــع الأسبان؛ لذلك لا نستغرب أن نجد عناوين مؤلفات فيها مصطلحات عسكرية مثل الكتيبة الكامنــة للسان الدين بن الخطيب.

المبحث الخامس: تأثر أهل غرناطة بالمشرق العربي:

إنّ قضيّة التأثّر والتأثير أمر طبيعي بين الشعوب المختلفة، وهو لا يتوقف عند حدود معيّنة، فقد يكون سياسياً، أو اجتماعياً، أو ثقافياً ولا بدّ لنا عند الحديث عن هذا الأمر أن نبحث عن أصوله ودوافعه، والظروف التي ساعدت على وجودهِ.

وقد يحدث بين شعوب مختلفة حضارياً وفكريّاً، وهذا النوع يبقى في حدود ضيّقةٍ قد تكون في بعض الجوانب الثقافية على نحو ما حدث مِنْ تأثيرٍ للموشحات والأزجال العربية في شعر التروبادور.[1]

أمّا النّوع الآخر، فيكون بين شعوب متصّلة ثقافياَ وفكريّاً، كما هو الحال بين المشرق العربي والأندلس، وهذا يكون تأثيرهُ في معظم مناحي الحياة.

وكان الأندلسيون ينظرون إلى المشرق على أنّه الأساس والمنبع، فالمشارقة كانوا مهد الثقافة الإسلامية، وبلادهم أصلٌ للّغة العربية، فكلّ شيء يظهر في المشرق أولاً، ويأخذ منهُ المشارقة ما يشاؤون، ثم يفد بعد ذلك على الأندلس. وكان الأندلسيون يحسّون بنوع من التخلف عن المشارقة ويحاولون دائماً أن يعوّضوا ذلك بتأكيد تفوقهم على الرغم من بعدهم عنهم كما نراهم يتعصّبون للأدب التقليدي تعصّباً صوريّاً، ويتسابقون على مذاهبهِ واتجاهاتهِ ويحاولون أن يقلّدوها.[2]

"ولم يظهر التجديد عند الأندلسيين إلا في عصر المعتمد بن عبّاد. فقد كانوا مقلّدين لشعراء المشارقة، فتأثروا بالبحترى، وبأبي تمّام، وأبي نواس ومسلم بن الوليد، وغيرهم من الشعراء".[3]

وقد عرفت الشخصية الأندلسية التلاؤم مع المحيط الذي تعيش فيه، وإن كنّا نراها بعيدة في نمط عيشها عن نمط عيش البدويّ، فما ذلك إلاّ لاختلاف الحياتين، ولكنَّ وسائلَ التعبير بقيت هي هي. وبقي الأندلسيّ ينظر إلى عبارة الشرق وأسلوب المشارقة وحياتهم الفكرية نظرةً مثاليّة.

---

[1] أنظر: هلال، محمود: الأدب المقارن. ط9. بيروت: دار العودة. 1953. ص 270.

[2] هيكل، أحمد: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة. ص 53.

[3] أنظر :جبور ،جبرائيل: الملوك الشعراء .ط1 .بيروت :دار الأفاق الجديدة .1981.ص :301.

وكان التلقيّ عند الأندلسيين بطيئاً، لكثرة ما كان عندهم من فتن وخصومات، والحق أنّ الحركة الأدبية صيغت صياغة على شكل الحركة الأدبية في المشرق والمُثُل التي جاءت في شعر الأندلسيين هي نفسها التي ظهرت عند المشارقة.(1)

إنّ الصلات الثقافية بين الأندلس والمشرق، جعلت الأندلس تحذو حذوها في النهضة الفكرية في بغداد والشّام، على الرغم من التنافس الشديد، والذي اشتدّ وقعهُ بين العبّاسيين في المشرق العربي والأمويين في الأندلس، فإن أواصر الثقافة بين الجناحين المشرقي والمغربي للخلافة الإسلامية لم تنفصم عراها. ولم ينقطع الشوق والحنين إلى المشرق العربي مركز القبيلة العربية الأم وفيه تاريخها، وميل البيت الأموي في الأندلس إلى بعث ما في البيت الأموي في دمشق.(2)

وقد أفردَ المقّري في كتابه (نفح الطيب) باباً في التعريف ببعض مَنْ رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق، وهم كثيرون فيقول "اعلم أن حَصْرَ أهل الارتحال، لا يمكن بوجهٍ ولا بحال، ولا يعلم عن الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المِحَال، ولو أطلنا عِنَان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء العلماء الأعلام، لطال الكتاب وكثر الكلام".(3)

وقد ذكر المقري ثلاثمئة وثمانية من أهل الأدب والعلم، ومِن هؤلاء من عاش في عصر بني الأحمر ونذكر منهم: محمد بن علي البيّاسي الغرناطي، وأبا عبد الله محمد بن علي بن يحيى الشامي، وأبا عبد الله محمد بن قاسم القرشي الفهري وعُرف بابن رمّان الغرناطي، وأبا عبد الله وابن حكيم الرندي، وأبا حيّان محمد بن يوسف النّفزي الأثري الغرناطي وغيرهم.

وفي مقابل هذا فقد أفرد باباً آخر، يذكر فيه بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق، ويقول المقّري في هذا: "وأعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تُحصَرُ

---

(1) أنظر : ضيف، شوقي: الفن ومذاهبهُ في الشعر العربي. ص 416 – 417.

(2) أنظر: الفيّومي، محمد: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس. ط1. بيروت: دار الجيل. 1997. ص 100 – 101.

(3) المقّري، احمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج2. ص 183.

الأعيان منهم، فضلاً عن غيرهم، ومنهم مِنْ اتّخذها وطناً، وصيّرها سكناً، إلى أن وافته منيّتـــهُ، ومنهم مَنْ عاد إلى المشرق بعد أن قُضِيت بالأندلس أمنيتُهُ".[1]

وقد ذكر في هذا الباب ستةً وثمانين من رجال العلم والأدب، ولو عقدنا موازنَـــةً بـــين أعداد الذين رحلوا من الأندلس إلى المشرق، لوجدناها أكثر بكثير من الأعداد التي دخلـــت مـــن المشرق إلى الأندلس، وأظنّ أنّ السبب في هذا راجع إلى أمور عدّة منها: أنّ أهل الأندلس كانوا ينظرون إلى المشرق على أنّه المثل الأعلى في العلم والأدب، ولكن هذا لم يكن موجـــوداً عنـــد المشارقة والأمر الآخر أنّ الذين دخلوا إلى الأندلس مـــن المشـــرق جاؤوهـــا بهـــدف التجـــارة والمنفعة، فهم يعودون بعد أن ينتهوا من تجارتهم.

وذكر الدكتور عبد العزيز عتيق: "إن بعضهم كان يهاجر بسبب الفاقة والاضطهاد".[2]

وكان الأساس الأول للثقافة والأدب في المغرب والأندلس هو القرآن وعلوم الدين واللغة والأدب الجاهلي كما كان في المشرق.

ثم إنّ العنصر البشري الذي كوّن الأدب في المشرق، كان هو نفسُهُ الـــذي كوّنـــه فـــي المغرب والأندلس، ونحن نعلم أن الجيوش العربية التي فتحت المغرب والأندلس قـــد اســـتقرّت فيها. وما لبثت القبائل العربية أن توافدت على المغرب والأندلس، وكان في طليعة الوافدين مـــن قبائل عدنان وربيعة وغطفان، وكانت الأغلبية من العرب العدنانيين.[3]

فالهجرة من المشرق إلى الأندلس صاحبها هجرةُ للشـــعر، فراحـــوا يقتفـــون آثـــارهم وينسجون على منوالهم، وأطلقوا على بعض مدنهم أسماء مدن كانوا يسكنونها في الشام، فســـمّوا غرناطة دمشق، وإشبيلية حمص، وشريش فلسطين، وجيان قنّسرين.

[1] المقّري، أحمد بن محمد: المصدر نفسه. ج3. ص 288.

[2] عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص 152.

[3] كرّو، محمد: شخصيات أدبية من المشرق والمغرب. ط2. بيروت: دار مكتبة الحياة. 1966. ص 146.

ولم يلبث هذا التقليد أن صار منافسة، فكاثروهم في القصـــور والحـــدائق، والمـــدارس والمكتبات، والجوامع والمدائن، وفي تقريب الشعراء والعلماء. فلم يجدوا بدّاً من الحفـــاظ علـــى القديم، وإجلال مكانته ولا سيّما الطبقة الأرستقراطية من الملوك والأمراء والأشراف والفقهـــاء، فعزّ على شعرائهم أن يتحرّروا كل التحرّر بعد أن ظهر لهم الجديد في حضارتهم.[1]

وكان هناك تبادل للمؤلفات والكتب بين المشارقة والمغاربة وغرناطة، فابن الخطيب في إحدى رسائلهِ إلى صديقه ابن خلدون، يحدّثنا كيف أن صوفيّاً مشرقيّاً يُدعى أبو العباس أحمد بن أبي حجلة التلمساني، أهدى محمداً الخامس كتاباً عن الحب بعنوان "ديوان الصباح في مشـــاريع العشّاق وأخبارهم وأشعارهم" كما بعث ابن الخطيب نسخةً من كتابه الخـــاص بالحـــب الإلهـــي "روضة التعريف بالحب الشريف" لتوقف على خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة، كما أرسل نســـخة من الإحاطة كي تحبس بنفس الخانقاه حتى يتسنى للطلبة الاستفادة منها.

كذلك أرسل الشاعر الغرناطي أبو عبد الله بن زمرك بقصائدَ من وصـــفهِ إلـــى مصـــر يمتدح فيها السلطان برقوق. وبعث أيضاً إلى صديقهِ ابن خلدون أثناء تواجدهِ في مصر، يطلـــب إليه إرسال المؤلفات المشرقية.[2]

ومن الذين تأثروا بالمشارقة، ابن زمرك الغرناطي وبعضٌ مِن آخر كبار شعراء الأندلس، فقـــد درس كتب المشارقة ودواوين شعرائهم، وتأثَر بأبي تمّام والبحتري وابن الرومي والمتنبي وأبي العلاء المعرّي.

ومن المعاني التقليدية عند ابن زمرك قوله:

ومنّوع الحركاتِ مَنْ ركبَ الهوا   فيمشي على خطٍّ بهِ مُتَوَهَّم[3]

(الكامل)

---

[1] أنظر: البستاني، بطرس: أدباء العرب. ج3، وهو عصر الأندلسي. بيروت: دار مارون عبود. ص 37.

[2] أنظر:ابن زمرك ،محمد :الديوان .ص:138.ينظر الطوخي، أحمد: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة. 1997. ص 329.

[3] ابن زمرك: محمد بن يوسف الصريحي. ت: أحمد سليم الحمصي. ط1. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر. 1988. ص 111.

ويذكّرنا هذا ببيتٍ قاله زهير بن أبي سلمى:

ومَنْ هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ وإن يرقَ أسبابَ السّماءِ بسُلّمِ[1]

(الطويل)

ويقول ابن زمرك أيضاً:

وكم ليلةٍ قد جئتَ فيها بليلةٍ مِن النّقع فيها للأسنّةِ وأنجمُ[2]

(الطويل)

وقد قصر فيه كثيراً عمّا قاله بشار بن برد:

كأنّ مُثارَ النّقعِ فوقَ رؤوسِنا وأسيافُنا ليلٌ تهاوى كواكبُهُ[3]

(الطويل)

ونلحظ سمةَ التقليد عند ابن الخطيب في سينيته التي وجهها إلى أبي حمو يمدحه فيها:

أَطْلَعْنَ في سُدُفِ الفروعِ شموساً ضحِكَ الظّلامُ لها وكان عَبُوساً[4]

(الكامل)

وعند رؤيتنا لقصيدة ابن الخطيب نرى أنّه حذا حذو أبي تمّام في قصيدته التي أوّلها:

أَقَشيبَ رَبْعِهِمُ أراكَ دَريسا تَقْرِي ضُيُوفَكَ لَوْعةً ورَسيساً[5]

(الكامل)

[1] ابن أبي سلمى، زهير: الديوان. شرح علي حسن فاعور. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1993. ص 146.
[2] ابن زمرك، محمد بن يوسف الصريحي: الديوان. ص 107.
[3] ابن برد، بشار: الديوان. شرح مهدي محمد ناصر الدين. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1993. ص 146.
ينظر: الحمصي، احمد: ابن زمرك الغرناطي، سيرته وأدبه. ص 216.
[4] ابن الخطيب، لسان الدين. ج2. ص 722.
[5] أبو تمام، حبيب بن جاسم بن أوس الطائي: الديوان. ن: إيليا حاوي. ط1. بيروت: دار الكتاب اللبناني. ص 319.
ينظر: المقّري، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عيّاض. ج1. ص 257.

ولم يكن للبداوة أثر في بيئة الأندلس، لذلك لم نجد نوعا من الشعر الجاف الخشن عندهم، والذي نلمحه من أثر الجزالة في الألفاظ، والبداوة في المعاني والموضوعات أحياناً، إنمّا هو من أثر محاكاتهم للمشارقة.(1)

"ولعلّ نقشَ الشّعر على جدران قصر الحمراء وأبوابهِ يمثّل شكلاً مـن أشـكال التقليـد للمعلّقات ، لذلك فإنّنا نجد قصائد مطولات كاملة لإبن زمرك ولسان الدين بن الخطيـب وابـن الجيّاب وغيرهم، قد نُقشت وخلِّدت على جدران قصر الحمراء وأبوابهِ".(2)

ونحن نرى أنَّ بلانثيا قد تحامل في أحكامهِ على النِّتاج الشعري للأندلسيين فـي قضـيّة تأثّرهم بالمشرق، وعدّوها نوعاً من القصور الفكري وفراغ القريحة. وذهب هؤلاء إلى القـول: إنَّ الشعر عندهم فقير من الناحية التفكيريّة ومن دلائل ذلك، أنّ النّاحية التي تـأثّروا بهـا مـن المتنبي كانت ناحية البراعة لا التفكير، وعاشوا أعمارهم كلّها مكبّلين بقيـود القوالـب الشـكلية الجادة، ومن ثمّ لم يستطيعوا أن يُدْخِلوا على الشّعر من التعبير إلا أشياء تمسّ المعاني.(3)

وهذا الحكم فيه تعصبّ كبير وظلمٌ لثمانية قرونٍ من الأدب، ودليل ذلك أنهم أبدعوا فـي وصف القضايا المصيريّة التي عبّروا عنها من خلال شعر الهزيمة والفتوحات، والتـي توّجـت برثاء المدن والممالك، ولهذا فإنّنا نجد أنّه غنيٌ من الناحية الفكرية، فقد حمل همومـاً ومآسـيَ شغلت عقول وقلوب الأمة في ذلك الوقت.

ويرى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي أنّ عدد شعراء الأندلس كـان كثيـراً، وكـان شعرهم طيَباً ناضجاً يعبّر عن الإسلام في ذلك العهد، ولكنّهم على كثرة عددهم لم ينبـغ مـنهم شاعر عبقريّ يعادل أبا الطيّب المتنبي أو أبا العلاء المعري.(4)

---

(1) أنظر: حميد، بدير: قضايا أندلسية. ص 88.

(2) أنظر: ياغي، هاشم: تاريخ الأدب العربي. ص: 340.

(3) بالنثيا، آنخل، تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة حسين مؤنس. ط1. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 1955. ص 42.

(4) خفاجي، محمد: الأدب الأندلسي التطور والتجديد. ص 315.

وإخالُ أنّ في هذا القول تحاملاً أقلّ ممَّا ظهر عند (بالنثيا) فقد بيّن أنّ الفراغ الذهني لـم يكن موجوداً عندهم، فقد استطاعوا أن يعبّروا عن الإسلام في تلك الحقبة من الزمن، ولكنّهُ قَصرَ عبقرية الشعر على شعراء المشارقة، ونحن نرى في الأندلس شعراء مثـل لسـان الـدين بـن الخطيب وابن زمرك والمعتمد بن عبّاد وغيرهم كثيرون.

ومن الآراء التي أنصفت الأندلسيين ما ورد عند الدكتور عبد العزيـز عتيـق، حيـث يقول:"حقّاً إنَّ الشعر الأندلسي يلتقي مع الشعر المشرقي من حيث صفاته وموضوعاته، ولو لـم يلتقِ معه لكان أمراً مستغرباً، وكان الأدب الأندلسي والشعر بخاصّة، أحد جوانب هذه الحضارة العربية الجديدة، فإذا بدا عليه سيماء الاحتذاء والتقليد لشعر المشارقة، فليس لعجز الشعراء عـن الابتكار، وإنّما كانوا قد ابتكروا وجدّدوا، وهو شعور الانتماء إلى الأصل، والرغبة في استمرار الارتباط به، وما الإبقاء من جانبهم على تقاليد الشعر العربي المتوارثة، إلا صورة من صـور هذا الانتماء".[1]

والدارس يرى ظاهرة التقليد في الأدب الاندلسي ترجع فيه إلى الشكل والموضـوع دون المضمون، فمن حيث الشكل مُمثَّلاً في تقاليد القصيدة العربية القديمة، لم يكن شـعراء الأنـدلس بدعاً في التزامهِ، وإنّما كان اتجّاهاً عامًّا لدى الشعراء في العربية على مرّ العصور، فهو جـزء من تراثهم، وليس في هذا الالتزام ما يعيبهم، لأنّهُ نابعٌ من رغبةٍ لا شعوريّة بالارتباط بكلّ مـا هو عربي.

وإذا كانوا قد نظموا الشعر في فنونهِ المتعارف عليها من مدح ورثاء وغزل، فهذا فـي الحقيقة ليس تقليداً، لأن فنون القول هي هي في كل زمان ومكان. أمّا مضمون الشعر الأندلسـي فقد احتوى على تجارب شعرائهِ الذاتية التي نبعت من البيئة الطبيعية والاجتماعية، وغلبت عليها الحضارة والتجديد والابتكار.[2]

---

[1] الأدب العربي في الاندلس .ص:164.

[2] عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص 164 – 165.

ومهما يكن مِن أمر، فقد كانت قضيّة التأثّر بالمشرق أمراً طبيعيّاً، فالشـــعوب المختلفـــة تتأثر فيما بينها وإن لم يكن لها تاريخ مشترك، فكيف بأمتين انبثقتا من أرض واحـــدة وتـــاريخٍ واحدٍ، فالعربي الذي عَمَرَ الأندلس هو نفسه الذي عَمَرَ الشامَ وبغداد.

المبحث السادس: التأثُّر بالأمم الأخرى داخل المجتمع الأندلسي:

ضمّ المجتمع الأندلسي في غرناطة عناصر بشرية متعددة أهمّها: العرب والبربر ــ وهم مسلمون ــ ، والنصارى واليهود. ودخل العرب الأندلس على شكل دفعات، وسبقهم البربر الذين سكنوا هذه البلاد واستقرّوا فيها وأقاموا عائلات بعد زواجهم من نساءٍ إسبانيات، أمّا العرب فلم يدخلوها إلا بعد أول طليعة قدمت مع موسى بن نصير.

وأثناء حديثنا عن عناصر الشعب الأندلسي سنحاول إبراز معالم التمازج الثقافي الذي حدث بين هذه الفئات داخل المجتمع الأندلسي والأثر الناتج عن هذا التمازج.

كان أَغلب السكان في الأندلس من العرب الذين سكنوها منذ بداية الفتح، وكانوا لا يتجاوزون بضعة آلاف قبل زواجهم من نساء البلاد، ولكن بعد هذا التزاوج تولَّدَ عدد لا يستهان به من السكان العرب، ومن المدن التي سكنوها كانت غرناطة، وأمّا لغتهم فكانت العربية الفصحى.[1]

وقد عاش المجتمع مظهراً من الانسجام، حيث تسنّى للعرب بدورهم أن يصبغوا الأندلس بصبغتهم الثقافية، وتراجعت الثقافة اللاتينية أمام المدّ الإسلامي الذي تجاوز حدود تلك البلاد، وانتقل إلى ما وراء جبال البرانس تاركاً بصماته على كل شأن.[2]

وانتشرت الثقافة العربية بين شبيبة النصارى، وصاروا لا يروقهم إلا الشعر والقصص العربي، ولم يعودوا يقرؤون إلا كتب المسلمين، وهناك عددٌ لا يُحصى ممّن يستخدمون الألفاظ العربية في معاملاتهم. وهذا يوافق ما جاء به المطران الفارو حيث يقول: "ونرى أنّ بعض النّصارى نَسي لغته، فلا تكاد تجد في الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحبهِ كِتاباً

---

(1) أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية.ص:27. ينظر الاحاطة: ج 1 .ص :36. ينظر:الدوسري، أحمد: الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر. ص 66.

(2) عيد، يوسف: أصوات الهزيمة في الشعر الأندلسي. ص 7.

سليماً من الخطأ، أما عن الكتابة في لغة العرب، فإنّك واجدٌ منهم عدداً عظيمـاً يجيـدونها فـي أسلوب منّمقٍ ، بل هم ينطقون من الشعر ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنّاً وجمالاً".[1]

وقد أثّرت العربية في اللغة الإسبانية، وتجلّى هذا في كثير من الألفاظ التي تُعدُّ أوعيـةً للأفكار وأدوات الحضارة، وهناك وثائق حيّة تشهد بالعِشْرَةِ التي التقى في ظلالهـا المسـلمون والمسيحيون. فالألفاظ العربية لم تقتصر على العلوم الإسلامية التي ورثتها إسبانيا عن العـرب، كالفلسفة، واللاهوت، والطبّ، والرياضة، والفلك، والهندسة، والموسيقا، وما إليها. وإنّما كانـت عناصر وإمارات تشير إلى نظم إدارية وقضائية وتقاليد فنيّة وعسكريّة. ولم تكن إسبانيا لتغفـل عن هذه الحقيقة في أبحاثها، بل أولت هذه العروبة اللغوية من العناية ما هو جدير بها منذ القرن العاشر الميلادي، ويُعتَبر المعجم الذي ألّفَهُ "فراي بدرو ألكالا" نحو سنة 1505و وقد جمع فيـه اللهجة العربية التي كان يتكلم بها أهل غرناطة، ثم كَثُرَ تأليف المعاجم والبقاع وغير ذلك كثير. فمن الأنهار Guadalquivir الوادي الكبير، و Belcayde أبو القائد. ومـن القـرى والمـدن Almodovar المدوّر، و Albacete البسيط. ومـن الفواكـه Albaricoques البرقـوق، و Berenjenas الباذنجان...[2]

ومن العلماء المسلمين الذين أخذ عنهم النصارى، العالم أبـو بكـر محمـد الرّقـوطي المُرْسى، وكان طِرْفا في المعرفة بالفنون القديمة، فيلسوفاً يُقْرِي الأمم بألسـنتهم فنـونَهُمْ التـي يرغبون في تعلّمها، وفد على السلطان أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر، وأسكنه في أعدل بقعةٍ من حضرتهِ وكان يعلّم المسلمين والنصارى واليهود.[3]

ومن الأمور التي ساعدت على التمازج الثقافي بين العـرب والإسـبان الـزواج مـن الإسبانيات، فالقصور كانت مليئة بهنّ، وكثيراً ومنهنّ من كنّ يتظاهرنَ بالإسلام، ولكـنهنّ فـي

---

[1] انظر:عناني، محمد: تاريخ الأدب الأندلسي. ص 38.

ينظر: عبد البديع، لطفي: الإسلام في إسبانيا. ط1. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية. 1958. ص: 28.

[2] انظر: عبد البديع، لطفي: الإسلام في إسبانيا. ص: 113.

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج3. ص 48.

الحقيقة لم ينسين أصلهنّ الأسباني على نحو ما حدث في نهاية عصر بني الأحمر مع (ثريا) وقضيّة تنصير ولدها يحيى.[1]

أمّا بالنسبة لليهود، وهم يتمتعون بأعداد داخل غرناطة، وسُمِّيت غرناطة اليهود، وقد تمتعّوا بتسامحٍ كبير من جّانب العرب، لمؤازرتهم العرب عند الفتح. وقد كانوا يثقون بهم، ويعهدون إليهم بحراسة المدن المفتوحة مع العرب.[2]

وقد ظلّت النُّخبة اليهودية الأندلسية، من أواسط القرن السادس الهجري إلى أواسط القرن السابع الهجري، قادرةً إلى حدٍّ ما على الاحتفاظ بأسلوب حياتها في إسبانيا المسيحية، وراح المسيحيون يتوغّلون في المناطق المسلمة، وينتزعون السلطة من أيدي المسلمين، إلا أنّهم تركوا اليهود الذين كانوا ينتمون إلى البلاطات المسلمة في مراكزهم، فقد كانوا موضع ثقةٍ أكثر من المسلمين، وكانت معرفتهم باللغة العربية أمراً لا يُستغنى عنه عند التعامل مع الجماهير الناطقة بالعربية، وكذلك التفاوض مع الحكام المسلمين.[3]

ويرى المستشرق الإسباني بروفنسال: أنّ لليهود تأثيراً كبيراً على الفلسفة الإسلامية من خلال التوفيق بين الإيمان والعقل.[4] وهذا الأمر مستبعد، فكيف يتأثر المسلمون بشيء يهوديّ متصل بالدين؟!، فلم يتأثر المسلمون في الموشَّحات بالأناشيد الدينية التي تسمى "البزمون" – كما زعموا – ويرجع ذلك إلى معرفتنا أنّ الأندلسيين قد عُرف عنهم التعصّب الشديد، والنعرة الواضحة مما يشوب العقيدة حتى لقد كانوا ينفرون من الفلسفة، بل من المذاهب الفقهية المخالفة لمذهبهم، وقد تكون الموشّحات قد تأثرت ببعض الأغاني المحليّة الإسبانية.[5]

---

(1) عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص 145.

(2) انظر:ابن الخطيب، لســـان الدين :الأحاطة في أخبار غرناطة .ج:1.ص:19.ينظر:الفيّومي، محمد: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس.
ص141.

(3) أنظر شايندلين، ريموند: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس. ط1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 1998. ص 311.

(4) بروفنسال، ليفي: حضارة العرب في الأندلس. ص 68.

(5) أنظر: شلبي، سعد: الأصول الفنيّة للشعر الأندلسي، عصر الإمارة. مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر. 1982. ص 328.

ونتيجةً لمعرفتهم باللغة العربية، فقد ترجم اليهودُ كثيراً من الكتب العربيــة إلــى اللغــة العبرية التي كان الغربيون أعرفُ بها، فَنُقِلَت بعد ذلك إلى اللغة اللاتينيّة. وليس لليهود حضـــارةٌ خاصّة بهم، فهم حين نبغوا إنّما جاء ذلك في ظلّ الإسلام، وبدفعٍ من حيويتهِ، ودليـــل هـــذا؛ أنّ اليهود في إسبانيا لم يكن لهم مثل شأنِ أقرانهم في إسبانيا الإسلامية، فتراثهم ثمرةٌ مـــن ثمـــرات الثقافة العربية التي تغنُّوا بها ونهلوا منها. ولما توارى هذا النّبع من الأنـــدلس، نضـــبت معَـــهُ العقليات العبريّة، ولم تظهر إلا في ظلال حركات أخرى جرت في القرن الخامس عشر، وكـــان ثمرةً لأوروبا العقلية.[1]

أمّا البربر وهم مسلمون، فقد دخلوا من المغرب واستقرّوا في المناطق الجبليّة لملاءمتها الظروف الطبيعية للمغرب الذي أتوا منه، وسكنوا شعاب رندة، ومالقة، وســفوح جبــل شــكير بغرناطة، وانصهروا مع الأهالي عن طريق الــزواج، وأتقنـــوا العربيـــة إلـــى جانـــب لغـــتهم البربرية.[2]

والفئة الرابعة هي المولّدون، وهم أهل البلاد المفتوحة، وأطلق عليهم اسم المسالمة، ثـــم عُرِف أولادهم بالمولّدين، وبدأ هؤلاء يقبلون على الإسلام بعد الفتح، إما بدافع حب الإســـلام، أو الهرب من الجزية المفروضة عليه، وتلاشت هذه التسمية مع مرور الزمن بفضل الزواج الـــذي حصل عندما أقبل العرب والبربر على مصاهرة الإسبان.[3]

ونسي هؤلاء أصلهم الايبيري أو القوطي على الرغم من كونهم يحملون في كثيـــر مـــن الأحوال أسماءً أعجمية. وكان هؤلاء من طبقات إجتماعية شتَى قبل إسلامهم، فكان منهم العبيـــد

---

(1) أنظر: عبد البديع، لطفي: الإسلام في إسبانيا. ص: 34.

(2) أنظر: الدوسري، أحمد: الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر. ص 72.

ينظر: عبد البديع، لطفي: الإسلام في إسبانيا.

(3) أنظر: ابن الخطيب :لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية. ص:28. ينظر: المقري، أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج: 1. ص: 189 – 194. ينظر: الدوسري، أحمد:الحيلة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر. ص 74.

والزرّاع، وأهل المدن والأشراف والتجّار. وفي ظلّ الإسلام الذي نشر مبادئ العدل والتسـامح، فقد برزت منهم طبقةٌ متوسطة؛ بل منهم من أصبح من الأغنياء عن طريق التجارة والزراعة.[1]

والفئة الأخيرة هي المستعربون، وأطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم تعلّموا لغـة العـرب وشعرهم وآدابهم وتزيّوا بزيّهم، ولقد أتقن هؤلاء اللغة العربية إلى جانب لغـتهم الرومنثيّـة، – وهي لغة أهل الأندلس قبل الفتح الإسلامي – وأدّوا أدواراً مهمة في نقل ثقافة العرب الإسلامية وعاداتهم الاجتماعية إلى الممالك المسيحية.[2]

وقد كفلت لهم الدولة الإسلامية حريّة العقيدة، فأبقت لهم كنائسهم وأديرتهم، ولم تتعرض لهم في ذلك بشيء. وكانت الأديرةُ والكنائس ممّا يروق للشعراء ارتيادها. وبقيت هذه الفئة قليلة العدد إذا ما قورنت بعدد اليهود الذين سكنوا غرناطة. وكان السّواد الأعظم منهـا مقيمـاً فـي (قرطبة) و(إشبيلية)، وأكثرهم في (طليطلة)، إذ كانت عاصمة القوط القديمة والحاضرة الدينيّـة لشبه الجزيرة. وقد درج المستعربون على أن يعيشوا في أحياء خاصة بهم في المدن، وإن كـان ذلك لم يمنعهم من مخالطة السكّان. وكان لهم رئيس يعرف بالقومس، وقاضٍ يعـرف بقاضـي النصارى أو العجم، ويفصل فيما يكون بينهم من منازعات، أمّا ما يكون بينهم وبـين المسـلمين فالفصلُ فيه للشريعة الإسلامية. [3]

والاستعراب يمثّل الثقافة العربية في غير المسلمين من الاسبان، وقد بلغَ الأمر بهـم أن صاروا مولعين بالتراث العربيِّ من أدب وشعر. والوثيقة الحيَّة التي تصوّر مدى تغلغل العربيّة فيهم، هي تلك المخطوطة المشهورة المحفوظة في المكتبة الأهليّة في مدريد وتشتمل على ترجمة القانون المقدّس إلى العربيّة، وحرّرها في سنة 1049 القس "فسنسيو"، وقد سـمّى فيهـا نفسـه "بنجسيس" حيث يقول في ختام الجزء الثامن منها: "أتممتُ وأكملتُ أنا (بنجسيس) القس الخاطئ عبدِ عُبيدِ المسيح هذا الجزء الثامن من ذلك النهار، وهو أول أحدٍ من الصّيام الأربعينـي الـذي

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الأحاطة في أخبار غرناطة. ج:1.ص:74. ينظر: الدوسري، أحمد: المرجع نفسه. ص:72.

(2) أنظر:ابن الخطيب،لسان الدين المصدر نفسه .ج:1.ص:21.ينظر: الدوسري، أحمد:الحياة الأجتماعية في غرناطة. ص 76.

(3) عبد البديع، لطفي: الإسلام في إسبانيا. ص: 28.

يُتلى فيه خبر المرأة السَّامريَّة التي استقاها سيدنا المسيح الماءَ في بئر يعقــوب". وقــد أهــدى المترجمُ كتابه إلى أسقف يدعى عبد الملك وشفّعهُ يمدحه فيها حيث يقول:

وترجموا الأناجيل الأربعة إلى العربية، فقد عثر المستشرق الإسباني "أدواردو ســافدرا" في سنة 1880 على قطعةٍ منهُ في محفوظات كاتدرائية ليون، وقد ترجمهُ أسقف يُدعى ميجيــل ابن عبد العزيز. وممّا ترجموه أيضاً مزامير داوود عليــه الســلام وترجمهــا نظمــاً حفــص القرطبي.[1]

نلاحظ أن التأثر الذي حصل بين عناصر المجتمع الأندلسي ظلّ قاصراً علــى بعــض الجوانب السطحية. فالامتزاج الذي حصل كان من الناحية الحياتية التي تميــل إلــى العوامــل الاجتماعية مثل الزواج والبيع والشراء والمعاملات الأخرى.

ونرى أن التمازج الثقافي بين العرب والأسبان ظلّ محصوراً، فالعرب اســتطاعوا أن يؤثروا في غيرهم من النصارى واليهود دون أن يتأثروا بهم بشكل واضحٍ وملموس، والســبب في ذلك هو الفارق الثقافي بين الطرفين.

فالعرب كانوا أصحاب حضارة زاهرة، ومقابل ذلك، كان الأسبان في الأندلس تشــوبهم النزاعات الداخلية والاضطهاد من الكنيسة. وهو السبب الذي جعل اليهود يمدّون للعرب الفاتحين يد المساعدة؛ فقد وجدوا في العرب أملاً للخلاص من ظلم المسيحيين.

وتأثُّر العربِ بهذه العناصرِ، جاء من جانب الأُمور السّطحيّة التي تُرى بالعين المشاهدة، فتأثر العربيُّ بالعيون الزرقاء والشعر الأشقر عند النساء الإسبانيات، فوصفها في أشــعاره إلــى جانب الطبيعة.

وذهب المستشرق "بريبتوبييس إلى القول: "إنّهُ من الثابت أنّ مملكة غرناطة قد تــأثّرت في أعوامها الأولى بمؤثراتٍ قشتاليةٍ قوية. وجاء وجودها كإقطاعية أو محميّةٍ تابعةٍ لفرناند ملك قشتالة ومما يؤكد ذلك، أنّ أوائل ملوك بني نصر لم يكن لهــم مظــاهر مســلمين إلا مــا هــو

---

[1] عبد البديع، لطفي: الإسلام في إسبانيا. ص: 28 – 30.

ضروري ليتسامح معهم رعاياهم. ويثبت ذلك وجود وثائق تاريخيّة متّصلة بالملك العالم ألفونسو العاشر وجاء فيها تواقيع هذا نصّها: "دون أبو عبد الله بن نصر ملك غرناطة الخاضـــع للملـــك" ويليهِ اسم "دون محمد بن هود ملك مرسيه" وهذا اسم ثالث "دون ابن محفوظ ملك نبلة". وكانـــت أزياء أهل غرناطة أوائل حكم بني الأحمر، يغلب عليها ترك العمائم، فلا نكاد نرى منهم قاضياً أو فقيها يُشارُ إليه بالبنان وعلى رأسهِ عمامة. وكان لباس جنودهم كلباس النصارى، وكذلك كان سلاحهم وأدواتُ حربهم".[1]

وننظر إلى هذا التأثير من جانبين أولهما: أنّه جاء في بدايات حكم بني الأحمر ، وظهر هذا من خلال الاتّفاق الذي حدث بين فرناندو ملك قشتالة ومملكة غرناطة .ومن بنوده أن يمـــدّه بالجند في حربه ضد أعدائه، وأن يدفع له جزيةً سنويةً قدرها مئة وخمسون ألـــفَ قطعـــة مـــن الذهب. والذي يهمّنا من هذا الاتفاق هو الشّق العسكري، ونرى فيه اختلاط جند غرناطـــة مـــع جنود فرناندو، لذلك فمن الطبيعي أن يحصل هذا التأثير في الزيّ العسكري للجندي الغرنـــاطي. وثانيهما: نحن نرى أن هذا التأثير قد اقتصر على الجوانب التي تتعلق بالجانب الشـــكلي، الـــذي يخصّ الحياة اليومية، والتي تبتعد كلّ البعدِ عن الجوهر الإسلامي العربي، فلم نر ذلـــك التـــأثير الواضح للإسبان في أشعار العرب وآدابهم الأخرى.

أمّا البربر فلم يتأثروا بغيرهم ويرجع ذلك إلى طبيعتهم، فهم يبحثون عن الوطن الآمـــن الذي يكفل لهم حياة منعّمة، ولذلك نراهم يتزوجون من النّساء الإســـبانيات ثـــم يركنـــون إلـــى الزراعة، فهم شعب يبحث عن الحياة.

لم يستطع اليهود أن يؤثْروا في غيرهم، ويرجع هذا الأمر إلى نمط معاشهم، فهم يحبّون أن يعيشوا في معزل عن الأمم، ولذلك فقد سكنوا غرناطة في حيّ البيّازين، وهو من المنـــاطق الشعبية فيها، وكانوا يسكنون في أحياء ضيّقة بجانب بعضهم بعضـــاً، وعنـــدما انتهـــى حكـــم المسيحيين في الأندلس، آثروا الخروج إلى المغرب على البقاء تحت ظلم الأسبان.

---

[1] حـــزّان، حبيـــب: الأدب الأندلســـي مـــن الاحتـــلال إلى الارتحـــال. ج1. دار المشـــرق للترجمة والطباعـــة والنشـــــر – شـــفا عمـــرو. ص: 244 – 245.ينظر:العبادي ،أحمد:مجلة عالم الفكر. الكويت: وزارة الإعلام. العدد/2 .1979 . ص: 374 .

المبحث السابع: الطبيعة الجغرافية:

كان للطبيعة الأثر البارز في شعراء الأندلس، حيث استطاعوا أن يرسموا لنا لوحات فنيّةٍ تعبر عن تلك الطبيعة بما فيها من رياض ووديان وجبال، إضافة إلى القصور والبرك والمساجد وغيرها من مظاهرها الجميلة. وقد أضفت على نفوسهم الرّقّة ورهافة الحسّ، فجاءت أشعارهم عذبة خالية من التعقيد وقد ساعدت الحياة اللاهية التي عاشها الشعراء على ازدهار هذا النوع من الأشعار، فقد عُقِدت مجالس اللهو والعبث ضمن أحضانها، وغصّت القصور بهذه المجالس.

وتميّز فن العِمَارة في ذلك العصر بتركيزه على الزخارف النباتية والكتابية ،فقد ابتعد المسلمون عن الرسومات التي تتعلق بالإنسان والحيوان لاعتقادهم بتعارضها مع الدين.

وهذا الاعتقاد كان موجودا منذ بداية الدعوة الإسلامية، أي منذ القرن الأول للهجرة، فلا سبيل إلى النقش أو النحت، وعبّر العربيّ عن ذاته من خلال القول.

ومن المدن الجميلة في الأَندلس غرناطة، وهي تعني عند الأسبان (الرمّانة) وهذا يدلّ على أنها كانت مليئة بالخيرات التي نتجت عن التربة الخصبة ووفرة المياه ووصفها صاحب الإحاطة بقوله: ويحفّ بسور المدينة البساتين العريضة المُسْتَخْلَصَة، والأرواح الملتفّة فيصير سورها من خلف ذلك كأنّه من دون سياج كثيفة، تلوح نجوم الشرفات أثناء خضرائه، ولذلك قلت فيه:

بلدٌ تَحُفُّ به الرّياض كأنّه ... وجهٌ جميلٌ والرّياضُ عِذارُهُ

وكأنّما واديه مِعْصَمُ غادةٍ ... ومِنَ الجسورِ المحْكَمَاتِ سِوارُهُ[1]

(الكامل)

"فليس تعرى عن جنباتهِ من الكروم والجنّات جهةٌ، وتركبُ ما ارتفع من هذه المدينة من جهاتها الثلاث، الكرومُ البديعة، طوقاً مرموقاً، يتّصل بما وراءها من الجبال، فتعمُّ الرُّبى

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج1. ص: 25.

والوِهَاد، وتشمل الغُورَ والنّجد، إلا ما اختصّ منها بالسّهل الأفيح، متّصلاً بشرقي بـــاب إلبيـــرة، إلى الخندق العميق، وهو المسّمى (بالمشايخ)، بسيط جليل، وجوّ عريض، تغمـــى علـــى العـــدِّ أمراجُه ومصانيعهِ، تلوح مبانيها ناجمةً بين الثمار والزيتون وسائر ذوات الفواكه، مـــن اللّـــوز والأجاص والكمّثرى، مُحَدّقة من الكروم المُسِحّة والرياحين الملتفّة، ببحور طامية تـــأتي البقعـــة الماء؛ ففيها كثير من البساتين والرّياض".[1]

ومن وديانها وادي شنيل الذي وُلِعَت به الشعراء فوصفوه في أشعارهم، قال أبو الحجاج يوسف ابن سعيد:

أحـــنّ إلـــى غرناطـــةَ كلّمـــا هَفَّتْ ... نســـيمُ الصّبا تهدي الجوى وتشـــوق

سقى اللهُ من غرناطةَ كــــلَّ مَنْهلٍ ... بـــمـــنهلِ سُـــحبٍ مـــاؤُهنّ هريـــقُ

ديارٌ يدورُ الحســـــنُ بين خيامها ... وأرضٌ لها قلبُ الشَّجيِّ مَشُـــــوق

وما شــــاقني إلا نضارةُ منظـــرٍ ... وبهـــجـــةُ وادٍ للـــعيـــون تـــرُوق

وقـــد سَـــلَّ شـــنّيل فِـــرِنْداً مُهنّـــداً ... نضـــى فوقَ دُرٍّ ذُرّ فـــيـــه عـــقـــيـــقُ[2]

(الطويل)

وشعر الطبيعة عندهم يمثّل تعلقهم ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات، بعد أن كان هواهم متعلّقاً بصورة الجزيرة العربية وهو شعر يصف بيئة الأنـــدلس الطبيعيـــة والصـــناعية، فشعراء الطبيعة يصفونها كما أبدعها الله في الحقول والريـــاض والأنهـــار والجبـــال والســـماء والنجوم، يصفونها كما صوّرها الفنّ مجلوّة في القصور والمساجد والبرك والأحواض، فيكمـــل تذوقهم لجمال الطبيعة وأشكالها فيزدادون حبّاً بها.

وكانوا يرون في طبيعة بلادهم، أنّها الأجمل في الأرض، فليس في عيونهم أجمل منها، يقول لسان الدين بن الخطيب في وصف غرناطة:

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين:الإحاطة في أخبار غرناطة. ج1. ص 27.

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر نفسه. ج1. ص 25 – 28.

سُكّانها مَنْ أسْكِنُوا جنّةً   فهم يُلَقَّوْن بها نّضْرة[1]

(السريع)

وقال ابن الخطيب: مررت يوماً مع شيخنا أبي البركات ببعض مسالك غرناطة، فأنشدَ من نظمهِ:

غرناطة ما مثْلُها حَضْرَة   الماءُ والبهجةُ والخُضرْة[2]

(السريع)

وأكثرَ بنو نصر من بناء الحدائق والرّياض، ومن أشهرها جنّتا العريف والسّبيكة. وتقع جنّة العريف في شمال شرقي الحمراء في أسفل الربوة، واحتفظوا فيها بمساحات واسعة، تغطيها الأشجار الضخمة عاليةً ظليلةً، وتجري تحت أقدامها المياه، وفيها تمتزج زقزقة العصافير بأريج الزّهور. ويصفها ابن زمرك بقوله:

لله جنّـــاتُ الـــعريـــف فـــإنّـــها   فيها المعارفُ والعوارفُ تُصْـــــــــفِقُ
حَسَدَتْ بُروجَ الأفقِ حُسنَ بروجهِ   فـــالشُّـــهْبُ مِـــنْ حَسَـــدٍ عليـــهِ تُحلِّقُ[3]

(الكامل)

وكان الخروج إلى المنتزّهات والحدائق عند أهل غرناطة مظهراً من مظاهر الاحتفـــال بالأعياد، ووسيلة من وسائل التسلية، للتمتع بالطبيعة الخلابة التي تشرف على المدينة بمروجهـــا الخضراء، وأغصان أشجارها الملتفّة، ومياه أنهارها المتدفّقة.

وكان في غرناطة العديد من المتنزّهات، ومن بينها موقع جبل يقال له (عـــين الـــدمع) المطلّ على سفح جبل الفخار الذي يتمتّع باعتدال هوائهِ، وخضرة بساتينهِ وعذوبة مياههِ، حتـــى غدا هدفاً للنزهة الشائعة أيام الربيع وليالي الصيف. وبهِ تغنَّى الشعراء، ولابن الخطيب قصر في هذا الموقع نُقِش على سقف قبتهِ هذه الأبيات.

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان: ج 1: ص: 435.

(2) المقّري، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عيّاض. ج1. ص 272.
ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج:1. ص: 435.

(3) ابن زمرك، محمد: الديوان. ط:1.ت: محمد توفيق .بيروت:دار الغرب الإســلامي .1997.ص:263. ينظر: الشنّاوي، علي: دراسات في الشعر الأندلسي. ط1. مكتبة الآداب. 2003. ص 224 – 225.

إذا كــان عــيــنُ الدمــعِ حــقيــقــة فــإنســانُهــا مــا نحــنُ فــيــه ولاعُ

فدام لخيلِ الأنــــــــــسِ واللهوِ ملــعباً ولا زالَ مــثــواهُ الــمنعّــم مــرتــعُ

تــودّ الثــريّــا أن تكونَ له ثــــــــرى وتمدَحُهُ الشعــرى وتحرســهُ المــعُ[1]

(الطويل)

وساعدت الطبيعة الجميلة على شيوع الرياضات المختلفــة، مثــل رياضــة مصــارعة الثيران، وذكر ابن الخطيب أنّها شاعت في غرناطة في عصر بني الأحمر، وكانت فــي عهــده تقام بطريقتين: الأولى يتمّ فيها الصراع بين الثور والأسد، والثانية تتم بين الثور والإنسان، وكان ابن الخطيب يشاهد هذه الرياضة.[2]

وهناك رياضة أخرى وهي الصيد، كانت مظهراً من مظاهر الاحتفال بالأعياد، فغرناطة محاطةٌ بالجبال ،وتغطيها غاباتُ كثيفةٌ خاصّة التلّ الواقع على حافّة واد حدرة، الذي كان مرتعاً للحيوانات البريّة، ومنبتاً لأنواع عِدَّة من الأشجار والزهور، ومنبعاً لجداول المياه المنحدرة مــن أعالي الجبال. وكان الغرناطيون يصطادون الحيوانات والطيور التي تعيش في تلك الغابات.

ولا خلاف في أنَّ للبيئة الطبيعية أثراً في نفوس الشعراء، فهم يتغنون بجمــال الطبيعــة ورياضها وبساتينها، ويستوحون من مجالَيْها – الطبيعي والصناعي – تصوراتهم وأفكارهم.

وهم يصفون ما يرون، ويصورون ما يحسّون، فإذا كانت مظاهر الطبيعة ومعالمها مما ترتاح له النفس، فإنَّ الشاعر يمدح هذه المصادر ويثني عليها، وإذا كانت لا تعجبهُ، أو لا تروق له؛ فإنّهُ سرعان ما ينفر منها ويبتعد عنها. ثم هو يبدي تذمُّرَهُ وشكواه منها، فتهيج نفسه شــعراً يذمُّ به الجوانب المقيتة في الطبيعة وميادينها.[3]

---

(1) الدوسري، أحمد: الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر بني الأحمر. ص 146. لم نجد هذة الأبيات في ديوان ابن الخطيب.

(2) الدوسري، أحمد: المرجع السابق. ص 151. ينظر :العبادي ، أحمد : مجلة عالم الفكر. العدد/2 .ص: 108 . 314.

(3) عبد الله، نافع: الهجاء في الشعر الأندلسي. ط1. بيرزيت: منشورات كلية الآداب. 1984. ص 27.

ومن أعمال غرناطة (باغة) ، وعامة النّاس يقولون (بيغة)، وهي بلـدة طيبـة غزيـرة المياه، كثيرة الثمار، ومنها وادي آش، ويقال له وادي الآشات، وهي مدينة جليلة قد أحدقت بهـا البساتين، وجرت فيها الآثار ولأهلها مزيّة في الأدب وحبّ الشعر[1].

واشتهرت (المريّة) وهي المدينة الثانية لمملكة غرناطة، بالجمال الذي برز مـن خـلال موقعها على ساحل البحر، وفيها من الحمّامات والفنادق نحو الألف.

أمّا مالقة، فقد جمعت بين منظر البحر والبرّ بالكروم المتّصلة التي لا تكاد تُـرى فيهـا فرجةٌ لموضع غامر، والبروج التي شابهت نجوم السّماء وقد اختصّت بخيراتها من الفاكهة سائر البلاد.[2]

وامتدّ العمران داخل الأندلس نفسها، فكان أمراً يدعو إلى العجب، فقد كانت المدن علـى ما بينها من مسافات متصّلة الحلقات بالمباني البيضاء المتقاربة، بحيث لا يحسُّ المسافر بوحشة الطريق، أو يرى أنْه ترك مدينة ليلحق بأخرى، ويصف ابن سعيد هذه الظاهرة فيقـول:" متـى سافرت من مدينة إلى أخرى لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع، والصحاري فيها معدومة، ومما اختصّت بهِ أنّ قراها في نهاية من الجمال لتصـنّع أهلهـا فـي أوضـاعها وتبييضها لئلا تنبو عنها العيون، وقد حقّقت من الجمال وروعة التشييد ما تسعى إليـه حضـارة العمارة في القرن العشرين ولذلك فنحن لا نلوم الشعراء إذا ما أكثروا من الإشادة بوطنهم إعجاباً بكمالهِ".[3]

ولابن زمرك أبياتٌ في وصف دار الملك، وفيها يقول:

ولله مـبناكَ الجميـلُ فـإنّـهُ	يفوقُ على حكمِ السـعودِ المبانيا
بهِ البهوُ قـد حازَ البهاءَ وقد غـدا	به القَصْرُ أفاق السـماء مباهيا
بهِ البحـرُ دفّـاع العبابِ تخالُـهُ	إذا ما انبرى وفـد النسـيم مُباريا

[1] أنظر: المقري، أحمد :نفح الطيب .ج:1.ص:132.
[2] المقري، أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.ج:1.ص:134.ينظر: أرسلان، شكيب: خلاصة تاريخ الأندلس. ص 21 – 23.
[3] أنظر: الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. ص 42.

ولم نر قصـــراً منهُ أعــلى مظاهــراً وأرفــعَ آفــاقــاً وأفســح ناديــــاً[1]

(الطويل)

وقد استطاع الأندلسيون أن يستخدموا الطبيعة من خلال جرّ المياه إلى الحدائق ، وبنـــاء البرك، وكان لهذا أثرٌ واضحٌ في الشعر. وظهر في أكثر أبوابهِ، وعُرفَ عند أغلب الشعراء، فقد استعانوا بهذا العامل الطبيعي في جميع أبواب الشعر من مدح ورثاء وغزل وفخـــر ولا ســـيما الغزل.[2]

وأثّرت الطبيعة في أشعار العرب تأثيراً واضحاً، فالشعر بقي تابعاُ لطريقة العرب فـــي أغراضهِ وأوزانه، إلى أن حدث في العقول ما دعاها إلى الابتكار في الفنون والعلوم، فتطلّعــت نفوس الفنيين من شعراء وأدباء إلى الانتقال من صبغة البداوة إلى شكل حضري أشبه بالبـــداوة في الجمال، فزادوا في وجدانياتهِ، ممّا استدعتهُ الحضارة من التوسّع في الخمريات والعواطـــف من عشق وغيره، ووصفِ المناظر الجميلة والحدائق النضرة، وكلّ ما استلزمته حالهم من آثـــار المدنية والعمران.[3]

وشعرُ الطبيعة عندهم لا يظهر كغرض مستقلّ إلا نـــادراً فـــي بعـــض الموضـــوعات والقصائد، وقد امتزج في أكثر الأغراض التي طرقها الشعراء، وكان الغزل أكثر هذه الأغراض امتزاجاً بالطبيعة، فهم لا يذكرون الحب إلا في رحاب الطبيعة، وبهذا يمنحون غزلهم لوناً بهيجاً من الجمال تقدمه الطبيعة في خلواتهم وتفسح لهم مجال اللهو والشراب.[4]

ومن هذا قول ابن خاتمة الأنصاري:

وروضةٍ قد وطِئنا من رياحِينهـــــــا فُرُشَاً وظَلْنا من الإظـــــلالِ في لُحُــفِ
أرختْ علينا ســـتوراً من خمائِلِهـــا قـــد طُرِّقت بـــأفانينٍ مِـــــن الطُّـــرَفِ

---

[1] ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 140 – 141.
[2] جبور، جبرائيل: من رياض الأدب والتاريخ. ط1. بيروت: دار الآفاق الجديدة. 1981. ص 256.
[3] أبو الخشب، إبراهيم: تاريخ الأدب العربي في الأندلس. ط1. مصر:دار الفكر العربي. 1966. ص 268. 314.
[4] الركابي، جودت: الطبيعة في الشعر العربي. ط2. دمشق: مطبعة الترقي. 1970. ص 67.

وللغصونِ اعتناقٌ تحــتَ ذيلِ صَبا		نســـــيمِها كــــــاعتنـــاقِ الـــلام والألفِ
قد ساجعَ الطَّيرُ ترجيع القيانِ بهـــا		وساجلَ القُضبَ رقصُ الأعطُفِ اللطُفِ[1]

(البسيط)

ثم يبدأ في الغزل فيقول:

أجرُّ ذيلَ التصابي فيه مُحْتســـــــباً		أَجْـــري بِرَدِّ عذول فيه مُعْتَســــــفِ
عُهودَ أنــــسٍ عســـاها أن تعودَ فما		أتمَّ حُســـــْناً وأحلى إن ذكرتُ بفـــــي
مــــا أقـــــدَرَ اللهَ أن تُثْنى أعنَّتُهـــا		فيشـــــتفي كَلِفٌ بالشوقِ في كُلــــفِ
لئن مَحَتها أكفُّ الدّهرِ عن بصـــري		فإنّ مشهدَها في القلبِ غيرُ خفـــــي[2]

(البسيط)

ومِن استخدام ألفاظ الطبيعة في المديح، قول ابن زمرك في مقدمة قصيدة قالها في مدح السلطان الغني بالله:

هبّ النسيمُ على الرياضِ مع السَــحَرْ		فاستيقظتْ في الدوحِ أجفانُ الزَهَـــــرْ
ورمى القضيب دراهماً مــــن نورهِ		فاعتاض مـــــــن طلِّ الغمامِ بها دُرَرْ
نثر الأزاهِر بعد ما نظــم النــــدى		يا حُســــنَ ما نظم النســــيم وما نثر
يا فخرَ أندلــــس وعصــــمة أهلها		للنّاس ســــرٌّ في اختصاصك قد ظَهر
وُرِّثتَ هذا الفخرَ يا مــلِكَ الهـــدى		مــنْ كــلِّ مَنْ آوى النبيَّ ومَنْ نَصَرْ[3]

(الكامل)

وحقيقةً أن الأندلسي أصبح مولعاً بالطبيعة ومحبّاً لها، وكانت تسترعيه دائمـــا فيصـــفها مبيناً جمالها، ومن ذلك ما حصل مع لسان الدين بن الخطيب عندما وقف فـــي مدينـــة مكناســـة بالمغرب فيقول في وصف جمالها:

بـــالحسنِ من مكناســــةِ الــزيتــونِ		قد صحّ عــذرُ الناطقِ المفتونِ

---

[1] ابن خاتمة: الديوان. ت: محمد رضوان الداية. ط1. دمشق: دار الفكر. 1994. ص 63.
[2] ابن خاتمة: الديوان. ص 63.
[3] ابن زمرك الغرناطي: الديوان. ص 40 – 41.

فضل الهواءِ وصـــــــحّة المال الذي يجري بها وســـلامة المخزونِ
واحمـــرّ خـــدُّ الـــوردِ بيـــنَ أبـــاطحِ وافترّ ثغر الزهرِ بين غصونِ[1]

(الكامل)

وكانت الطبيعة سلاحاً ذا حدّين، أعطت المسلمين خيراً فنعموا وعمروا وأنتجـوا علمـاً وأدباً وفنّاً، وخلق تنوع بيئاتها وصعوبة المواصلات فيها كثيراً من المشكلات السياسية، وشجّعت على الانفصالية والثورات الداخلية، كما أتاح هذا التباين الطبيعي لكلّ من الأوروبـي والعربـي والإفريقي أن يجد مستقرًّا ويهيئ لنفسهِ مقاماً، ويقيم دولاً تشكّل طوائف عاشت قلقـة لـم تـنعم بالأمن والاستقرار.[2]

بعد هذا العرض الذي قمنا بهِ لعدد من العوامل التي كان لها أثرٌ واضحٌ فـي تطـوّر الحركة الشعرية، فإننَّا نستطيعُ أن نقسّمها إلى قسمين:

أولهما: عوامل اتَّصلت بالظروف الخارجية، مثل الهجرات المتلاحقة من المدن المنكوبـة إلـى غرناطة، والتأثر الذي حصل نتيجةً لإتصالهم بالمشارقة.

ثانيهما: عوامل اتَّصلت بالظروف الداخلية وهي عديدة نذكر منها: الطبيعة – وتأتي في مقدمتها، وتشجيع الملوك ووجود الشعراء منهم، وضياع المدن الأندلسية، والتي شجعت المسـلمين لكـي يدافعوا عن كيانهم وشخصيتهم العربية، والتأثر بالأمم الأخرى داخل المجتمع الغرنـاطي الـذي ضمّ البربر والمولّدين وغيرهم.

وكان هذا العصر على امتدادهِ الذي دام نحو قرنين ونصف من الزمان، زاخراً بالأحداث السياسية التي عصفت بالدولة الإسلامية، ولكنّهُ اتّسم بالاستقرار السياسي الداخلي على الرغم من النزاعات الداخلية التي كانت تجري بين ملوكهم.

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب. ت: أحمد مختار العبادي. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر. ص 373.
[2] أنظر :شلبي، سعد: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، عصر ملوك الطوائف. ص 26.

وقد ساعدت هذه العوامل على نموّ وتطوّر العديد من الفنون الشعرية، كالرثـــاء الـــذي ازدهر بشكل ملحوظ في هذا العصر، وساعدهُ في ذلك، الظروف السياسية التي واكبت عصـــر بني الأحمر منذ البداية وحتى السقوط. فالوضع السياسي بالنسبة للعرب كان في تراجع مستمر، وبدا هذا واضحاً في توالي سقوط المدن الأندلسية ووقوعها في يد الإِسبان.

ومن هذه الفنون أيضاً فنّ المديح، الذي ظهر بتشجيع من ملـــوكهم، فعقـــدوا المجـــالس الأدبية التي وجد فيها الشعراء مُتنفَّسا يستطيعون من خلالها تحقيق ما يطمعون فيه مـــن كـــرم هؤلاء الملوك وأعطياتهم التي يجزلونها لهم.

ولعلّ السَّمة الغالبة في أشعارهم المدحيّة، هي إظهار النسب الذي ينتمي إليه ملوك بنـــي الأحمر والذي يتصل بالصحابي الجليل سعد بن عبادة الأنصاري، وكلّ هذا من أجـــل إضـــفاء الصبغةِ الدينيّة على حكمهم.

وتعد الطبيعة الجميلة التي سادت بلاد الأندلس من العوامل الفاعلة التي ســـاعدت علـــى تطوّر الحركة الشعرية عندهم، فقد اشتهرت غرناطة بخضرتها الجميلة التي ظهرت في وديانها وأنهارها وجبالها، فوجد الشعراء فيها ملاذاً يلجؤون إليه ليعبّروا عن حبّهم لها، فـــذكروها فـــي معظم مواقفهم، فلا نكاد نجد غرضاً شعريّاً إلا ويُصَدَّر بوصفٍ لجمالها. فهـــي عنـــدهم أشـــبه بالوقوف على الطلل عند الجاهليين. ونتيجة للاستقرار الذي ساد مملكة غرناطة، وما تبعهُ مـــن ترف الحياة ومتاعها، فقد ساعد هذا على ازدياد وتنامي مظاهر اللهو والمجون.

وفي غمرة هذه الحياة اللاهية، برزت فئةٌ من الشعراء لم تعجبهم هذه المظاهر، فابتعدوا عن الحياة اللاهيةِ وزخرفها، وآثروا الزهد والتقشُّف، وهي طبقة الزهّاد والمتصوّفين، فانتشـــر شـــعرهم الذي يـــدور حول ذمّ الدنيا ومتاعها الزائـــل، والتي لا تحمـــل في طيّاتها – حســـب اعتقادهم – إلا المتعة الآنيّة. وجاءت الظروف السياسية التي عبّرت عن الواقع المريـــر الـــذي يعيشهُ المسلمون، لتكون تربةً خصبةً صالحةً لنموّ هذا اللون من الفنون الشعرية.

والتأثير بالمشرق يبدو واضحاً في أشعارهم، ويرجع سببه إلى عوامل عدّة من أهمهــا: أنّ العربيّ الذي سكن الأندلسَ، هو نفسهُ الذي سكن دمشق وبغداد، فالتأثير أمــر طبيعــي، بــل نستطيع أن نقول: إنّ من غير الطبيعي أن لا يظهر التأثير بينهم. فالهجرات والرحلات لم تتوقف بين الأندلس والمشرق طوال حكم المسلمين لهذه البلاد، والذي دام قرابة الثمانية قرون.

الفصل الثاني

الأغراض الشعرية في عصر بني الأحمر

المبحث الأول: الوصف.

المبحث الثاني: الحماسة.

المبحث الثالث: الفخر.

المبحث الرابع: الرثاء.

المبحث الخامس: الهجاء

المبحث السادس: المدح.

المبحث السابع: الغزل.

المبحث الثامن: الخمريات.

المبحث التاسع: الإخوانيات.

المبحث العاشر: الاستعطاف والشفاعات.

المبحث الحادي عشر: شعر الحنين.

المبحث الثاني عشر: الشعر الديني.

المبحث الثالث عشر: الشعر التعليمي.

المبحث الرابع عشر: الحكمة

المبحث الأول: الوصف

تفنّن الأندلسيون في شتى الأوصاف حتى فاقوا المشارقة في بعضها، كوصف الطبيعة الناعمة، والمدن العامرة، فكلّ شاعر منهم متصل بالطبيعة، وهو مشغوف بعمارة بلاده، وكان لهم يد في وصف الفلوات الخالية، والوحوش الضارية، والخيل والإبل، وبرعوا في وصف مجالس اللهو والغناء والرقص والشراب وآلته، ووصفوا الصيد وأدواته والسلاح والسفن،[1] وأظهر الأندلسيون عبقرية نادرة في الشعر الوصفي، ونستطيع أن نقول: إنّ اهتمامَهم بهِ كان كبيرا، وعلى الرغم من امتزاجه في أكثر الأغراض الشعرية، فقد استطاعوا أن يمنحوه بعض الإستقلال.[2]

أولا: وصف الطبيعة:

انتقل العربي من بيئة صحراوية جافة في الجزيرة العربية، وكانت طبيعته هناك تملي عليه وصف الصحراء والأجرام السماوية، والناقة والمرأة، وقد انتقل بعد ذلك إلى بيئة أجمل، وطبيعة أكثر امتلاءً بالخيرات والمناظر، وبدخول الأندلس، اتّسعت آفاق الطبيعة أمامه، ففيها روح وريحان، وجنة ونعيم، وبيئة جديدة توحي بشعر جديد، خضرة وماء ووجه حسن، وتجسّم الجمال في كلّ شيء أمام العربي، فإذا جلس شاهد الجمال، وإذا سار، وإذا دخل الحدائق، وإذا ركب النّهر، وإذا أمسى، كل ذلك أثار غريزته إلى قول الشعر.[3]

واتّصل شعر الطبيعة بأكثر الأغراض الشعرية في الأندلس، فأصبحت قصائد الشعراء تبدأ بوصفها، وكأنّنا أمام مقدمات طللية كما كان شائعا عند الجاهليين، وجاء هذا نتيجة لاهتمامهم بطبيعة بلادهم، فدخلت غزلهم ومدائحهم وغير ذلك من الأغراض الأخرى.

---

[1] البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الإنبعاث. ص: 65.

[2] الركابي، جودت: في الأدب الأندلسي. ص: 120.

[3] حميد، بدير: قضايا أندلسية. ص: 131.

ظلّت طبيعة الأندلس الفاتنة تتصدى باستمرار لعيون الشعراء، وتبعث فيهم وصال الحبيب وبهجة النّفس، حتى وصلت قصيدتها إلى مستوًى عالٍ من النُّضوج، وسبب ذلك ميل الشعراء إلى إعطاء المنظر الطبيعي حقه الكامل، وعنايتهم بالتفاصيل والجزئيات.[1]

وتناول شعراء الطبيعة في العربية، الطبيعة الصامتة والطبيعة الحية، ويقصد بالطبيعة الحية، ما اشتملت عليه أصناف الحيوان ما عدا الإنسان، والطبيعة الصامتة تتجسد مظاهرها في السهول والبحار والسماء والبوادي والحقول وما إلى ذلك، وقسّموا الطبيعة الصامتة إلى طبيعة طبيعية وأخرى صناعية، أمَّا الطبيعة الصناعية فهي التي عمل الإنسان على تأليفها وتنسيقها كالقصور والبرك والزخارف وما شابه ذلك. والأولى هي أكثر ملاءمة لمفهوم كلمة الطبيعة، وأكثر إيحاءً للحسِّ الطبيعي، فهي التي تحدث في النّفس ذلك الحس الشعوري الذي ينبض بجمالها.[2]

1- وصف الطبيعة الصامتة:

أ- المدن والعمران:

وجد الشعراء في جمال مدينة غرناطة وما حولها من المدن، الكثيرَ من مظاهر الجمال التي تدفعهم لكي يفتنوا بها. وتمتد غرناطة وما حولها إلى مسافة تقرب الأربعين ميلا، وتغطيها الخضرة والأشجار، وتتخللها السواقي والجداول والأنهار، وما يستتبع ذلك من طيور مغردة وظلال وأفياء ونسمات وأنداء، ممَّا يبعث الشعر رقيقا أخّاذا يدفع به إلى رحاب الأسماع دفعا.[3]

وتسابق الشعراء في وصف غرناطة، فهم لم يروا بلادا أجمل منها، ووصلت عندهم درجة الكمال في الجمال، ونراهم يقضون جل أوقاتهم في وصف هذا الجمال، يقول ابن الخطيب:

أُحيّيك يا معنى الكمالِ بواجبِ وأقطعُ في أوصافِكَ الغرِّ أوقاتي

---

(1) المقري، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ص: 81.

(2) الركابي، جودت: الطبيعة في الشعر الأندلسي. ص: 12.

(3) الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه. ص 150.

تقسَّم منك التربَ قومي وجيرتي　　　ففي الظَّهْرِ أحيائي وفي البطنِ أمواتي[1]

(لطويل)

وقد أسرت هذه المدينة قلوب الشعراء وعقولهم، فهم لا يستطيعون أن يفـارقوا ديارهـا ومناظرها الجميلة، فهي تبهج العيون، وتبعث على الطمأنينة في كل نفس تراهـا، يقـول أبـو الحجاج يوسف بن سعيد بن حسان:

سقى الله من غرناطة كلَّ منهلٍ　　　بمنهل سُــحُبٍ ماؤهُنَّ هريق

ديارٌ يدورُ الحســنُ بين خيامِها　　　وأرضٌ لها قلب الشجيّ مشوق

وما شاقني إلا نضارةُ منظــرٍ　　　وبهجـــةُ وادٍ للعيون تروق[2]

(الطويل)

وعمُرت هذه المدن بالقصور الجميلة، التي أقدم أمراء بني الأحمر وملوكهم على بنائهـا في حدائقهم ومتنزهاتهم، وكان بناؤها ملاذا لهم للهروب من واقعهم المليء بالصراعات السياسية الداخلية والخارجية، فأوجدوا فيها كل وسائل الراحة، وتفنَّن المهندسون في زخارفها وسـاحاتها، فبنوا البرك والنوافير وسطها، فكانت السبيكة الذائبة. ووصف ابن زمرك دار الملك للأمير أبـي عبد الله، بأنها أجمل ما ابتدعتهُ يد إنسان، حتى أنَّ النّجوم قد تمنّت أن تنزل إليها لشدة جمالهـا، فهي تفضله على السماء، ووصف فيها البهو والمتنزهات الجميلة. يقول:

ولله مبناك الجميــل فإنّــه　　　يفوقُ على حكمِ السعود المبانيا

فكم فيه للأبصارِ مــن متنزّه　　　تجد به نفــسُ الحليمِ الأمانيا

وتهوى النجومُ الزُّهرُ لو ثبتتْ به　　　ولم تك في أفق الســماءِ جواريا[3]

(الطويل)

---

[1] المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج. 8. ص 194.

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج1. ص: 27.

[3] ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 140.

ينظر: المقري، أحمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج 9. ص: 47.

وقصر شَنِّيل الذي كان آهلاً بالسكان، وعامراً بالحدائق الغناء، والأشــجار الخضــراء الجميلة لم يغب عن قلب ابن زمرك. يقول:

يا قصر شَنِّيلٍ وَرَبُعك آهلٌ   والروضُ منك على الجَمال قد اقتصر
لله بحرُك والصَّبا قد سرَّدت   منه دُرُوعاً تحت أعلام الشّــــجر[1]

(الكامل)

ب- الروضّيات:

كان لانتشار الرياض أثره الواضح في شعرهم، وحظيت الروضيات بنصيب وافر مــن عنايتهم، فرسموا لها لوحات كثيرة، وصورّوا فيها ما تشتمل عليه الروضة من أشجار وأزهــار وجداول وطيور. والشعر الأندلسي يمتاز في جملته عن الشعر العربي بما فيــه مــن المعــاني المبتكرة الجميلة، وكذلك فإنّهُ يدلّ على حياتين ويرسم صورتين من أحوال العربي: فبينما تــرى الشاعر يصبو إلى ذكر بلادِهِ الأولى من حياتِهِ البدوية، تجده يذكر الرياض والبساتين والأنهــار والمياه الجارية وظلال الأشجار والنسيم العليل.[2]

"وإذا تتبعنا شعر الروض عند ابن زمرك، وجدنا أنه لم يترك شيئا إلا تحدث عنه حــديث المولع بالجمال، ومن ثم فليس من باب المبالغة أن نقول: إنَ ابن زمرك قد أشبه الصَّنوبري رائد فن الروضيات في تراثنا الشعري، في كلفه بالرياض، فإذا به يهــيم بهــا حبــا فيعطيهــا أرق مشاعره، ويمنحها خالص وده، ويصفها ممتزجة بنفسه، وتجيء روضياته صورة لأحساســاته، ففيها وصف لسحر الرياض وجمالها، وفيها تصوير مشاعره حيالها، وهو يغــدق عليهــا أنبــل عواطفه".[3]

فها هو ذا يقف بالسبيكة – وهي حديقة لأمراء بني نصر – فتثير تلك الوقفة هواجســه وذكرياته. يقول:

---

(1) ابن زمرك، محمد: الديوان. ص:44.

ينظر: المقري، أحمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج 2. ص: 123.

(2) ضيف، أحمد: بلاغة العرب في الأندلس. ط2. تونس. دار المعارف للطباعة والنشر. 1998. ص: 49.

(3) الشناوي، علي: دراسات في الشعر الأندلسي. ص: 201.

قف بالسَّبيكة وانظر ما بسَاحَتِها عقيلة والكثيبُ الفَـــرْدُ جَاليها

تقلَّدتْ بوِشَاحِ النَّهرِ وابتَسَــمتْ أزهارُها وهي حَلْيُ في تَرَاقِيها[1]

(البسيط)

ومن حدائق بني نصر بغرناطة جنّة العريف، وفيها القصور الجميلة لملوكهم، وينكر ابن زمرك أن يكون هناك ما هو أجمل منها حتى أصبحت غاية في الحسن والجمـال، ممَّـا دفـع الشهب لكي تحسدها عليه، وهي ذات حسن لا يضاهى، وجمال لا يقارن، مما جعل عيون هـذه الشهب تديم النظر إليها. يقول:

لله جـــناتُ العـــريفِ فإنَّـــها فيها المعارفُ والعوارفُ تُصْفِقُ

حَسدتْ بروجُ الأفقِ حُسنَ بروجهِ فالشُّـــهْبُ من حَسَدٍ عليه تُحَلِّقُ

أغرى بها الأحداقَ حسنُ حدائقٍ تركت عيونَ الشُّـهبِ فيها تحدِّق[2]

(الكامل)

ويمضي ابن خاتمة الأنصاري واصفا الرِّياض أثناء الربيع، وهي مكسوة بأجمل حلـة، يهيم المتبتل في ملكوت الله وبديع صنعه، وأصوات الطيور تنتشر بين الأشجار، ويتكرر عنـده ذكر أصوات الطيور، وهي تطلق أجمل ألحانها وفي هذا يقول:

أهلا بأيّامِ الربيـــعِ وطيبِها أنس الخليع ونزهة المُتبتِّـــل

تُذكى بلابلَهُ البلابل لوعـــةً ولـــرُبّ بلبال يهيـــج لُبلبلِ

فالطيرُ تشدو والغديرُ مصفِّق والقضب ترقص والأزاهر تنجلي[3]

(الكامل)

ولم ينسَ شعراء الأندلس خلال وصفهم لتلك الرياض أن يتوقّفوا عند الأنهار التي تمدّ الرّيـاض بالحياة والنماء، فتزيدها جمالاً فوق جمالها، فهذا الحجاج يوسف بن سعيد يصـف نهـر شـنّيل

---

[1] ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 122.
ينظر: المقري، أحمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج 2. ص: 21.
[2] الشناوي، علي: دراسات في الشعر الأندلسي. ص: 225.
[3] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 42.

القريب من غرناطة، وهو ينسلّ بين الوديان كالسيف القاطع، ولكنه لا ينشر دماً، وإنّمـــا وروداً غاية في البهجة والجمال حيث يقول:

وقد سل شَـــــنّيْل فِرِنْداً مهنداً	نضى فوق درٍّ ذُرَّ فيه عقيق
إذا نمَّ منه طيبٌ نشـــــر أراكهُ	أراك فتيت المسك وهو فتيق
ومهما بكى جفن الغمام تبسمت	ثغور أقاح للرياض أنيـــــق[1]

(الطويل)

ت- الزهريات:

وصف الأندلسيون الأزهار، وأكثروا من وصفهم لها،[2] فوصـــفوا الـــورود والنـــرجس وشقائق النعمان والنيلوفر والياسمين والقرنفل واللوز وغيرها مما وقعت عليه عيونهم، ونلاحـــظ أنّ الشعراء أكثروا من وصف الأزهار التي كانت من النوع الذي يعيش في البيوت، وهذا يـــدل على الحياة المنعمة التي عاشها هؤلاء، وقد ترعرعوا بين أروقة القصور التـــي غصـــت بهـــذه الأزهار.

وأكثر هذه الأشعار نراها عند ابن زمرك، فكان من الذين برعوا في وصفها، وأبـــرز مـــا نجده في هذا الوصف رقة التعبير ورهافة الحس.[3]

وقرن ابن زمرك بين جمال محبوبته وجمال القَرَنفُل، حتى أنه يفوق المحبوب جمـــالا، فهو لم ير في حياته أجمل منه، وقد أصبح يزرع تفاؤلا بالحياة، لأنّهُ يقرب بين الأحبة، يقول:

يَقَـــرُّ بعيني أن أرى الزَّهر يانِعاً	وقد نازعَ المحبوبَ في الحُسْنِ وَصْفَهُ
وما أبصرتْ عيني كزهرِ قَرَنْفُل	حكى خَدَّ مَنْ يســــبي الفؤادَ وعَرْفَهُ

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج1. ص: 27.

(2) الدقّاق، عمر: ملامح الشعر الأندلسي. بيروت: منشورات دار الشرق. ص: 256 – 257.

(3) الحمصي، أحمد: ابن زمرك، الغرناطي، سيرته وأدبه. ص: 155.

وفي جبلِ الفتـــحِ اجتَنَبوه تفاؤلاً   بفتح لِبَابِ الوصلِ يَمْنَـــــــحَ عِطْفَه[1]

(الطويل)

والنَّرجس من الأزهار البرية التي نمت في الحدائق والبيوت والقصور، وقد كثرت فـــي متنزّه السبيكة وفيها يقول ابن زمرك:

وأعين النّرجسِ المطلولِ يانعةٌ   ترقرقُ الطلَّ دمعاً في مآقيها

وأفترَّ ثغرُ أقاحٍ من أزاهـــرها   مقبِّـــلا خد وردٍ من نواحيها[2]

(البسيط)

ونرى التشخيص واضحاً في الأبيات، وكأننا نقف أمام فتاةٍ جميلـــةٍ لا نســـتطيع أن نبعـــد نظراتنا عنها، وظهرت براعة الشاعر كونه استطاع أن يرتقي بخيالنا وكأننا نعيش الموقف أمام أعيننا.

وأكثر الشعراء من وصف الورد في قصائدهم، وجعلوه سلطان الزهور، وشبهوا الخدود الجميلة به، يقول ابن زمرك:

الوردُ سلطانُ كلِّ زهرٍ   لو أنه دائـــــمُ الورود

بعد خدودِ الملاحِ شيء   ما أشبه الوردَ بالخدود[3]

(السريع)

استخدم الشاعر كلمة (سلطان) ليصفَ الوردَ، فهو يختلف عن باقي الأزهار كونه أكبـــر حجماً، فكأنّهُ التاج الذي يوضع على رأس الملوك، والأمر الآخر، أنّ لونه يتصـــف بـــالحمرة، ولهذا يشبه الخدود. وهذا يدلّ على براعة الشاعر في ربط الصور داخل اللوحة الفنيّة.

ووصفوا الريحان ولونه الفستقي الذي يريح القلب والعيون، يقول صالح بن يزيد النفزي:

وأخضر فستقي اللون غضٍّ   يروقُ بحسنِ منظرِهِ العُيونا

---

[1] ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 443.

[2] المقري، أحمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 9. ص: 27.

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 282.

أغار على الترُّنج وقد حكاهُ وزادَ على اسـمه ألفاً ونونا[1]

(البسيط)

ث– الثلجيات:

إن من أجمل ما تقع عليه العين رواء وبهجة ومتعة، منظر الثلج وقد كسا الكون غلالة بيضاء نظيفة ناصعة طاهرة، وإذا كان للربيع أثره في النّفس، فإنّ من رأى الثلج ينزل من السماء كالقطن المندوف، ثم رآه على سفوح الجبال، فإنَّهُ يحسُّ بالمتعة التي قد لا توفرها ظلال دوحة أو نسمات روضة، وشعر الثلجيات جاء متأخرا في الأندلس، فلم يعرف قبل القرن الرابع.[2]

وغرناطة من المدن التي كانت تكسوها الثلوج في الشتاء، ولم يستطع ابن زمرك أن يفوّت على نفسه هذه المناظر. يقول:

بسطَ البياضَ كرامةً لقدومـهِ وافترَّ ثغراً عن كرامةِ مُعتني

فالأرضُ جوهرةٌ تلوحُ لمحتَلٍ والدَّوح مَزْهَرَةٌ تَفُوحُ لمُجتِني[3]

(الكامل)

ولعبد الله بن ابراهيم الأزدي ويكنى بابن المرابع، وصف جميل في جبل شُـلَيْر، وقد نزلت عليه الثلوج، فهو كالشيخ الجليل الذي تقدم به العمر، فهو يلبس ملابس بيضاء ناصعة، وهو يصبغ غرناطة بمسحة ظاهرة في جمال الطبيعة. يقول:

وشيخٌ جليلُ القدْرِ قد طالَ عمرُهُ وما عنده علمٌ لطولٍ ولا قِصَرْ

عليهِ لباسُ أبيض باهر السَّـنا وليس بثوب أحكمته يد البشرْ[4]

(الطويل)

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر نفسه ج: 3. ص: 283.

(2) الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه. ص: 329.

(3) ابن زمرك، محمد بن يوسف: الديوان. ص: 120.

ينظر: المقري، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج2. ص: 160.

(4) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 324.

وظهر هذا المعنى عند لسان الدين الخطيب، فيصوره وقد كسي بالثلوج، وكأنــه شــيخ كبير لبس البرنس الأبيض. يقول:

شلير لعمري أساءَ الجِوَارا   وسدَّ عليَّ رحيبَ الفضا
هو الشيخُ أبردُ شيءٍ يُرى   إذا لبس البُرنُسَ الأبيضا[1]

(المتقارب)

وهذه الأبيات تقترب في جوهرها من أبياتٍ لابن خفّاجة، وهو يصف جبلاً حيث يقول:

ألا ربَّ رأسٍ لا تزاوُرَ بينـــهُ   وبينَ أخيهِ والمــزارُ قريبُ
أنافَّ به صلْدُ الصَّفا فهو منبرٌ   وقام على أعلاهُ فهوَ خطيبُ[2]

(الطويل)

فهو يشبه الصخور العالية بالمنبر، والرأسُ فوقها كالخطيب.

ج- المائيات:

ومن مظاهر بذخ الطبيعة في الأندلس، تلك الأنهار الكثيرة الــوفيرة المـــاء، السلســالة التدفق، تحيي موات الأرض مشرقا ومغربا وشمالا وجنوبا، ترفد الأرض بالخصب والعطـــاء، وتمدّ الرياض بالسحر والنماء، وكانت أكبــر المــدن وأهمهـــا مثــل (قرطبــة)، و(اشــبيلية)، و(غرناطة)، تقع على تلك الأنهار، الأمر الذي جعل الأندلسيين يتخذون من ضفافها مراتع لهــو واســتمتاع، ومــن صفحاتها ســاحات أمينة، تســير عليها زوارقهم وهــم يعزفــون ويغنون ويقولون شعرا.[3]

وقد وصفوا صفاء مياه الأنهار وزرقتها، والأزهار التي ترافق ضفافها وكأنها النجــوم التي تزين المجرات. والماء عندهم في عذوبته وصفائه وانسيابه جمان ينساب كأنه سيف سلّ من غمده، يقول صالح بن يزيد النفزي:

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 643.
(2) ابن خفّاجة: الديوان. شرح يوسف فرحات. بيروت: دار الجيل. ص: 35.
(3) الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. ص: 309.

وأزرقَ محفوفٍ بزهرٍ كأنَّـــهُ نجومٌ بأكنافِ المجرَّة تَزْهَـــرْ
يسيلُ على مِثْل الجمانِ مُسَلْسَلاً كما سُلَّ عن غِمْدٍ حُسامٍ مُجَوْهَرْ
وقد صافحَ الأدوَاح من صفحاتِهِ وحتى حَبابٍ بالنَّسيم مُكسَّـــــر[1]

(الطويل)

ولم يخف الشعراء إعجابهم بالبحر، وعظمة الخالق في صنعه، وعدوه أعظم العجائب على الأرض، يقول النفزي:

البحرُ أعظم مما أنت تحسبه من لم ير البحرَ يوماً ما رأى عجبا
طامٍ له حَبَبٌ طافٍ على زَوْرق مثل السماء إذا ما مُلِئت شُهُبا[2]

(البسيط)

2- وصف الطبيعة الحية:

كان نتيجة لطبيعة مملكة غرناطة الجميلة، التي اتسمت بكثرة الرياض والغابات والوديان والجبال، وما صاحبها من انتشار للأنهار، أن انتشرت الحيوانات والطيور فيها، وأسهب الشعراء في وصف هذه الحيوانات، وأكثروا في ذلك، فلا نكاد نجدُ حيوانا مهما صغر أو كبر، إلا وذكروه في أشعارهم، وقد أخذت الخيل نصيبا وافرا في وصفهم، فوصفوا ألوانه المختلفة وإحجامه وقوته في خوض المعارك، فهو أسود كالليل الحالك، وأحمر كالجمر الملتهب، الذي ينطلق مسرعا يوم المعارك، يقول ابن زمرك:

من أشهبٍ كالصّبح يعلو سرجَه صبحٌ به نجم الضلالة يأفلُ
أو أدهمٍ كالليل قُلِّدَ شهبه خاضَ الصباحَ فأثبتته الأرجل
أو أشقر سال النضارُ بعطفه وكساه صبغة بهجةٍ لا تنصل

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 280.
[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 280.

أو أحمر كالجمر أضمر بأسه   بالركض في يوم الحفيظة يشعل[1]

(الكامل)

ولابن الخطيب وصف جميل في الخيل، فهو كغيره من الشعراء يركز على ألوانها ويبين قوتها، غير أنه ذكر صفاتها الجميلة، ونسبها الأصيل، وهي أمور لم ينتبه إليها ابن زمرك، يقول:

فمن أدهم أضفى عليهم مسيحُهُ   رداءً كلوْن البُـــرس أَلْحَفَ زنجيا[2]

عِرابٌ كما تنصاعُ وفُتَخٌ كواسِرٌ   إذا استعجلوها من مرابطها جَرْيَا[3]

(الطويل)

ونرى الخيول قد نالت من اهتمام الشاعر الأندلسي، وحظيت بحرصه عليها وتفاخرِهِ بها وبقوّتها وسرعتها ونجابتها، لما تفجّر لديه من رموز ومعان كثيرة يتشبث بها ويعتزّ بتحقيقها كالبطولة والرجولة والمجد.[4]

ويرى البعض أنّ عناية الأندلسيين بوصف الإبل بعامّة ووصف الناقة بخاصة، وعلـــى النحو المعروف، ربّما يكون عن طريق مشاهدتها في مكان آخر في البلاد التي ارتحلوا إليها في بلاد المغرب وصحاريها.[5]

ولم تغب الطيور بأنواعها المختلفة عن أوصافهم، فهي التي تزين حدائقهم وقصـــورهم، وهي التي تبعث السرور في نفوسهم، فلم يصفوا الرياض إلا والطيور فيها، ولا يغب عنا كثــرة الرياض في غرناطة وما حولها، مما ساعد على ايجاد الجو المناسب لعيش هذه الحيوانات.

---

[1] المقري، أحمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج:9 . ص: 71.

ينظر: ابن زمرك، محمد بن يوسف: الديوان. ص:99.

ينظر: المقري، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج:2. ص: 20.

[2] مسيحه: المسيح هو الذؤابه.

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج : 2. ص: 776.

[4] خضر ، حازم: وصف الحيوان في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة. 1987. ص:29.

[5] شلبي، سعد: أثر البيئة الأندلسية في الشعر. ص: 151.

ومن جملة ما وصفوه من صفاتها، صوتها الجميل العذب الذي يشدو بأطيب الألحان، وترقص أجمل الرقصات، يقول ابن خاتمة في وصف بلبل:

وورديــة الجلْباب أعجــبتها الــوردُ فغنَّت وما بالغانيات لها عهـــــدُ

تريكَ اضطراب الراقصاتِ إذا انثنت وتُســـمِع لحنَ المُسْمِعات إذا تشدو

وســاعدها طــيبُ الهواء وفضـله وفصلُ الربيع الغضُّ والمنزل السَعد(1)

(الطويل)

ومن الحيوانات الغريبة التي وصفوها الزرافة، وقد كانت غريبة عن بلادهم فنظروا إليها بإعجاب، وقد أطالوا في وصفها إلى حد جعلهم يرسمون لها صورة تبدو كأنّها لوحة لم ينس رسّامها جانبا من جوانبها، يقول ابن زمرك:

وآتتكَ يا مَـلِكَ الزمانِ غَرِيبةٌ قَيْدُ النواظِرِ نُزْهَةُ الأبْصَارِ

مَوْشية الأعطاف، رائقة الحُلي رَقَمَتْ بَدَائِعَها يَدُ الأقْـدارِ

راقَ العُيــونَ أديمُهَا، فــكأنَّهُ روضٌ تفتَّح عن شَقِيقِ بَهَارِ(2)

(الكامل)

ووصف الشعراء الحيوانات البحرية، فوصفوا الحوت وألوانه وحجمه، يقول ابن الجياب:

ما حيوان في اسمه إذا اعتبرته فنون

حـــروفه ثلاثــة والكل منها نون(3)

(مجزوء الرجز)

---

(1) ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 123.

(2) ابن زمرك: محمد: الديوان. ص: 52.

ينظر: غومث، إميليو: مع شعراء الأندلس والمتنبي. ترجمة الطاهر أحمد مكي. ط3. القاهرة. دار المعارف. 1983. ص: 177.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج 4. ص: 122.

النون: الحوت. ينظر: الفيروز آبادي، مجد الدين: القاموس المحيط. ط:2. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1987. ص: 1596.

وتبدو الأحجيةُ واضحةً في هذين البيتين، فكلمة الحوت تتألف من حروف ثلاثة، وهي في مجموعها تشكل كلمة النون وهو الحوت.

3- وصف التنزُّه والرَّحَلات:

وهذا الموضوع ظهر عند الشعراء، وسببه تعلقهم بطبيعة بلادهم الغناء، ويبدو أن إعجابهم بالأنهار كان عاليا، ونعني به النزهات البحرية، وكان الشعراء يقومون بها مع رفاقهم، حيث تحملهم القوارب في النهر رائحة غادية، ومعهم أهل الطرب والظرفاء، ومن حولهم الطيور تصدح، والأشجار والأزهار تعبق برائحتها، كل ذلك في جو يبعث في النفس الطرب والطمأنينة، ولأبي المطرف بن عميرة وصف لرحلة نهرية قام بها مع رفاقه في نهر جزيرة شقر، حيث ركبوا زورقا ومعهم شباك الصيد، فقضوا يوما جميلا بين الصيد واللهو. يقول:

وقد امتطينا زورقاً فيه فقل صبح تمشي في سناهُ غيهب

فتراه طوراً طائراً أو لربما ضـّمت جناحاه إليه فيجنب[1]

(الطويل)

وكان هذا اللون الطريف- وصف الرحلات والنزهات البحرية – مما أوحت به بيئة الأندلس، وما كان فيها من وفرة المياه والجداول والأنهار، وقد أكثر الشعراء منه، مما يدلُّ أنه تأصل كموضوع بارز في شعر الطبيعة في عصر الموحدين.[2]

ومع انتشار الغابات والرياض، ووجود الكثير من الحيوانات والطيور، برزت رياضة صيد الحيوانات، وكان يقوم بها الملوك بمرافقة الوزراء والشعراء وأصحاب الحظوة عندهم، وكان للشعراء دور في وصف هذه الرحلات التي يخرجون فيها من أجل هذا الهدف، فيصفون ما يرافقها من أحداث ومغامرات، وكانوا يظهرون براعة الملوك في الصيد بقصد التقرّب إليهم.

---

(1) عيسى، فوزي: دراسات في أدب المغرب والأندلس. ص: 14.

(2) عيسى، فوزي: المرجع نفسه. ص: 15.

ومن الحيوانات التي كانوا يصطادونها الأرانب التي كانت تحاول النجاة بنفسها، ولكـنَّهم كانوا يجرون وراءها الخيل مسرعة، فلا تستطيع الإفلات منهم، ولإبن زمرك أبيات في وصف رحلة صيد ، يقول:

أتبعتُها غـــرَرَ الجياد كواكباً	تنقضُّ رجماً في سماء غُبار
والهادياتُ يؤمّها عبلُ الشَّوى	متدفـــقْ كتدفــق التيّار
أزجَيْتَها شــقراء رائقةً الحلى	فرميْتَه منها بشـــعلة نار
طفقـــت أرانبُه غداة أثرْتها	تبغي الفرارِ ولاتِ حين فرارِ[1]

(الكامل)

واللافت للنظر، أنّ ابن زمرك يعطينا إشارات إلى أنّ العرب قد عرفـوا البـارود فـي الصيد، وظهر هذا في قولهِ: "فرميتهُ منها بشعلةِ نار"، "طفقت أرانبه غداة أثرتها"، وربما جاءت هذه الإثارة من صوت انفجار البارود. والذي يقودني إلى هذا الاعتقاد ما جاء عند الدكتور سعيد عاشور حيث يقول: انتشرت الأسلحة النارية، واستخدم البارود في تلك الحقبة من الزمن. وقـد استخدمه الإسبان في حروبهم ضد المسلمين، وكان هذا من أسباب سقوط حصـن لوشـة سـنة 1486م، وسقوط مالقة نتيجة لوضع الألغام تحت أسوارها سنة 1488م.[2]

ثانياً: وصف المعارك:

لا عجب في أن يكون لوصف المعارك نصيب وافر من الشعر الأندلسي، فإنّ الحـروب بين المسلمين وأعدائهم لم تنقطع، ولم تهدأ الحرب إلا لتشن أخرى، ولهذا حفلت مدائح الملـوك والأمراء بذكر المعارك والجيوش.[3]

ومن طبيعة المعارك البحرية أن يخوضها الأسطول مجتمعا بكل سفنه ، أو متفرقا تبعـا لطبيعة المعركة، ولم يتخلف ابن الخطيب عن وصف معارك الأسطول الأندلسي ، والحق أنـه

---

(1) ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 55.

(2) عاشور، سعيد: محاضرات في التاريخ العباسي والأندلسي. بيروت: منشورات جامعة بيروت العربية. 1975. ص: 541.

(3) الركابي، جودت: في الأدب الأندلسي. ص: 120.

عاش مرحلة الإحتضار السياسي والإنحسار الحضاري الإسلامي في الأندلس.[1] ولإبن الخطيب قصيدة يصف فيها الأسطول الأندلسي وخوضه هذه المعارك. يقول :

هنَّ الجواري المنشآت وقد غدتْ   تختالُ في برد الشـــبابِ وترفُلُ
مــــن كـــلِّ طائرةٍ كأنَّ جناحَها   وهو الشراعُ به الفِراخُ تظلَّلُ
جَوْفاءُ يحملُها ومـــن حَمَلَتْ به   مَــــنْ يَعْلَمُ الأنثى ومَا تَحْمِلُ[2]

(الكامل)

والبيت الأخير فيه إشارةٌ إلى قوله تعالى "الله يعلمُ ما تحملُ كلٌّ أنثى وما تغيض الأرحام".[3]

ولعبد الله بن رضوان البخاري أبيات يبين فيها حالة العدو وخوفه عند رؤيـــة أســـطول المسلمين، وقد جّهزه السلطان يوسف بن اسماعيل بن فرج النصري. يقول:

ولما اســـتقامت بالزقاق اساطيـــ   لُ ثم اســـتقلَّتْ للسُّعود محافلا
رآها عـــــدو الله فانفضَّ جمعه   وأبصــــر أمواج البحار أساطلا
ومِنْ دَهَشٍ ظنَّ السواحلَ أبحُراً   ومن رُعُبٍ خالَ البحار سواحلا[4]

(الطويل)

ويصف ابن زمرك حركة السفن، وهي تجوب البحار كأنها تحمل أجنحة تطير بها، فهي تسبق البصر، ويشبهها أثناء تدافعها فوق الأمواج، وكأنها الخيول التي تسابق داخـــل مضـــمار السباق، يقول:

أركَبْتَهُ في المنشــــآتِ كأنّما   جَهَّزته في وُجْهَةٍ لِمَـــــــزارِ
من كلّ خافِقةِ الشراعِ مُصفِّق   منها الجناحُ تطيرُ كـــلَّ مَطارِ

---

[1] الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه. ص: 487.
[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 500.
[3] سورة الرعد. آية 8.
[4] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 339.

مثلَ الجِيادِ تدافعتْ وتسابقتْ   من طافحِ الأمواجِ في مِضْمَارِ[1]

(الكامل)

ونلاحظ أن وصف المعارك البحرية، قد ازدهر منذ أيام محمد الفقيه، إذ بـــدأت مشـــكلة النزاع على مضيق جبل طارق تأخذ شكلها الحازم، لأن كلا من مملكة غرناطه، ومملكة قشتاله، وسلطنة بني مرين، ومملكة أرغون، ثم الجمهوريات الإيطالية، تنبهت لأهميَّة ذلك المضيق.[2]

---

[1] المقري، أحمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 2. ص: 29.

[2] مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس. ص: 385.

ينظر: العبادي، أحمد: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس. ص: 393.

المبحث الثاني: الحماسة

لم يكد يبدأ حكم بني الأحمر، حتى دهمت البلاد الأزمات السياسية، واشتدّ النــزاع بــين أمرائهم، وكان كلّ حزب يسيء إلى الآخر، ويسعى لهدمه من أجل تحقيــق مآربــه وأطماعــه، وسادت البلاد حالة من الفوضى، وفي ظلّ هذه الظروف، تنبه الإسبان إلى حالة الضعف التــي سادت عموم البلاد، فأخذوا يعدون العدة لإستعادة بلاد أجدادهم من أيدي المسلمين، فأعدّوا لهم ما استطاعوا من القوة التي تدعمها أوروبا المسيحية، وجاءت حروب الإسبان منظمة تنظيما دقيقا، تقابلها حالة الفوضى وعدم التنظيم عند المسلمين، كل هذا أدّى إلى تتابع سقوط المدن. وفي هذا يقول الملك يوسف الثالث:

إنّ النصارى قد تجمّع شملُها   فعسى ببأسِ سيوفِكم تتبدَّدُ
وتروعهم منكم سيوفُ حمايةٍ   يجلو دُجاها يوسُف ومحمد[1]

(الكامل)

ونلاحظ أنّهُ استخدم حرف التوكيد (إنّ)، ليؤكد الخبر للسّامع ، ممّا يزيد الأمر يقيناً فــي نفسهِ، وينتقل الانفعال على نحو أسرع وبعمق أكبر لديه.[2]

ولم يمض غير وقت قليل حتى أجلوا العرب عن كثير من تلك البلاد، ورفعوا نواقيســهم فوق مآذنها، وألحقوا بهم من الوهن ما لا قبل لهم به، ولا قدرة لهم عليه، كل ذلك أثّر في نفوس شعرائهم، فحملهم على إرسال بالغ القول ومؤثر الشّعر، يستنصرون به من يتوسّمون فيه النجدة وتلبية النداء والغضب لما حل بالإسلام وأصاب حماه، وما نــزل بأهلــه مــن الجهــد والأذى، ويحرّضونهم على ذلك مستثيرين شعورهم بتعداد المصائب التي طوقتهم، وذكر ما طمس مــن معالم الشريعة وما تعطّل من السّنن، وما فُعل برجالهم ونسائهم وبنــيهم وبنــاتهم، ممــا يــدمي القلوب، ويفتت الأكباد وتذهب النّفس حسرات عليه.[3]

---

(1) يوسف الثالث: الديوان. ص: 53.

ينظر: أرسلان، شكيب: خلاصة تاريخ الأندلس. ص: 72.

(2) الداية، فايز: جماليات الأسلوب (علم المعاني). حلب: منشورات جامعة حلب. 1989. ص: 38.

(3) عيسى، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 151.

ولعل تتابع سقوط المدن بيد الإسبان، قد أعاد إلى شعر الحماسة عافيته، وبسقوطها بيد ملوك الشمال، ظلّ قليل من الشعراء متشبثين بفكرة المقاومة والجهاد المقدس، وذلك للحفاظ على مملكة غرناطة، تلك البقعة الصغيرة المتبقية من صروح الأندلس وأحجارها الغابرة.[1]

ولا نعرف في الأندلس شعراء من الفرسان يخوضون معامع القتال، ويذكرون بلاءهم في مواقف الأهوال، وإنّما نعرف شعراء مدّاحين وصفوا شجاعة ممدوحيهم ومعاركهم، وحضّوهم على الجهاد، فكانوا أشبه بالمصورين يرسمون مشاهد الحرب، ولا يُصْلون نارها، لذلك لم يرتفع شأن الشّعر الحماسي عندهم، لأنّ هذا الفنَّ لا تقوم له قائمة إلا في مواطن الشعراء المغاوير.[2]

ولكنّهم برعوا فيه براعة ملحوظة، ونبغوا فيه نبوغا واضحا، وأضافوا به إلى التراث الأدبي رصيدا ضخما من حقه أن يجعلَ لهم الفضل على لغة الضاد، بما أحدثوه في أساليب البيان من طرق التصوير والتعبير. وكانوا يبعثون به إلى ملوك المشرق وسلاطينهِ يطلبون منهم أن يمدّوا إليهم يد العون على دفع الخطر الداهم الذي يواجههم، أو الشر المقبل الذي يتهددهم، جراء تلك الغارات المتتابعة التي يشنها عليهم أعداؤهم من الإسبان.[3]

وحتى يتأكد تأثير الاستصراخ في النّفوس، كان لا بدّ للشاعر من أن ينقل بعضا من مشاهد الظلم والقسوة التي وقعت على مواطنيه، ويربط تلك المشاهد بالغَيرَة الدينية؛ لأنَّها كانت الأقرب إلى النفوس آنذاك.[4]

فهم يربطون بين الهزيمة التي حلّت بالإسلام والمسلمين، والنتائج التي انطوت عليها، ويتجلى ذلك في تحويل المساجد إلى كنائس، وضياع الصلوات، ووقوع الأسرى في يد الأعداء، يقول عمر بن المرابط في قصيدة نظمها على لسان سلطانه ابن الأحمر، ويتوجه بها إلى السلطان يعقوب المريني، الذي كان قد هرع لنجدة الأندلس عام 674 هـ:

---

(1) الطويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي ص: 25.

(2) البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الإنبعاث. ج: 3. ص: 59.

(3) أبو الخشب، ابراهيم: تاريخ الأدب العربي في الأندلس. ص: 215-216.

(4) عيد، يوسف: الشعر الأندلسي وصدى النكبات: ص: 39.

من ذا يُطهِّر نَفْســه بعزيمة مشحوذة في نصر دينِ محمّد
كم جامعٍ فيها أُعيدَ كنيســةً فاهْلِك عليه أسـىً فلا تتجلد
أسفاً عليها أقفرت صلواتُها من قانتين وراكعين وســجَّد[1]

(السريع)

ومع تراجع نفوذ المسلمين، أخذ الشعور بالخوف يتنامى عند الشعراء، ممّا دفعهم لأن يحركوا الضمائرَ من أجلِ الحفاظِ على ذلك الوطن الصغير المتبقي، وبات على الشاعر الملتزم ألا تخمدَ جذوةُ كلمته، وهكذا اتَّجهوا إليهم لكي يقدموا المساعدة لإخوانهم. وخير من مثَّل هذا الدور لسان الدين بن الخطيب، فشعره غزير في هذا الميدان، ومن ذلك قوله أثناء محاصرة الإسبان لبعض ثغور غرناطة، وهو يستنجد ببني مرين، مبينا لهم أنّ هؤلاء أخذوا يستولون على المدن تباعا، مما أدّى إلى تراجع الإيمان أمام الكفر، فهو بهذا يحثهم على النهوض من أجل إحقاق الحقِّ ونصرة الدين. يقول:

أإخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا فقد كاد نورُ اللهِ بالكفرِ أن يُطْفا
تحَكَّم في سكان أندلــس العِدى فلَهْفاً على الإسلام ما بينهم لهفا
وجاستْ جيوشُ الكفرِ بين حلالِها فلا حافرا أبقــتْ عليها ولا ظَلْفَا
فقوموا برسمِ الحقِ فيها فقد عَفَا وهُبّوا لنصر الدينِ فيها فقد أشفى[2]

(الطويل)

واستخدم الشاعر حرف النداء (الهمزة) وهو لنداء القريب؛ لينزِلَ بني مرين منزلة القريب، إشارة إلى قربهم من قلوب إخوانهم في الأندلس وحضورهم في أذهانهم، فهو بهذا ينادي بوحدة المسلمين.[3]

---

[1] ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون. ج:7. ص: 194.
ينظر: عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 420.
[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 677.
[3] عتيق، عبد العزيز: علم المعاني. بيروت: دار النهضة العربية. 1972. ص: 126.

ونجد في أبيات الملك يوسف الثالث ما يدلُّ على أنَّ الشعراء قد حرصوا علـــى إثـــارة المشاعر الدينية، مضمنين هذه الأبيات إشارات تدل دلالة واضحة على الصراع الذي يدور بين الكفر والإيمان، يقول:

معاذ من كتبَ الحسنى لأندلـــس　　　من أن يجوسَ عدوُ الدِّين أندلسا
مُستعصمُ الدينِ ما كانت فوارسُه　　　يوما ليترك حزب الكفرِ مُفترسا
كم أثبتوا قدما كم جدّلوا صــــنما　　　كم شيدوا للمعالي أربُعا دُرُســـا[(1)]

(البسيط)

وحاول الشعراء إعادة الأذهان إلى أمجاد العرب المسلمين وبطولاتهم في بدايات الدعوة المحمدية، والتذكير بالغزوات التي خاضها الرسول، وأظهر فيها المســلمون شــجاعة منقطعــة النظير، كغزوة بدر وأحد، كلُّ هذا جاء من أجل رفع الروح المعنوية عند المسلمين، يقول ابـــن زمرك واصفا الجيش النصري:

يا آلَ نصر أنتم سُرُج الهدى　　　في كلِّ خطبٍ قد تجَّهم مُظْلَم
الفاتحون لكلِّ صعب مقفــل　　　والفارجون لكلِّ خطب مُبْهَم
سل عنهم أحُداً وبدراً تلقهم　　　بلواء خير الخلقِ مـــن متقدّمِ[(2)]

(الكامل)

ولعبت المرأة دورا مهماً في استثارة الحماسة لدى العامة من الناس، ويأتي هذا الـــدور كونها تشكل عنوانا يتّسم بالحساسية عند الإنسان العربي المسلم، لأنّها تعني بالنسبة له الشـــرف والكرامة، وانتهاك الأعراض عند المسلمين أمر تعتصر له القلوب، وتهتز له الأبدان، ووقوعهـــا في الأسر يجعلها عرضة للاغتصاب والاعتداء، وهو أمر ألهب مشاعر الشعراء قديما وحديثا،[(3)] ممّا جعلهم يكررون صور المأساه في أشعارهم، ويبين لنا أبو البقاء الرّندي حجم المأساه التـــي

---

(1) يوسف الثالث: الديوان. ص. : 154.
(2) ابن زمرك الغرناطي، محمد: الديوان. ص: 112.
ينظر: المقري، أحمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج:9. ص: 42.
ينظر: المقري: أحمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 2. ص: 63.
(3) على نحو ما جرى للمسلمين في بلاد البوسنة والهرسك والعراق من حوادث قتل واغتصاب جرت لنساء المسلمين.

حلّت بالمسلمين، محاولا أن يستميل القلوب من أجل إغاثة هؤلاء ورفع الظلم عنهم، ويبيِّن ما أصاب نساءهم من سبي وامتهان أثناء الأسر، فهم لم يفرقوا بين الأطفال والشيوخ، ولعلّ ما يدمي العيون، تلك الطَفْلَة، وهي فتاة جميلة كالبدر، وما زالت في مقتبل العمر، وصورتها وهي تساق بوحشية لممارسة البغاء وهي مرغمة، يقول:

وطَفْلَةٍ مثلَ حسن الشمس إذ طلعت   كأنَّما هـي ياقوتٌ ومَرْجانُ

يقودها العِلجُ للمكروهِ مُكـرهةً   والعيـن باكيةٌ والقلبُ حيرانُ

لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمـدٍ   إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ[1]

(البسيط)

ولم يقف شعراء الأندلس عند استنصار الملوك، واستنجادهم وطلب معونتهم، بل تجاوزوا ذلك إلى الاستنجاد بالرسول الكريم والأولياء والفزع إلى الصالحين، وهم بذلك يتوسلون بهم إلى الله تعالى، رجاء أن يصرف العدو عن بلادهم، ويعيد إليها عزها ورفعتها، يقول لسان الدين ابن الخطيب موجها الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، مستنجدا به، ومتوسلاً إليه:

ألا يا رسولَ اللهِ ناداك ضارعٌ   على البُعد محفوظُ الودادِ سليمهُ

أيجهرُ بالشكوى وأنتَ سميعهُ   أيُعْلِـنُ بالنجوى وأنتَ عليمهُ[2]

(الطويل)

ومن موضوعات شعر الحماسة، إظهار شجاعة المقاتل الأندلسي وبراعته أثناء المعارك، والبطولات التي يقوم بها أثناء القتال، يقول الفقيه الحاج محمد بن محمد بن الشديد أثناء مدحه للأمير أبي الحجاج يوسف بن اسماعيل:

لنا الأيدي الطّوال بكلِّ ضربٍ   يهزُّ به لدى الرَّوع الحسامُ

ونحن اللابسـون لكلِّ درعٍ   يصيبُ السُّمْرَ منهن انثِلامُ

---

[1] المقري، أحمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 5. ص: 375.

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 549–550.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب علالة الإغتراب. ص: 123–124،

ينظر: أبو الخشب ، ابراهيم: تاريخ الأدب العربي في الأندلس. ص: 220–221.

ينظر: عيسى، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 154.

بأندلـــــــس لنا أيَّامُ حـــربٍ مواقعهـــن في الدنيا عظامُ
ثوى منها القلوب الروم خوفٌ يُخَوَّفُ منه في المهد الغُلامُ
حمينا جانـــب الدّيـــن احتسابا فها هـــو لا يُهان ولا يُضَام[1]

(الوافر)

وإذا ما نظرنا إلى ألفاظ وتراكيب هذه الأبيات فإنّنا نجد أن الشاعر قد استخدم ألفاظاً تدل على القوة التي ترهب الأعداء كقوله: "الأيدي الطوال، نحن اللابســون لكــلّ درعٍ، لنـــا أيّـــام حرب..." ولعلّ هذه الألفاظ أصبحت سمةً عامة نلحظها في أشعار الحماسة.

ولجأ الشعراء إلى استثارة العزائم في الصراعات السياسية، التي تدور بين الأمراء مـــن أجل تحقيق مكاسب خاصة لهم، كاسترجاع ملك ضائع، على نحو ما فعل ابن الخطيب عندما لجأ إلى أبي سالم المريني، يستحثه على تقديم العون إلى السلطان الغني بالله. يقول:

قصدناك يا خيرَ الملوكِ على النوى لتنصفنا ممَّا جنى عبدُكَ الدهرُ
كففنا بـــــكَ الأيامَ عـــــن غُلوائها وقد رأينا منها التعسُّفَ والكبرُ
وعُذنا بذاك المجدِ فانصرمَ الرّدى ولُذنا بذاك العزمِ فانهزمَ الذعرُ[2]

(الطويل)

واستمرَّ هذا النوع من الشعر حتى بعد سقوط غرناطة، على نحو ما رأينا فـــي رســـالة للشريف العقيلي، وهو آخر وزراء بني الأحمر، يطلب فيها من سلطان المغرب أن يقبل الملـــك أبا عبد الله الصغير، وهو آخر ملوك غرناطة. ويقول فيها:

مولى ملوكِ العـــــــربِ والعجمِ رعياً لما مثلهُ يرعى من الذِّمم

---

[1] ابن الأحمر، اسماعيل بن يوسف: نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان. ص: 197.
[2] ابن الخطيب: لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 415.
ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: تاريخ اسبانية الإسلامية أو كتاب أعلام الإعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام. ص: 313.

بك استجرنا وأنتَ نعمَ الجارُ لِمنْ جار الزمانُ عليه جَــوْر منتقم[1]

(البسيط)

وإذا ما نظرنا إلى الظروف التي جاء فيها شعر الحماســة، فســوف نجــد أنّ أكثرهــا سياسية، حيث توجت بدعوات متلاحقه للوقوف في وجه الزحف الذي قام بــه الإســبان ضــد الممالك الإسلامية، ولم يترك الشعراء وسيلة إلا استخدموها، ظنا منهم أنّها قد تغير من واقعهــم المتردي، والذي وصلوا إِليه بسبب تناسيهم أنّ هناك عدواً يتربص بهم.

(1) المقري، أحمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج: 5. ص: 410.
ينظر: الملاح: ياسر: من الفجر إلى الغروب، قصة الأدب العربي في الأندلس. ص: 263.
ينظر: خفاجي، محمد عبد المنعم: الأدب الأندلسي، التطور والتجديد. ص: 377.

المبـــحـــث الثـــالـــــث: الفـــخـــــــــــر

غرض الفخر غرض غنائي قديم قدم الشعر ذاته، وقد نظم فيه كثيـــر مـــن الشـــعراء، فأسبغوا على أنفسهم الكثير من الصفات الحسنة، والمزايا الفاضلة نفسها، التي كانوا يســـبغونها على ممدوحيهم، وقد تراوح الفخر بين القصيدة والقطعة والبيت الواحد، يأتي به الشاعر مستقلا، أو ضمن أبيات نظمها في غرض آخر.[1]

ونستطيع أن نقول : إنَّ هذا الفن قد لازم المديح في أكثر مواطنه التي قيل فيها، فلا نكاد نسمع قصيدة بدأها شاعر بالفخر دون المديح، فالهدف واحد، وهو نيل رضى الممدوح، والغايـــة منها الحصول على أمر يريده هو، فلا يكاد يبدأ بالمديح حتى يخرج إلى الفخر. وتنوعت غاياته وأهدافه، فجاء الفخر بالنسب ، والفخر بالخصال الحميدة التي يتمتع بها الممدوحون.

والإنسان العربي كعادته يسير على نهج من سبقوه من أجداده، فقد كـــان دائـــم الفخـــر بالمكارم والأخلاق ، فهما يولدان معه. يقول ابن زمرك:

أَلائمةً في الجودِ والجودُ شيمتي   جلبتُ على آثارها يومَ مَوْلِدي
ذَريني فلو أُخـــــلِّد بالغـــــنى   لكنتُ ضنيناً بالذي ملَكَت يدي[2]

(الطويل)

وقد ورد الفخر بالمحافظه على العرض وعدم النظر إلى عورات الناس، وهذا ظهر عند الكثير من الشعراء، فهم يغضون الطرف إذا ما بدت المحرمات من النساء، وهم حريصون على هذا، يقول محمد بن أحمد جزي الكلبي:

وكم من صفحةٍ كالشـــــمس تبدو   فيُسْـــلي حسنُها قلبَ الحزين

---

[1] المقري، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض . ج: ح. ص 10.
ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: ح. ص: 203.
ينظر: المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج: 5. ص: 17.
[2] المقري: أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: ح. ص 10.
ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة ج: 2. ص: 203.
ينظر: المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 5 ص: 17.

غضضتُ الطرْفَ من نظري إليها   محافظةً على عِرْضي وديني[1]

(الوافر)

وأكثر الشعراء من الفخر بالنفس والاعتداد بها، وهي سمةٌ من سمات الفخر في الشعر العربي ولاسيما الفخر الذي ظهر عند الملوك، وبدا هذا الغرض من الفخر واضحا في أشعار ملك غرناطة يوسف الثالث، فقد جمع بين خصال ثلاث، هي الشجاعة والكرم والوفاء. يقول:

أنا الهمامُ الذي تُخشى عزائمه   في الحربِ أن كتَّب الأجنادَ أو كتبا

أنا الإمامُ الذي تُرجى مكارمه   لله منها خِلالٌ فاقت السُّحبا

لنا الوفاءُ الذي تأبى مكارمنا   أن تسترد من الإفضال ما وهبا[2]

(البسيط)

ويأتي استخدام الشاعر للضمير المكرّر (أنا) ليدلّ على مسمى قريب ويبيّن حقيقتهُ، فيجعلهُ كأنّهُ مشاهد حاضر للعيان.[3]

وجاء الفخر بالنسب ليدل على أصالة العرق الذي ينتمي إليه الممدوح، والفخر بالأجداد ظاهرة تناولها الشعراء لبيان المكانة الرفيعة التي ينتمون إليها، والنسب هو ارتباط أبناء القبيلة كلّها بنسب واحد، وبصلب جدّ واحد، ومنه انحدر أفراد القبيلة.[4] ونرى ابن زمرك يفاخر بنسب ابن الأحمر، الذي يعود إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة من الأنصار،[5] وهؤلاء الذين نصروا الرسول وآزروه في دعوته وحروبه ضد المشركين. يقول:

فإذا الملوك تفاخرت بأجدادها   فلأنت أحفى بالجهاد وأحفل

يابن الإمامِ ابن امامِ ابن الاما   مِ ابن الإمامِ، وقدرها لا يجهل

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص 13.
ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة. ص: 47.
(2) كنون، عبد الله: ديوان ملك غرناطة. ج: 4. ص: 13.
(3) الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص: 45.
(4) الناطور، شحادة: مدخل على تاريخ الحضارة العربية والإسلامية. ط1. اربد: دار الأمل. 1989. ص: 56.
(5) الوائلي، عبد الحكيم: موسوعة قبائل العرب. ج:1. ط:1. الأردن: دار أسامة. 2002. ص: 27.

آباؤك الأنصار تلك شـــعارهم		فلحيِّهم آوى النبي المرســـــل[1]

(الكامل)

ولجأ ابن زمرك إلى التكرار في أبياتهِ ليؤكد على أصالة النسب الذي ينتمي إليه ابن الأحمر.

وتفاخروا بأنّهم يحافظون على الدين ويذودون عن حياضه، وجاء هــذا فـــي ظـــروف سياسيةٍ صعبة عصفت بالدولة الإسلامية، والتي واكبها ضياع الكثير من المدن، يقول لسان الدين ابن الخطيب مخاطبا آل نصر:

آثاركم في الدين غير خَفِيـــــــةٍ		تروى على مر الزمان وتنقل

أو لستم الشّهبُ الأولى ما غيَّروا		من بعـــدِ بُعْد نبيهم أو بدلوا[2]

(الكامل)

والأندلسيون جزء لا ينفصل عن إخوانهم من المشارقة، وهم لا يقلّون عـــنهم فصـــاحة وبياناً، ونرى شعراءهم يتفاخرون بفصاحتهم، يقول ابن الجياب:

مما عدِمت أهل البلاغة والحجا		يقيمون فيها الرســـــم للدين والدُّنيا

إذا خطبوا قاموا بكـــــلِّ بليغةٍ		تجلِّي القلوب الغُلف والأعين العُمْيا[3]

(الطويل)

ويضيف المقري قائلا: لقد صدق قائل هذه الأبيات، فإنّ البلاغة لم تزل شمسها بالأندلس باهرة الإياة[4] ظاهرة الآيات، إلى أن استولى عليها العدو، وعطَّل من أهلِ الإسلام الرواح إليها والغدو، وفي أهلها بقية لسان ويراعة.[5]

---

[1] المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 9. 67. ج:2.
ينظر: المقري، احمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 2. ص: 115
ينظر: ابن زمرك الغرناطي: محمد. الديوان. ص: 96.
[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. ص: 502.
[3] المقري، احمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي. ج: 1. ص: 115.
[4] الإياة: الضوء.
أنظـــر: المقّري، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عيّاض. ص: 115.
[5] المقري، احمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ص: 115-116.

وإذا ما نظرنا إلى شعر الفخر عندهم، فإنّنا نرى أنّه انصــبّ علــى أمــور اســتخدمها الشعراء من قبل، كالفخر والشجاعة والكرم وغير ذلك. ولكنّهم أكثروا مــن الفخــر بالنســب، وخصوصا ما يتعلق بآل نصر الذين يمتدون في جذورهم إلى الصحابي الجليل سعد بن عبــادة رضي الله عنه، ونظن أنَّ الغاية في ذلك، هي أن يتمسك عامة الناس بملوكهم من بني الأحمــر، بحكــم أنهم يدافعــون عــن الديــن في واقــع تميــز بتنامي الدعــوات لإخــراج العـــرب المســلمين من الأندلس.

المبحـــــث الـــــرابع: الــرثـــاء

ويقال له التأبين أيضا، وإذا كان المدح هو الثَّناء على الشخص في حياته، فإن الرثاء أو التأبين هو الثناء على الشخص بعد موته، وتعداد مآثره، والتعبير عن الفجيعـــة شـــعرا، وشـــعر الرثاء إنما يقال وفاءً، والشاعر يقضي بقوله حقوقا سلفت، ويبدي من التفجُّع والحســرة والألــم والإستعظام ما يدل على حجم المأساة التي حلّت عليه، فيذكر صفات المرثي مبللة بالدموع.[1]

وإذا ما نظرنا إلى هذا الموضوع، باعتبار أنّ المرثي هو الأساس فيه، فإنّنا نجد نوعا جديدا من الرّثاء قد ظهر في العصر الأندلسي، وازدهر في عصر بني الأحمر، وهو رثـــاء المـــدن، فالحبيب الذي فُقِدَ هنا هو الوطن، وهذا جاء بسبب تفرق المسلمين وضـــياع كلمـــتهم، وتراجـــع بداياته منذ سقوط مدينة طليطلة، وهي أول مدينة يستعيدها النصارى سنة 478هجري.[2]

والرّثاء في ذاته لم يكن جديدا على الشعر العربي، وهو نوعٌ من الألم لحبيب ارتحل، أما البكاء على الطلل، والدموع على غير الصديق، أو أهل أو قريب، أمر يلفــت النظـــر، ويثيـــر العجب، ويدعو إلى الغرابة، وقد كان لذلك السلطان الذي كان للمسلمين في تلك الـــبلاد ولتلـــك الدولة التي قامت هناك قداسة واحترام، وغبطة وابتهاج، ولأنّه كان مجـــدا للعروبـــة وحصـــنا للإسلام وقوة للدفاع عن الدين إذا داهمه العدو، ولذا، فقد أرغمهم خصوم دينهم أن يتراجعوا عن ذلك المجد، ويرفعوا أيديهم عن تلك البقعة من الأرض، وكان لهذا الهدف فـــي نفوســـهم وقـــع الصواعق، وفعل السلاح، فلم تسعفهم إلا تلك الدموع الحارة يذرفونها، وتلك الصيحات الحزينـــة يرسلونها، وتلك القصائد الطنانة يقولونها، لعلَّها تخفف من آلامهم.[3]

والأندلسيون لا يختلفون في مراثيهم عن المشارقة في رثاء الميت والتفجّع عليه، بيد أنَّهم تفوقوا في رثاء الممالك البائدة، لما في نفوسهم من محبة صادقة لهذا الوطن، فكان يشـــجوهم أن يروا بلادهم تسقط بلدا إثر بلد في أيدي الغرباء، ويعتبر رثاء المدن من المراثي السياسية، ولهذا

---

(1) عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 194.

(2) بسبح، أحمد: لسان الدين بن الخطيب، عصرهُ، بيئتهُ، حياتهُ وآثارهُ. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1994. ص:17.

(3) أبو الخشب، ابراهيم: تاريخ الأدب العربي في الأندلس. ص: 207.

اللون الشعري اتجاهان، اتجاه يقف وسطا بين البكاء والاستنجاد، فهو سلبي ذو نفس انهزامـــي، وهؤلاء صوروا شعور مواطنيهم وعبروا عنه بالدمع أحيانا، وبالدمع والاستنجاد أحيانا أخـــرى، إلا أن معظمهم مالوا إلى البكاء وذرف الدموع على الأطلال. وهناك اتجاه وقف موقفا ايجابيـــا تمثل بحثٍّ الشعب الأندلسي على مقاومة العدوان والاستبسال بالذود عن الوطن، لأنَّهم رأوا فـــي المأســـاة قضاء على الكـــثير منهم، من خلال المذابح والمجازر التي حلت بهم، ومساً لأرضهم التي أحبوها.[1]

وجاءت ثورة هذا الشعر يوم سقوط إِشبيلية بيد الإسبان في العام 646هـــ، حيث دَّبـــت موجةٌ من الغضب في صدور معظم الشعراء، ورافقهم في هذا شعورهم بفقدان الأمـــل بقـــدرة الحكام على الصمود واسترجاع المدن الضائعة، وبدا هذا واضحا عند أبي البقاء الرندي.

فهو يصف ما حل بديار الإسلام، فقد تبدل الكفر بالإيمـــان، وحلـــت الكنـــائس مكـــان المساجد، حيث يقول:

تبكي الحنيفية البيضاء من أســـــف	كما بكى لِفراق الإلف هَيْمان
على ديار الإســــــــــلام خاليـــةٍ	قد أقفرت ولها بالكفرِ عُمْران
حيثُ المساجدُ قد صارت كنائس ما	فيهنّ إلا نواقيسٌ وصُـــــلبان[2]

(البسيط)

وأكثر الشعراء في رثائهم للمدن من استخدام التركيب الفعلي الذي ارتكز على الفعلـــين الماضي والمضارع (تبكي، بكى) (أقفرت) ليدل على التجديد والتبديل في الحال،[3] فليس هنـــاك ما هو ثابتٌ في هذه الحياة، فليس هناك سرور دائم، أو حزن أبدي.

(1) طويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ص: 206.

(2) المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 5. ص: 374.

(3) الداية ، فايز : جماليات الأسلوب . ص : 81 .

ونرى أن بكاء الشاعر جاء مصحوبا بدعوات الاستنجاد الممزوجة بالعتاب والتقريع والتوبيخ لمن يرى حال الأندلس، ولكنَّه يبقى ساكنا دون حراك، ولعلّه قصد في هذا ملوك المغرب من بني مرين، فهو يدعوهم لنصرة إخوانهم في الدين. يقول:

ماذا التقاطعُ في الإسلامِ بينكُم وأنتم يا عبادَ اللهِ إخوان

ألا نفوسٌ أبيات لها هممٌ أما على الخير أنصارُ وأعوان[1]

(البسيط)

واستطاع الشاعر من خلال هذه الأبيات، أن يبيّن سبب هزيمة المسلمين، و تتلخص في فرقتهم. وهو في نفس الوقت يوجد الحلول المناسبة، والتي تكمن في الوحدة الإسلامية.

ولهذا حاول الشعراء في مراثيهم أن يثيروا العاطفة الدينية عند عامة الشعب، لكي يستنهضوا الهمم في نفوسهم، فهي تجمع المسلمين باختلاف عروقهم من عرب وبربر وغيرهم، ولهذا جاءت الصورة مكررة وتكاد تكون واحدة، وهي صورة تحويل المسجد إلى كنيسة، وإبدال الأجراس بالمآذن ، ومنهم من أراد أن يعطي الصورة نوعا من المشاهد المؤثرة، والتي تدل على حجم المصاب الذي حلَّ بالمسلمين، ويعبِّر عن بالغ الحزن لما جرى لهذه المساجد، ويريد من هذا أن يظهر للمسلمين مدى الحقد الذي أبداه الإسبان نحو المسلمين في البلاد التي سيطروا عليها من خلال إدخال الخمر والخنزير إليها. يقول عمر بن المرابط:

كم جامعٍ فيها أُعيدَ كنيسةً فاهْلَك عليه أسى فلا تتجلَّد

القِسُّ والناقوسُ فوق منارةٍ والخَمر والخِنزيرُ وَسْطَ المسجد[2]

(الكامل)

لذلك نستطيع أن نقول إنّ الحرب التي دارت في تلك البلاد كانت حرباً أساسها الدين، وخير دليل على هذا القول، ما فعله الإسبان بالمسلمين بعد السقوط.

---

(1) المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 5. ص: 374.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون. ج: 7. ص: 194-195.

ينظر: طويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ص: 111.

وإذا انتقلنا من رثاء المدن إلى رثاء الأشخاص، فإنّنا نجده يسير ضمن الإطار التقليدي الذي سار عند المشارقة، فهو لم يأت بشيء جديد على نحو ما حصل في رثاء المدن، فنرى رثاء الأبناء والأصحاب والملوك وغير ذلك، ومن رثاء الأبناء ما جاء عند محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري في رثاء ابنه الذي توفي بغرناطة، ونلحظ في رثائه الحزن الذي ألم به، فالوفاة جاءت في ريعان الشباب، ومات كما تموت الأزهار وهي في قمة عنفوانها يقول:

شبابٌ ثوى شابتْ عليهِ المفارقُ   وغصنٌ ذوى تاقت إليه الحدائقُ
على حين راق النَّاظرين بسوقهِ   رَمَتْهُ سهامٌ للعيونِ رواشقُ[1]

(الطويل)

وظهر رثاء الزوجات، وكانوا من خلاله يصورون لنا حجم المعاناة التي حلّت عليهم بعد فقد الزوجة، فهي تركت خلفها الأبناء الذين ما زالوا في حاجة إليها، فهم كالفراخ ما زالوا عاجزين عن إعالة أنفسهم. وهذا ابن الخطيب يرثي زوجته بأبيات عبّر من خلالها عن حزنه بعد فقده لرفيقة عمره التي لازمته في أوقات الشدة والرخاء. يقول:

روع بالي وهاج بَلْبالي   وسامَني الثُّكْلُ بعد إقبال[2]
ذخيرتي حين خانني زمني   وعُدَّتي في اشتدادِ أهوال
حفرْتُ في داري الضريحَ لها   تعلُّلاً بالمُحال في الحالِ[3]

(المنسرح)

ويُظْهر الشاعر صدقَ عاطفتهِ من خلال دفنهِ لزوجتهِ داخل بيتهِ، فهو يحافظ على محبتهِ لها حتى بعد وفاتها.

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 105.
(2) البلبال والبلبالة: شدة الهم والوسواس،
ينظر: ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب. ط3. بيروت. دار صادر. 1994. ص: 69 مادة بلل.
(3) ابن الخطيب ، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب. ص: 205.
ينظر: ابن الخطيب: لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 505.

وقد ظهر رثاء الأصحاب كثيرا في هذا العصر، وأظهروا فيه مناقب الميت، وعبّروا عن حزنهم من خلال إطلاق العنان للدموع لكي تبكي الفقيد لعلّها تخفف من آلامهم. يقول أَبو الحسن بن الجياب في رثاء الوزير علي بن مسعود المحاربي ويكنّى بأبي الحسن:

أيا زفرتي، زيدي ويا عَبْرتي جودي على فاضل الدنيا على ابن مسعود

على الشامخ الأبيات في المجد والعلا على السابق الغايات في البأسِ والجودِ[1]

(الطويل)

وتميز هذا الشعر بصدق العاطفة، فلا نكاد نجد شاعرا منهم إلا واعترته حالة من الألم والحسرة على فقد صاحبه، وفي مقابل هذا نجد أنفسنا أمام رثاء نستطيع أن نشك بصدق عاطفته وهو رثاء الملوك، وهذا النّوع قيل في ملوك ما زال أبناؤهم يتربّعون على سدّة عروشهم بعد وفاة آبائهم، وهذا لا يعني أنّنا ندّعي أن جميعه قد قيل في غرض التملق والمنفعة، فمنه من يُعبِّر عن عاطفة جياشة تدلُّ على تأثر هؤلاء بفقد ملوكهم، يقول لسان الدين بن الخطيب في رثاء الملك يوسف بن اسماعيل بن فرج بن نصر:

مَنْ لم يُصَبْ في نفسهِ فمصابهُ بحبيبهِ نَفَذَتْ بذا الأحكامُ

يا واحدَ الآحادِ والعَلَمُ الذي خفَقَت بعزَّةِ نصره الإسلامُ

وافاك أمرُ اللهِ حين تكاملتْ فيك النُّهى والجودُ والإقدامُ

ورحلتَ عنَّا الرَّكبَ خير خليفةٍ أثنى عليك اللهُ والإسلام[2]

(الكامل)

وانبثق عن هذا اللون من الفنون الشعرية ظاهرة ملحوظة، وهي الوقوف على القبور، وكانت منتشرة في هذا العصر ، ونلحظها عند كثير منهم، فنجدها في أشعار ابن زمرك وابن الخطيب ويوسف الثالث وغيرهم، ومن ذلك رثاء ابن زمرك للأمير الغني بالله حيث يقول:

ضريحُ أميرِ المسلمين محمد يخصُّك ربِّي بالسّلام المردَّدِ

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 4. ص: 54.

(2) ابن الخطيب ،لسان الدين :الديوان: ج 2 . ص:556-557 .

الكمائم: البراعم. ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب. ج: 12. ص: 526 مادة كمم.

وصابتْ من الرُّحمى عليك غمائمٌ تُروّي ثرى هذا الضريح المنجّدِ[1]

(الطويل)

وعلى الرغم من وجود مراثٍ أندلسية ضاهت مراثي الشرق، فقد ظلَّ شعراء الأندلس مقصِّرين عن اللحاق بالمشارقة في المراثي العادية، وخصوصا ما يتعلق بأفراد الأسرة الحاكمة، وأصدق الرثاء عندهم هو رثاء الأهل والأولاد على نحو ما رأينا عند ابن الخطيب في رثاء زوجته؛ لأنّه كان ينبثق عن عواطفَ ملتهبةٍ ومشاعرَ كئيبة صادقة، ولكنّنا نرى أنَّهم تفوقوا على المشارقة في الرثاء السياسي فتوسعوا فيه، وأضفوا عليه مسحة من الجمال والفنِّيَّة على الرغم من سيطرة الكآبة وروح الإنهزام عليه، واستطاع التاريخ أن يخلِّدَ عدةَ قصائد نتيجةً لصدقها وقوة عاطفة قائليها.[2]

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 398.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية. ص: 99.

[2] طويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ص: 112.

ينظر: بسبح، أحمد: لسان الدين، عصرهُ، بيئتهُ، حياتهُ وآثارهُ. ص: 17.

المبحـــث الخامــس: الهـجـــاء

لم ينتشر هذا اللون من الشعر كثيرا في عصر بني الأحمر، وذلك لعدم وجــود دوافــع قوية تساعده على ذلك، فظلَّ محدودا بين بعض الشعراء. وكان للظروف السياسية آنذاك الأثــر البالغ في هذا الفن، ذلك أنَّ معظم الشعراء توجهوا نحو مجاراة تلك الظروف التي رافقها تتــابع سقوط المدن وتنامي قوة الإسبان، وما رافقه من تراجع للقوة العربية المسلمة. وعموماً فالهجــاء أصبح ضعيفاً منذ بداية العصر العباسي، وسبب هذا أنّ التنازع أصبح فكرياً مصيريّاً، بعــد أن كان شعوبياً بين العرب والموالي.[1]

ولعلَّ الشعور بقرب الأجل هو الذي دفع الشعراء للابتعاد عن هذا الفن، وهذا ما يُفسِّر تطور بعض الفنون الأخرى مثل الرثاء، ولكنّنا لا نعدم أن نجد أشعاراً تدل على وجود الهجــاء بين شعرائهم، فالطبائع الإنسانية لا يمكن أن تتوافق بشكل كامل، والخلافات بين البشر لا تنتهي، وكلُّ فرد يحاول جاهدا أن يثبت ما يؤمن به أمام الآخر.

وإذا ما نظرنا إلى الهجاء بأقسامه المختلفة، نجد أنَّه لم يظهر عندهم ما يعرف بالهجــاء القبلي، الذي يتوجَّه به الشاعر إلى قبيلة معادية لقبيلته، فلم يكن للقبيلة دورٌ في مملكة غرناطــة ونظامها السياسي، على نحو ما كان سائداً في عصر بني أميّة.[2] ويرجع ذلك لأسباب عدة نذكر منها: أن ملوك بني الأحمر حكموا البلاد من دافع ديني، فهم يرجعون بالنسب إلــى الصــحابي الجليل سعد بن عبادة الأنصاري، وعندما بدأ حكمهم، جعلوه يظهر في صبغة دينية مــن خــلال شعارهم الذي رفعوه وهو (لا غالب إلا الله)، ومن سمات هذا العصر كونه احتوى على كثير من النكبات التي أدت إلى ضياع كثير من المدن .

أما بالنسبة للهجاء العنصري، ونعني به ذلك الذي يأتي به الشاعر تحقيرا للعرب وإنكارا لفضلهم، ويكون صادرا عن غيرهم.[3] فهذا النوع لم ينتشر أيضا في هذا العصر، ويرجع هــذا

---

[1] حاوي، إيليا: فن الهجاء وتطوّره عند العرب. بيروت: دار الثقافة. 1998. ص: 439.

[2] التميمي، قحطان: اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري. بيروت: دار المسيرة. ص: 103.

[3] نافع، عبد الله: الهجاء في الشعر العربي الأندلسي. ص: 56.

إلى الظروف السياسية التي وصلت إلى حدٍّ استخدام السيف، والمتتبع لتاريخ هذه المملكة يرى كثرة الحروب التي خاضتها على مدى قرنين ونصف.

وظهر الهجاء السياسي بأثر قليل في هذا العصر، ويتناول الخصوم السياسيين، ومنه ما جاء عند ابن الخطيب أثناء محنة الغني بالله التي حدثت بسبب استيلاء أخيه اسماعيل على الحكم، وهروبه إلى المغرب طالبا العون استرداداً للمُلْكِ السَّليبِ. ولابن الخطيب أبيات يصف فيها إسماعيل بالغرور، وعدم حِفْظِ المعروف الذي أسداه إياه الغنيّ بالله، ويرى أنَّ الغدر عادة سيئة تجرُّ الويلات إلى صاحبها، فديار الغادرين لا يمكن أن تدوم لهم يقول:

لم يَدْرِ إسماعيلُ ما طوَّقتَه	مِن مِنَّةٍ لو كانَ ممَّن يعقِلُ
نِعَمٌ مُهَنَّأَةٌ وظلٌّ سَجْسَجٌ	تَنْدى غضارَتُهُ وماءٌ سَلْسَلُ
أغراه شيطانُ الغرورِ لغايةٍ	من دونها تنضى المطيُّ الذُّلَّلُ
والغدرُ شرُّ سجّيةٍ مذمومةٍ	شَهِدَ الحكيمُ بذاك والمُتَمَلِّلُ[1]

(الكامل)

وكان لطبيعة الحكم الوراثي الذي ساد مملكة بني الأحمر، أثر في تراجع قوة الخصوم السياسيين، ولم نجد في عصرهم من عارضهم تلك المعارضة التي يمكن أن يُشْهَدَ لها، حيثُ استطاع ملوكهم أن يقنعوا العامة بأنهم يخوضون حرب الإسلام ضد النَّصرانية الممثلة بالإسبان، وقد ساعدهم في هذا، التسارعُ الذي حدث في سقوط المدن، مما جعلهم يبتعدون عن طَرْقِ هذا اللون من الفنون الشعرية، وإن حصل فإنّه لم يترك أثراً ملموساً، على نحو ما رأينا عند ابن الخطيب في هجائه لإسماعيل عندما اغتصب الحكم من أخيه الغني بالله.

ومن أنواع الهجاء القليلة، الهجاء الديني، وهو النيل من المعتقدات والمذاهب الدينية، وهذا يصيب القضاة والشيوخ، وينتقصُ ممن يتهاونون في تطبيق أحكام الشريعة، ونجد هذا عند

---

[1] ابن الخطيب ، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب. ص: 289

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 497.

سجسج: اللين والإعتدال بين الحر والبرد. ابن منظور. جمال الدين: لسان العرب . ج:2. ص: 295. مادة "سجج".

ابن الخطيب في هجائه لليهود، فيصفهم بعصبة الشر، وينعتهم بالجبن والبعد عن الهداية، وينـــال من صلاتهم، وذلك عن طريق السخرية من طريقة أدائها يقول :

وعصبةُ شّـــــرٍ من يهودٍ لقيتها　　　يجانبها داعي الهدى ويحاشـــــيها
اذا أمنوا واستوثقوا الباب أعلنوا　　　خبائث ما كان اللســـــــان ليفشيها
كأن رؤوسَ القومِ عند صـــلاتِهم　　　وقد أومأت للأرض صفر شواشيها
أقاحٍ أمالتها الرياح على الثرى　　　وقد أَســقطت عنها بياض حواشيها[1]

(الطويل)

ومن أنواع الهجاء التي انتشرت في هذه الفترة الهجاء الإجتماعي، وبه يتعرض الشعراء للمفاسد والعيوب التي تسيطر على المجتمع من أمثال العـــادات القبيحـــة، والتقاليـــد الســـخيفة، والجرائم الأخلاقية، والتخاصم على حب الرئاسة، ومن هنا قام هذا النوع من الهجـــاء يرصـــد عيوب المجتمع الأندلسي.[2] ومن عادات المجتمع وتقاليده أن النّاس يُوْلُونَ الغنيّ تقديرا وإكراما، ويبتعدون عن الفقير، إزدراء وامتهانا، يقول أحمد بن جزي الكلبي في الغنى:

أرى الناس يولّون الغنيّ كرامةً　　　وإن لم يكن أهلا لرفعةِ مقدار
ويلْوون عن وجه الفقير وجوههم　　　وإن كان أهلاً أن يلاقى بإكبار[3]

(الطويل)

ومن هؤلاء الشعراء نرى أبا حيان الغرناطي يهجو أهل عصره، ويصفهم بالذئاب فـــي الخبث والمراوغة، وبالزنادقة في الفسق والضلالة، يقول:

ذئابٌ في ثياب قد تبـــــدَّت　　　لرائيها بأشـــــكال الرجال
ومن يك يدعي منهم صلاحا　　　فزنديق تغلغلَ في الضلال

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 739.
(2) عبد الله، نافع: الهجاء في الشعر العربي الأندلسي. ص81-82.
(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 1. ص: 53.

ترى الجهّال تتبعه وترضى		مشاركة بأهلٍ وبمـــــــالِ

فينهب مالهم ويصيب منهم		نســــــاءهم بمقبوح الفعال[1]

(الوافر)

وأبو حيان قد هجا الناس ونقدهم بناء على تجاربه معهــم، ومشــاهدته لهــم، فوجــدهم يتسمون بأسوأ الخصال وهي عدم الوفاء وسوء الخلق وعدم الصلاح والجهل والإباحية والنهــب وضعف الإعتقاد. والرياسة في رأي أبي عثمان سعد بن أحمد بن ليون التجيبي، وهو من شيوخ لسان الدين بن الخطيب، داء فتّاك فيه خطر على الطامحين في الوصول إِلى مناصب الزعامــة والسيادة، لأنه يفت سواعدهم ويهد عزائمهم من جراء ركضــهم وراء نيــل مطــالبهم، فربمــا ينجحون في هذا أو يفشلون، كما فيه أيضا خطر على الكبراء أصحاب الهمم العاليــة، ويســقيهم كأس الذل والهوان، فربما يفقدون مناصبهم، يقول:

حب الرياســــــــة يا له من داءِ		كم فيه من محنٍ وطولِ عناءِ

طلاب الرياسة فتّ أعضادَ الورى		وأذاق طعم الذلِّ للكبــــراء

إنّ الرياسة دون مرتبــــة التُقى		فإذا اتَّقيت علوت كلّ عــلاء[2]

(الكامل)

وفي ذمّ النساء وهجوهن أيضا أفكار صادرة عن أهل الفقه والعلم، ونرى أنّ القاضي أبا البركات البلفيقي السلمي يبالغ في ذمهن، فصفاتهن الذميمة لا يمكن أن تعدّ أو تحصى، يقول:

قد هجوتُ النّســـــــــاءَ دهراً		فلم أبلغ أداني صفاتهن الذميمة

ما عسى أن يُقَال في هجو من قد		خصّه المصطفى بأقبح شــيمه

أيبــقى لناقـــص العقــــــل		والدّين إذا عُدَّتِ المثالبُ قيمة[3]

(الكامل)

---

(1) المّقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 3. ص: 171.

(2) المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج: 7. ص: 116.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة. ص: 133.

وإلى جانب الهجاء الاجتماعي، فقد انتشر نوع آخر، وهو الهجاء الشخصي، ويمثل وسيلة للدفاع عن النفس إذا اعتدى عليه إنسان بعينه، أو يتخذه أداة منافسة، أو هجوم يبارز به شخصا بذاته، أو يريده تعبيرا عن انعكاسات الاستفزاز الذي تستثيره به نقائص الإنسان أو مساويء الحياة، وفي كل الأحوال يلبي رغبات النفس، ويستجيب لها في التعبير أو التصوير، وهو في التلبية يتناول العلاقات الشخصية المضطربة، ويمكن أن ندعوه باسم هجاء الاحتراف الشخصي، لأنه تجسيد لطبيعة مخالفة الآخرين ومعاداتهم، وهو الأصل في الهجاء الشخصي.

أما الاستجابة، فهو يريد تشخيص أنموذج إنساني متكامل الأوصاف الجسمية الذميمة أو الصفات الخلقية الذميمة، كما تتراءى له من خلال بؤرة التركيز الفني في أغوار نفسه العميقة، وتبرز في ملامح هذا الأنموذج الإنساني سلبيات بطبع النشأة والتكوين، ومن مظاهرها: الشر يتطاول على الخير، والنقص يتفاخر على الكمال، والقبح يتباهى على الجمال، ويمكن أن نسميه هجاء التصوير الفني الساخر، لأنه لَعْنَةٌ على الإنسان وسخريةٌ في وجه الحياة.[1]

وهذا الهجاء ظهر واضحا عند ابن الخطيب في هجائه لإبراهيم بن أبي الفتح الأصلع وزير السلطان إسماعيل بن الأحمر، فنراه يتهكم عليه مستعينا باسمه- أبو الفتح- فهو لا يحمل منه سوى التسمية، فوصفه بالجهالة، ويرى أن وصوله للوزارة كان طالع شؤم، يقول:

قل للوزيرِ البليدِ قد ركضتْ	في ربعك اليوم غارةُ البعير
وزارةٌ لم يجد مُقلِّدها عن شؤمها	في الوجود من وَزَر
في طالع النّحسِ حزت رتبتها	وكلُّ شيء في قبضةِ القَدَر[2]

(المنسرح)

ويتابع هجاءه له فيصفه بصفات تتصف بالجهل والغباء والحقد والفظاظة والظلم والقذارة، ثم يضعه في جملة البقر ويصفه بأنه عدل سرج، على ظهر فرس يقول:

---

[1] عبد الله، نافع: الهجاء في الشعر العربي الأندلسي. ص: 107.

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج1. ص: 428.

ينظر المقري، أحمد بم محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 1ص: 116.

يا ناقصَ الدينِ والمروءةِ والعقلِ ومجري اللســـــان بالهَذْر
يا ولد السَّــــــحْقِ غير مكتتمٍ حديثه يا ابن فاســـــد الدبر
يا بغلَ طاحونة يـــــــدور بها مجتهد السير مغمض البصر
في أشهر عشــــــــرة طحنتهم فيا رحى الشؤم والبـــوار دُر[1]

(المنسرح)

إن مثل هذه النماذج الواردة في الهجاء الفاحش، تدل على مجتمع أخذ يطغى فيه كثيـــر من الصفات المبتذلة، والأخلاق المنحلة، نتيجة لهذا التفكك والإنحلال أو التفسخ ، كان شـــعراء الهجاء صريحين جدا في أبياتهم، وكانوا لا يتورعون عن البذاءة والفحش قولا وتصويرا.

وبعد هذا التجول في ربوع الهجاء الشخصي، نرى أنه لم يكن من الشمول ليلف بردائـــه كل العيوب الذاتية عند الأفراد. ومن هنا نجد أن بعض الشـــعراء قـــد هجـــوا بالســـكوت عـــن مهجويهم، لأنه لا عيوب لهم، وهذا بحد ذاته هجاء لهم. فالسكوت عن ذكرهم هو قمـــة الهجـــاء الشخصي لهم. وهكذا فالهجاء الشخصي بألوانه كافة، مهمـــا تفاوتـــت فـــي الكثافـــة والصـــفاء والتركيز، يصور لنا العلة والمعاناة في نفس الشاعر. ويعبر عن سلبيات روح الفرد ونفســـيته، والتي نشأت معه منذ أن جبلت طينته، وتكونت هيئته، فصار منها إنسانا يدرج في الحيـــاة بـــين خطين متوازيين من الخير والشر، فيتأرجح تارة نحو الأول، وتارة نحو الآخر.[2]

---

[1] المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج6. ص116.
[2] نافع، عبد الله: الهجاء في الشعر العربي الأندلسي. ص: 120.

المبحث السادس: المدح

اتَّبع شعراء الأندلس في مدائحهم المشارقة، فحافظوا على الأسلوب القديم وعملوا بالاستسهال وحسن التخلص وأحكام البناء، والتزموا الغزل في محاريب مدائحهم، وربما جعلوا صدورها وصفا للخمرة، أو للطبيعة. وإذا شذَّ بعضهم عن هذا السبيل، فاستهلَّ بالمدح من غير توطئه عابوا عليه ذلك.[1]

والدارس للمدائح الأندلسية يرى أنَّ معظمها موجّه إلى الأمراء والملوك، وأنّها من حيث المضمون أو المحتوى لها جانبان: جانب يريك الصفات التي يخلعها الشعراء على ممدوحيهم، وهذه لا تخرج عادةً عن الصفات التقليدية التي يطيب للعربي أن يوصف بها، كصفات المروءة والوفاء والشجاعة وما أشبه. أمّا الجانب الآخر فيدور حول انتصارات الممدوحين التي تُعدّ نصراً للإسلام والمسلمين، ويدخل في ذلك أحيانا وصف جيوشهم ومعاركهم الحربية.[2]

(وأكثر ما تقال المدائح في مناسبات هامة، كالبيعة، أو إنجاب أطفال للأسرة المالكة، أو شفاء الخليفة من علة أصابته)[3]. وحرص الملوك على إرضاء الشعراء واستمالتهم إلى جانبهم، وهناك الكثير منهم في كل زمن، ولكنّ النوابغ قليلون، وهؤلاء هم هدف الملوك وبغيتهم. ولعلَّ أسباب هذا الحرص من الملوك غير خاف علينا، فالشّاعر يُعتبر بمثابة السفير لبلاده، ويمثل السلطة السياسية فيها، ولهذا نرى أن بعضهم شغل مناصب مهمة في الدولة، كالوزير الشاعر ابن زمرك وشيخه لسان الدين بن الخطيب، فهذان لهما أثر واضح في دولة بني الأحمر وسياستها الداخلية والخارجية. ونتج عن ذلك أن لازم هؤلاء ملوكهم طول سنوات حكمهم، وهذا ما نجده عند ابن زمرك الذي لزم السلطان الغني بالله ما يقرب من ثلاثين عاما، استطاع من خلالها أن يتدخل في رسم سياسة الدولة آنذاك. ومقابل هذا، حرص هؤلاء الشعراء على إرضاء ملوكهم من أجل تحقيق مآربهم الذاتية، ولا يتأتّى هذا الأمر إلا من خلال مدحهم وإظهارهم بأنهم ملوك وُجدوا من أجل أن يشغلوا هذا المنصب، والمتتبع لأشعارهم يجدها في معظمها جاءت في

---

[1] البستاني ، بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الإنبعاث. ص:40-41. يُنظر: الركابي، جودت: في الأدب الأندلسي. ص: 114.

[2] عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص:185.

[3] طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص:17.

هذا الباب، وظهر هذا المعنى واضحاً في أشعارهم ،وهو ما نجده عند ابن زمرك فـــي مدحـــه للسلطان الغني بالله، من خلال إشارته بأنه قد ورث الملك عن آبائه وأجداده، ويقصد مـــن ذلـــك قضيّة الأحقِيَّةِ بالمُلْكِ . يقول :

يابنَّ الملوك وأبناء الملـــوك إذا تدعـــو الملوكُ إلى طوع تُلَبِّيها
أبناءُ نصرٍ ملوكٌ عزَّ نصرُهـــمُ وأوســـعوا الخلق تنويها وترفيها[1]

(البسيط)

وحاول الشعراء في مدحهم بيان أثر هؤلاء في نصرة الإسلام، فهم حماة الدين وحملـــة لوائه، وهذا ليس غريبا عليهم، فهم من سلالة الأنصار الذين آزروا ونصروا الرسول (صلّى الله عليه وسلم). وأجدادهم من الأنصار هم الذين ثبتوا يوم بدر، يقول عبد الله بن محمد بن جـــزّي في مدح السلطان أبي الحجاج يوسف الأول :

ومن كبني نصر جلالةُ منصـــبٍ بهم نصر الرحمن دين الهدى نصرا
سلالةُ أنصارَ النبيّ محمـــــــدٍ فســـــل أحداً ينبيك عنهم وسَلْ بِدْرا[2]

(الطويل)

ومن هذا ما جاء في شعر علي بن أحمد الخشني في مدحه لملوك بني الأحمر، في زمن أبي الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل، فالصور تتكرر وتدور حول نصرة الإسلام منـــذ بدايـــة الدعوة، فهم أصحاب السقيفة وبدر. يقول:

أنتم بني نصر نصرتُم ملّة الإسلام أضفت على إســـرائه زلزالها
أحرزتم وقت الســـقيفةِ عودَهـــا دون الأنام وقودَها وســـكالها
بدرٌ وما بـــدرٌ وردَّم قلبهـــــــا وبجنادل الطاغوت تملأُ حالها[3]

---

[1] ابن زمرك، محمد: الديوان. ص 123. ينظر: المقّري، شهاب الدين حمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ح :2 ص 24-25.
[2] ابن الخطيب، لسان الدين. الإحاطة في أخبار غرناطة. ج:3.ص: 302.
[3] المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلـــــس الرطيب، ج:9. ص: 42. ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة.
ج:4. ص: 152-153.

(الكامل)

ودخل مدح الملوك في باب الاستجداء من أجل الحصول على كرمهم وهبـــاتهم، ولهـــذا نرى كثيرا من الأشعار المدحية بدأت بوصف كرمهم الذي لا يعرف حدودا، فهـــو لا يتوقـــف، ويعطي قبل أن يسأل. يقول أبو الحسن علي بن الجياب :

إِنْ تلقَهُ في يوم بَذْلِ هباتِـــــهِ   تَلْقَى الغمائمَ أرسلتْ هطَّالها
الواهبُ الآلافِ قبل ســـؤالِها   فكفى العُفَاةَ سؤالها ومطالها
إِنْ قلتَ بحرٌ كفُّه قصَّرْتَ إذِ   شبَّهتّ بالملح الأُجاجِ نوالها
وسقى البريّة فيضُ كفيه فقد   عمَّ البلاد سهولَها وجبالَهـــا[1]

(الكامل)

وجاءت الإشادة ببطولات ملوكهم وسيلة خرجوا من خلالها إلى هذا باب.يقول يحيى بن هذيل في مدح السلطان أَبي الوليد بن نصر عند قدومه من فتح (أشكُر) وهي من أعمال بسطة:

بحيثُ البنودُ الحمرُ والأســـدُ الوَرْدُ   كتائبُ، ســـكانُ السماء لها جندُ
وتحتَ لواء النصر ملكٌ هو الورى   تضيق به الدنيا إِذا راح أو يغدو
تأمَّنتِ الأرواحُ في ظـــــــلٍّ بَندهِ   كأنَّ جناحَ الروحِ مـــن فوقه تبدُ[2]
فلـــــــو رام إدراكَ النجومِ لنالها   ولو همَّ لانقادت له السِّندُ والهندُ[3]

(الطويل)

وإِذا كان الغرض من المدح هو بيان فضل الممدوح، وإِعطائـــه صـــفة التميـــز عـــن الآخرين، فإِن هذا لا يتحقق كليّا إلا من خلال المناسبات التي يجتمع فيها عامة الناس، ونخـــص بها الأعياد، فالهدف إِعلامي صرف، ومن هذا ما جاء عند ابن الخطيب في مدحه للأميـــر ابـــن الحجاج يوسف الأَول بن إسماعيل، وذلك في عيدٍ عام سبعة وأربعين وسبعمئة. يقول:

---

(1) المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج: 6: ص: 362. ج6. ص116.

(2) الرّوح: جبريل عليه السلام.

(3) المقري، أحمد بن محمد: المصدر السابق. ، ج:7 ص: 35.

سُعودُكَ لا ما تَدَّعـــــيه الكواكبُ وَجُودُكَ فينا لا السَّحابُ السَّواكبُ

يغصُّ الغمامُ الجَونُ يوم انسكابهِ إذا صدَرَت عن راحتيكَ المواهب

فتُهدي بك الأمداحَ قصدَ صوابِها إذا أعوَزَتها في ســواكَ المذاهبُ

سما بك في الأنصار بيتٌ سما به إلى ذروةِ البيتِ الرفيع المناســبُ[1]

(الطويل)

وإلى جانب مدح الملوك نرى مدح وزرائهم، فالشعراء يحرصون على الوصـــول إلـــى أصحاب النفوذ والمال، ولهذا نرى العديد من القصائد المدحية في وزراء شغلوا مناصب مهمـــة في الدولة ،ومنهم ذو الوزارتين محمد بن عبد الرحمن بن محمد اللخمي، المعروف بابن الحكيم، والوزير لسان الدين بن الخطيب، والوزير ابن زمرك. ولو أمعنا النظر في أشعارهم لوجـــدناها تذكر الكرم في جملتها، فيبدأ الشاعر بذكر محاسن ممدوحة وتمجيد مقامه العالي .

يقول يوسف بن علي الطرطوشي، ويكني بأبي الحجاج، في مدح ابن الحكيم :

يا أيها السيد الأعلى الـــــذي يدُه حازت ندى السُّحْبِ مسكوباً بمسكوب

فلو سألنا بلاد الله عـــــــن كرمٍ فيها لكفّيه والأنواء منســـــــــــوب

لقلْن: إن كان جودٌ لا يضاف لذي الوزارتين فجودٌ غير محســــــــــوب[2]

(البسيط)

وتعددت الأشعار في مدح الوزراء ولكنَّها لا تخرج في جوهرها عن هدف واحد، وهـــو إرضاء الممدوح من خلال إظهار مكانته أو صفاته التي جعلته يتقلد هذا المنصب، فهو أهل لـــه لما تميز به من الكرم والشجاعة والخبرة السياسية، يقول لسان الدين بن الخطيـــب فـــي مـــدح الوزير عمر بن عبد الله بن سعيد الياباني الذي كان وزيرا للسلطان أبي سالم:

إلي الغيث الذي إن شحّ غيثٌ فمنْ يمناه يندفـــــق اندفاقا

إلى الليث الذي راع الأعادي وامَّن رفْقُ ســـيرتهِ الرِّفاقا

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 120.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 4. ص: 365-366.

إِلى حَبْر السياســة لا يُجارى   ولا يبغي معارِضُهُ اللحّاقا[1]

(الوافر)

ومن هذا ما جاء عند القاضي عبد الله بن خديم اللخمي الغرناطي في مدحه للوزير لسان الدين بن الخطيب، وحملت أَشعاره المعاني ذاتها فلم يختلف في مدحه عن سابقيه يقول:

أيا سيِّدي الأعلى وشـــمسُ هدايتي   ووجهة تعظيمي وروضة إِيناســـي
لساني نبا عن شـــكرِ آلائِكَ التي   توالتْ فآلت أن تُقيِّد أنفاســـــــي
ومَنْ لي بمدحٍ في معاليك منصفٍ   وقد جلَّ مدُّ البحر عن قسط قسطاس[2]

(الطويل)

وإلى جانب هذا النوع من المدائح انتشرت المدائح النبوية، وساعد على ذلك طبيعة نظام الحكم الذي ساد مملكة بني الأحمر، فالحرص الذي أبداه هؤلاء في المحافظـة علـى المظـاهر الدينية بوصفهم حماة لهذا الدين، جعلهم يحرصون على إحيائها في أكثر من مناسبة دينية. وكان يحتفل بهذه الذكرى ليلة الثاني عشر من ربيع الأول من كل عام. فيجلس الملوك كالغني بالله في صدر الإِيوان، ويتجمع حولهم عِلِيَّة القوم و الشـــعراء الذين نظموا قصائدهم المولدية لإلقائهـا في البلاط.[3]

وأظهر الشعراء في قصائدهم كثيراً من المعاني التي تدل على صـدق العاطفـة نحـو الرسول. ولسان حالهم يقول: إنَّهم عاجزون عن الإتيان بكلام يليق بمقام رسول الله العظيم، فمن من البشر يستطيع أن يلمَّ بصفاته . يقول الخطيب محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي :

أروم امتداح المصطفى فيصـــدُّني   قصــــوري عن إِدراكِ تلكَ المناقبِ
ومن لي بحصرِ البحرِ والبحرُ زاخرٌ   ومن لي بإحصاء الحصى والكواكب

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 707.
(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في من لقيناه الأندلس من شعراء المئة الثامنة . ص: 144.
(3) الحمصي، أحمد: ابن زمرك الغرناطي، سيرته وأدبه. ص: 132.

ولو أن أعضائي غدت ألســـــناً إذاً   لما بلغتْ في المـــــدح بعضَ مآربي[1]

(الطويل)

فهذا الشاعر يعجز عن الإلمام بمناقب الرسول (صلّى الله عليه وسلم) فهي كثيرة عـــدد الحصى والكواكب، ولهذا وقف عاجزا عن مدحه، وهذا في حدِّ ذاته يُعَبِّرُ عن غايةٍ عظمى فـــي توقير الرسول الكريم، وذهب بعضهم إلى مدحه من خلال بيان المصاعب التي واجهته في بداية دعوته، فقد لاقى الكثير من الأذى، ولكنَّه ظلَّ صابرا ومعتصما بدين الله. وغالبا ما كانت هـــذه القصائد تنتهي بالحمد والصلاة على الرسول. يقول ابن الخطيب :

يا خيرَ من خلُصـــــــتْ لله نيَّتهُ   في الملكِ أو خَطَبَ العلياءَ خاطبهُ

صبَّرتَ نفساً لعقبي الصَّبر حامدةً   والصّبرُ منـــذ كان محمودٌ عواقبُهُ

ثم الصـــــلاة على خير البريّة ما   ســـــــــادت إليه بمشتاقٍ ركائبُه[2]

(البسيط)

ومنهم من أظهر أثر الرسول (صلّى الله عليه وسلم)في هداية الناس وإخراجهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، فهو نور تستضاء به الأكوان.يقول ابن خاتمة الأنصاري :

حَمَى حِمى الحقِّ إرغاماً لمُبطلهِ   فالشِّرك في مأتمٍ والدّينُ في عرسِ

نورٌ لمقتبسٍ ، جرزٌ لمحتـــــرسٍ   يُمنٌ لمنتكـــــــسٍ ، نُعمى لمبتئسِ[3]

(البسيط)

واختلط المديح بغيره من الأغراض ،فلم نر شاعرا بدأ به دون أن يصدره بغرض آخـــر كالنسيب أو وصف الطبيعة، وكأنها سُنَّة استنِّها الشعراء في مدائحهم، وممَّن صدّروا قصـــائدهم بالنسيب محمد بن سعيد بن جزي الكلبي في مدحه للأمير يوسف بن إسماعيل حيث يقول:

خرجنَ ولم يتقينَ القصاصا   وأوثقنَ ثم منعــــن الخلاصا

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة: ص: 48.

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب. ص: 386.

[3] ابن خاتمة، أحمد بن علي: الديوان: ص:34.

أخذنَ على أنفسٍ العاشقين مضايق لم تلفُ عنها مناصا
لقد جمعَ الله في يوســفَ مكارم لم يخسَ منها انتقاصا
كريمٌ يعدُّ شـــــراء الثّناء بما ملكتـــــه يداه ارتخاصا[1]

(المتقارب)

وأكثر الشعراءُ المشارقة من استخدام المقدمات الغزلية في أشعارهم، فهو تقليد ساروا عليه في معظم أغراضهم.[2] وقد تأثر الأندلسيون بإخوانهم من المشارقة، ولكنّ المقدمة الغزلية لم ترقَ في درجة استخدامها إلى المستوى الذي حدث في مقدماتهم التي تناولت وصف الطبيعة.

ومنهم من استهلّ مديحه بوصف الرياض، يقول ابن زمرك في مدحه للغني بالله:

هبّ النسيمُ على الرياضِ مع السَحرْ فاستيقظت في الدوحِ أجفانُ الزَهَرْ
نثرَ الأَزاهرَ بعد ما نظم النـــــدى ياحســـــن ما نظم النسيم وما نذر
يا فخرَ أندلس وعصــــــــمة أهلها للناسَ سرٌّ في اختصاصك قد ظهر[3]

(الكامل)

فالشاعر بدأ أبياته بوصف للطبيعة، فذكر الرياض الجميلة، والنسمات الخفيفة التي تبعث في النفس السكينة. وأثناء مطالعتنا لهذه القصائد، نشعر أنّنا أمام قصيدة تصف الطبيعة، ولكنّهُ لا يلبث قليلاً حتى ينطلق لغرضه الأساسي وهو مدح السلطان. وهذا الترابط نجدهُ ظاهراً في معظم الأغراض الشعرية.

والمدح في الشعر العربي كان مرتبطا بعوامل اجتماعية وسياسية وهذا ما وجــدناه فـــي عصر بني الأحمر، فالمدائح كانت في أكثرها سياسية تدور بـــين الشـــعراء والملـــوك تـــارة، والشعراء كونهم وزراء ورجال سياسة وغيرهم تارة أخرى، ولو أمعنا النظر في المدح النبوي، فإنّنا نجد بين ثناياه ما يدل على أن الغرض منه إِضافةً إِلى مدح الرسول، هو مدح ملوك بنـــي

---

(1) ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. ص: 298.
(2) فيصل، شكري: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من أمريء القيس إلى إبن أبي ربيعة. ط: 4. بيروت: دار القلم للملايين. 1959. ص: 23.
(3) ابن زمرك، محمد بن يوسف: الديوان. ص: 40–41.

الأحمر من خلال بيان، وهذا يذكرنا بأشعار الكميت بن زيد في سعيه لإثبات أن الخلافة يجب أن تكون بالهاشميين، أما الناحية الاجتماعية فكان الغرض منها هو الاستجداء من أجـل الحصـول على هبة من ملك أو والٍ أو وزير، من خلال التقرب إليه وظلّ جوهر المدح في هـذا الجانـب واحدا بين مختلف الشعراء.

المبحث السابع: الغزل

كان كل شيء في بيئة الأندلس الجميلة يغري بالحب ويدعو إلى الغزل. ومن ثمّ لم يكن أمام القلوب الشاعرة إلا أن تنقاد لعواطفها، فأحبت وتغزلت، ثم خلّفت وراءها فيضاً من شعر الغزل الرائع الجميل. وأوضح سمات هذا الشّعر تتجلى في رِقّته وعذوبته النَّاشئة من التفنُّن في وصف محاسن من يقع في عيون الشعراء من النساء الجميلات، وفي تصوير مشاعرهم المتضاربة تجاههنَّ. وكان المُتوَقَّع أَن ينفعل الشاعر الأندلسي بمؤثرات البيئة الجديدة، فيبدِّل من نظرته إِلى المرأه، ومن مفهومه لقيم الجمال فيها، ولكن هذا لم يحدث ، وظل الغزل الأندلسي مقلداً للمشرق.[1]

وحافظ الشعراء على الصور التقليدية التي تدور بين المحبين، والتي تتراوح بين القسوة واللين، والوصل والهجران، والشكوى والعتاب، والدموع والبكاء. وجاء هذا اللون من الشعر حسّياً بعيدا عن تصوير خلجات النفس حتى وصل درجة المجون الفاحش.[2]

كما أن انتشار أسواق النخاسة التي يباع فيها الجواري والغلمان، قد شجعت على انتشار الحياة اللاهية التي وجد فيها هذا الشعر مرتعا سهلا،[3] وتراوحت مواقفهم بالنسبة للتجربة الشعورية بين إتجاهين: إتجاه أخذ الغزل لهواً ومتعةً، واتجاه تغزّل تعبّداً بالجمال.

واتّخذوا من العفاف حائلا يحول بينهم وبين الغواية، واعتمدوا على الأوصاف المادية في ذكر أحبتهم، كما اعتمد عليها المشرقيون، فوصفوا الشعر والعينين، والخد والثغر، والقامة وسواها، وحلّوها بالتشابيه الطبيعية المألوفة.[4] وانتشر الحب اللاهي بين أبناء الطبقة الحاكمة، فانصرفوا إِلى الاتّجاه الحسيّ الذي يتعدى معشوقة واحدة، واتخذوا المرأة وسيلة للتسلية وملء

---

(1) عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 169.

(2) البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الإنبعاث. ص:70. ينظر: جوميث، اميليو: الشعر الأندلسي. ت: حسين مؤنس. ط2. دار الرشيد. القاهرة. 2005.

(3) الركابي، جودت: في الأدب الأندلسي. ص: 121. ينظر أبو الخشب، ابراهيم: تاريخ الأدب العربي في الأندلس. ص 206.

(4) البستاني، بطرس: أدباء العصر في الأندلس وعصر الإنبعاث. ص:70. ينظر: طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص: 39.

الفراغ. وإذا ما نظرنا إلى أصحاب هذا الإتجاه، وجدنا أنَّ الملوك هم أكثر من سار فيه.[1] فهم من عاش بين أحضان الجواري داخل أروقة القصور، فعاشوا حياة لاهية نلمسها مـن خـلال أشعارهم فهم يشكون بعد الحبيب وهجره لهم. يقول محمد بن محمد بن نصر:

واعدَني وعـــداً وقد أخلفا　　　أقل شيء في المليح الوفا
وحال عن عهدي ولم يرعه　　　ما ضــرَّهُ لو أنه أنصفا[2]

(السريع)

فالحاكم الأندلسي قد جرب مرارة الحب في الشعر وليس في الواقع، لأنّه متى خرج إلى دار الحرب، كان في وداعه غير امرأة حرة وغير جارية. وهذا لا يعني أنّ الملك الشـاعر لـم يكن ينظم شعرا حسنا فيه حلاوة الكلمة وجمال الإيقاع.[3] يقول الملك يوسف الثالث:

أشكو إليك ولا أشكو إلى أحد　　　يا من عليها من الأقوام معتمدي
إلى التي تركتْ نفسي مُولَّهةً　　　حيرى عليها بلا صبرٍ ولا جـلد
يا بغيةَ الصبِّ والهجران أتلفه　　　رحماكِ في قلبي وفي كـبدي[4]

(البسيط)

ويمعن الشاعر في غزله الفاحش، فهو لا يتورع أن يذكر لنا على وجه من التفصيل مـا كـان يجري بينهما أثناء وصالهما من عناق وتبادل للقبل. وأثناء ذلك لا ينسى أن ينظر إلـى جسـدها فيتحسس مواطن الجمال فيه، يقول:

فللهِ ذاكَ القدُّ وهـو مهفهفٌ　　　ولله ذاك الثغر وهوَ مؤشـرٌ
فقبَّلتُ مابين السـوالفِ والطلى　　　وعانقتُ منها الغصنَ فينانَ أخضر

---

[1] طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي.
[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج:1 ص: 317.
[3] طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص: 40.
[4] يوسف الثالث: الديوان. ص: 177.

ونزّهتُ طرفي في محاسن وجنةٍ   أرَتْني ما قـــــد قيل عدنٌ وكوثر [1]

(الطويل)

وإذا ما نظرنا إلى غيره من الملوك، نجد أنّهم لم يتركوا ذلك الأثر الواضح في ميدان هذا الشعر، فلم يبرز منهم سوى محمد بن محمد بن يوسف بن نصر وهو ثالث ملوكهم، وكان شعره مستطرفا. أمّا ثاني ملوكهم وهو محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، فشعره منحط بالنسبة إلى أعلام الشعراء.[2]

أما شعراء الطبقات الأخرى، فقد عكسوا حقيقة ما كانوا يعانون من مشاعر وأحاسيس تعكس حالة الشكوى من فراق وهجران المحبوب. وتعد ظاهرة البكاء والدموع من الظواهر التي سادت أشعارهم، فهي تعبر عن شدة الشوق للحبيب. وقد نظروا إلى الدموع بأنَّها تخفف من آلامهم، فهي غسيل للقلوب مما أصابها من لوعة البعد عنه. يقول ابن جزي الكلبي:

متى يتلاقى شائقٌ ومشـــــوق   ويصبح عاني الحبِّ وهو طليق

بكيتُ أسى حتى بكى حاسدي معي   كأنَّ عذولي عادَ وهو صـــديقُ

أيا عينُ كفِّي الدمع ما بقيَ الكرى   إذا منعوكِ النوم ســـوف تذوق[3]

(الطويل)

وحاولوا أن يكتموا حبهم على الناس، وأن يبقوه سرا، وقد حرصوا كثيرا علـى هـذا، ولكن الدموع خرجت من عيونهم رغما عنهم. فلم يستطيعوا كتمانها. يقول ابن الخطيب:

يا غزالا ورْدُهُ فـــي أدمعي   كلما شـــاء، ومرعاهُ الحشا

قد فشا فيكَ هيامي في الورى   وهـو لولا دمعُ عيني ما فَشا

ولكم آثرتُ كتمانَ الهـــوى   غيـر أنَّ الدَّمع بالسرِّ وشى[4]

(الرمل)

---

[1] يوسف الثالث: الديوان. ص: 58.

[2] ابن الخطيب ، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية.

[3] ابن الخطيب ، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج:2. ص: 164-165.

[4] ابن الخطيب ، لسان الدين: الديوان . ج: 2.ص: 739-740.

وقد وصلت حالة الشعراء بسبب بعدهم عن هذا الحبيب، أن تذللوا إليه راجين منه العودة إليهم،ولكنّه يبتعد عنهم مستهزئا غير آبه بمشاعرهم. يقول أحمد بن قطبة الدوسي:

كم قلت للبدر المنيــــــــر إذا بدا ... هيهات وجه فــلانة تحكي لنا
فأجابني بلســــــــانِ حال واعتنى ... لا بالشمس تحكيها فأحكيها أنا
وصرفتُ وجهي نحو غصنٍ أملَد ... قد رامَ يشـــــبه قدّها لما انثنى
فضحكت هُزءاً عند هــزّ قوامها ... إذا رام أن يَحكـــي قواماً كالقنا[1]

(الكامل)

وكثيرا ما كانوا يظهرون قوتهم أمام المحبوب، فيبينون له بـــأنَّ ضـــعفهم لا يكـــون إلا أمامه، ولكنَّهم أمام أعدائهم لا يعرفون إلا السيف والدماء. وكلُّ الناسِ يخافون صـــولتهم. يقـــول محمد بن محمد بن يوسف بن نصر وهو ثالث ملوكهم:

ملّكتكِ القلبَ وإني امـــــرؤٌ ... عليّ مُلكُ الأرض قـــد وقفا
أوامري في الناس مسموعةٌ ... وليس مني في الورى أشرفا[2]

(السريع)

وتكررت عندهم صور ومعانٍ تدور حول محاسن المرأة، ومن ذلك وصفهم للعيون التي تدل على جمال صارخ، وشبهوها بعيون الظباء وهي تلقي بسهام نظراتها فتصيب كل من ينظر إليها. يقول محمد بن محمد بن عبد الله بن مقاتل:

أيا لبني الرِّفاء تنضي ظباؤهم ... جفون ظباهم والفؤاد كليم
لقد قطَّع الأحشاء منهم مهفهفٌ ... له التِّبر خـــدٌّ واللجيْن أديم
يسدِّد إذ يرمي قســـيَّ حواجبٍ ... وأسهمها من مقلتيه تســـوم[3]

(الطويل)

---

[1] ابن الخطيب ، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص: 160-161.

[2] ابن الخطيب، لســــــان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 1 ص: 317. ينظر ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية. ص:177.

[3] ابن الخطيب ، لسان الدين: المصدر السابق.ج:2. ص: 262.

وهذه الصور قديمة استخدمها الشعراء في الأعصر السابقة وهذا يدلّلُ على تأثر شعراءالأندلس بالمشرق العربي. فوصف الخدود كان معروفاً عندهم.[1]

وأكثروا من تصوير النّساء بالبدر والشمس، يقول محمد بن إبراهيم المعافري:

بَهَرَت كشمس في غلالة عسجدِ وكبدر تمَّ في قضيب زبرجد
ثم انثنت كالغصنِ هزَّته الصبا طرباً فتزري بالغصون المُيَّدِ
حوراءُ بارعةُ الجمالِ غـــريرةٌ تزهى فتزري بالقضيب الأمْلدِ[2]

(الكامل)

وظلّ شعراء الأندلس يستعملون معاني المشارقة في تصوير جمـــال المـــرأة. فشـــبهوا الأنامل بالسوسن لشدة بياضها، والعينان بالنرجس، والوجه بالبدر والريق بـــالخمر، ووصـــفوا مبسمها باللؤلؤ لشدة بياضه. وإذا وُصف جيدها فإنَّه أكثر جمالا من جياد الظباء، وإذا نظر إلـــى محياها رآه يخُجِلُ شمس الصباح. يقول الملك يوسف الثالث:

وإذا هي ابتسمت يروقك مبسم يزري بعقدِ اللؤلؤِ المنضود
إن قلتُ جيدَ غزالةٍ مرتاعـــــةٍ مَنْ للظباء بحسنِ ذلكَ الجيدِ
أو قلتُ شمساً قد تورَّد صبحُها مَـــنْ للشموسِ بذلك التوريد[3]

(الكامل)

وقد ساعد على تطور الغزل الإباحي عوامل عدة: أهمها تحسّن الظروف الاقتصـــادية، وثراء الطبقة الأرستقراطية، وظهور طبقة الجواري، وجمال الطبيعة. ولعبـــت مجـــالس اللهـــو والشراب دورا في تطوره. وكلّ ما سبق من شأنه أن يرفع من مســـتوى الحيـــاة الاجتماعيـــة، ويبعث الشعراء على الحب والغزل. ولا يغيبنَّ عن بال أحد أن تغزُّل الشعراء الأرســـتقراطيين

---

(1) الحوفي، أحمد: الغزل في العصر الجاهلي. بيروت: دار القلم. 1961. ص: 50.

(2) المقّري ، أحمد بن محمد : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 7. ص: 363.

ينظر ابن الخطيب، لسان الدين: الإطاحة في أخبار غرناطة. ج: ح. ص : 227.

(3) كنون ، عبد الله : ديوان ملك غرناطة ، يوسف الثالث . ص: 36.

يُنظر: طويل، يوسف : مدخل الى الأدب الأندلسي . ص : 49.

ببنات الأسرة الحاكمة كان محظورا، ولا سيما في فترتي الإمارة والخلافة، حيث لم يجرؤ عليه إِلا القليلون، لأنَّ العاقبة كانت القتل في معظم الأحيان. لذا اتَّجه الشعراء للتغزل بالجارية كحقيقة أو رمز وإيحاء، وكانت المرأة الشقراء في مثل هذه الحال، تحتل مكانا في شعر الغزل. وإذا لم يكن شعراء عصر الدولة الأموية يصرِّحون باسم النساء المعشوقات، فإنَّهم صرحوا بأسمائهن في بقية العصور، وأصبح التصريح بأسمائهن ظاهرة منتشرة في شعر الغزل.[1]

يقول ابن خاتمة الأنصاري في حبيبته أم العزيز واصفاً معانقته وتقبيله إياها:

أقبل العيدُ فابتدرتْ مُهلا   نحو أم العزيز أبغي احتسابا
عانقتني وقَّبلتني وقالتْ:   قدَّس اللهُ من خطاكَ ترابا[2]

(الخفيف)

وعرفوا الغزل العفيف، وهو غزل سامٍ بعيد عن شهوات النفس . وقد يختلف عن الغزل العذري اختلافا بسيطا، إذ يتقلب الشاعر في عواطفه. فمرة نراه نزيها لا يتعشق غير واحدة، ومرة نراه يوزع أحاسيسه على غير امرأة. وتأبى العذرية أن يكون العاشق أزدواجياً في حبّه، بل تفرض عليه أن يظلَّ مخلصا لحبيب واحد . والأندلس لم تعرف العذرية طيلة عصورها، وإنَّما عرفت العفاف. وقد ساعد على نشوء هذا اللون من الشعر احتفاظ قائليه بالبداوة، أو بسبب ابتعادهم عن الجواري، أو لإنغلاق سبل اللهو أمامهم، وتصبح الفتاه مَثَل حبيبها الأعلى، فيشتد ولعه بها، ويصل إِلى درجة المرض المضني، أو الهلاك دون أن يقوى على الفراق.[3]

وعُرِف عن ابن زمرك اتخاذه محبوبات كثيرات، وهن وهميات بالطبع، نذكر منهن: ليلى ولمياء وأسماء وأم مالك يقول:

فهل عند ليلى نعَّمَ الله ليلها   بأن جفوني ما تُلِّمُ من السهد[4]

(الطويل)

---

[1] طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص: 46.
[2] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد بن علي: الديوان. ص: 105.
[3] طويل ، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص: 54-55.
[4] ابن زمرك، محمد بن يوسف: الديوان. ص: 31.

وله في الغزل العفيف ما يدلَّ على ورعه عن فحش القول، ويرى أنَّ الحـب يجـب أن يمثل علاقة سامية، فيرخُصُ من أجلها كلُّ غال، وأنه قادر على وصال المحبوبة، ولكنَّ عفافـه يجعله مترفعا عن ذلك بقول:

ألا في سبيلِ اللهِ نفس نفيسـةٌ   يرخِّصُ منها الحبُّ ما كان غاليا

خلوتُ بمن أهواهُ من غير رِقبةٍ   ولكـنَّ عفافي لم أكن عنه خاليا[1]

(الطويل)

ونلحظ نغمة الحزن واضحة في هذا الإتجاه من الغزل، ويعود هذا إلى صدق العاطفـة عندهم، فهم يجهدون أنفسهم في وصل الحبيب وإظهار حرصهم عليه. وكان لنظام الحكم الملكي بالغ الأثر في نشوء الطبقيّة في المجتمع. وقد عاشت الطبقة الحاكمة حياة لاهية يسودها التـرف والبذخ، ويدعمها في هذا نفوذها السياسي، وحرص أصحابها على المحافظه على هـذه الحيـاة، فبنوا القصور والمتنزهات التي غصت بالجواري والغلمان، وكان نتيجة لهذا أن أصبح التعلـق بهؤلاء أمرا معروفا عندهم، ونشأ ما يعرف بغزل المذكر أو غزل الغلمان، وهو يعبر عن حـب للجنس الذكري، ولابن زمرك مداعبات في غلام له، وجعله مرمى غزله ونسيبه حيث يقول:

يا فرجاً عللتُ نفسي به   والفال محبوب لتعليله

حرمت إحليلك هذا على   نفسي وأفتيت بتحليله[2]

(السريع)

وكذلك كان الفقيه الكاتب أَبو عبد الله محمد بن جزي الكلبي مشغوفا بغلام وسيم، ابيضَّ شعرُ رأسهِ، وظل يعاكسه دون أن يستجيب لرغباته، حتى قال فيه:

لمّا التحى مَنْ كنت أشقى بنورهِ   وأصبح مثلي سيء الظـن والبال

وقفتُ عليه كالمضلل منشـداً   ألا عِمْ صباحا أيها الطّلَـلُ البالي

---

(1) ابن زمرك، محمد بن يوسف: الديوان. ص: 138.
ينظر: المقري، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 2، ص: 66.
(2) ابن زمرك، محمد : الديوان . ص: 101.
ينظر : ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة . ص: 283.

وقلتُ أجز يا خـــــدِّهِ فأجازني   وهل يعمنَ من كان في العصرِ الخالي[1]

(الطويل)

ويظهر تأثُّر ابن جزّى بامريء القيس واضحاً، فقد عارض في أبياته هذه لاميته التي مطلعها:

ألا عِمْ صباحا أيها الطّلَلُ البالي   وهل ينعمنَ من كان في العصر الخالي[2]

(السريع)

وسماه بسلمى في أشعاره، ليلم بإخفائه في أشعاره.

ونجد أن عادة التغزل بالغلمان كانت ظاهرة اجتماعية متفشية في المجتمــع الأندلســي، وأسرفوا في تصويرها، حتى هؤلاء الذين ترتبط أسماؤهم بسمات من الوقار قد تورطــوا فــي إنشاء الغزل بالغلمان، وأصبحت هذه العادة الغريبة جزءا من كيان المجتمع آنذاك.[3]

ودخل هذا الغزل الشّاذ الأندلس مثل بقيّة الأشعار الأخرى، ضمن الدواوين الكثيرة التي دخلــت الأندلس، وبخاصة ديوان أبي نواس وأشعار المجّان الآخرين الذين كانت بغداد تعجّ بهم.[4]

وامتاز الغزل، بقسميه الأنثوي والغلامي، باستقلاليته في قصائدَ كاملة ومقطوعات خالصة لم تخرج عنه إلى موضوعات أخرى، إضافة إلى وروده في مقدمات القصائد، ولا سيما المــديح منها. ومنهم مَنْ بدأ قصيدته الغزليّة بوصف للطبيعة، يقول ابن خاتمة الأنصاري:

حيّا الرّبيعُ بنرجـــــــسٍ وبَهار   فاردد تحيَّتــهُ بكأسٍ عُقارِ
والأرضُ قد لبست مطارِفَ نَبتِها   وتوشَّحت بصوارِمِ الأنهارِ[5]

(الكامل)

---

[1] ابن الأحمر، اسماعيل: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. ص: 294.
ينظر: طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي، ص: 60.
[2] امرؤ القيس: الديوان. شرح حسن السندوبي. ط: 5. القاهرة: مطبعة الاستقامة. ص: 158.
[3] الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه. ص: 54.
[4] محمد، سعيد: الشعر في قرطبة، أبو ظبي: المجمع الثقافي. 2003. ص: 325.
[5] ابن خاتمة الأنصاري. الديوان. ص: 76.

المبحث الثامن: الخمريات

كانت الخمريات من أكثر الفنون الشعرية ذيوعا بين شعراء الأندلس، مخالفين ذلك التحريم الديني للخمر، بيد أن ما كان يشربونه لم يكن كله من العنب، بل عرفوا صنوفا أخرى من العصير كان شربها حلالا بشروط، أو لم ينته الناس في أمرها إِلى رأي، وكانت عادة الشاربين أن يجتمعوا على الكؤوس في الصباح (الصبوح)، أو في المساء (الغبوق)، وكانوا يُبَرِّدُون الخمر ويمزجونها بالماء. وأغلب ما يكون اجتماعهم للشراب في قاعة واسعة، أو في رحبة الدار أو في موضع من مواضع اللهو في الرياض.[1]

وتراجعت الخمريات في نهاية عصر الموحدين بعد سقوط الكثير من المدن الأندلسية في أيدي الإسبان، وبدأت شمسها بالأفول ليحل محلها رثاء المدن، الذي فاضت عبقرية ناظميه، فأبدعوا أروع المراثي وأصدقها وقعا في النفوس. وفي عصر غرناطة، الذي اتَّسم بالرخاء والإزدهار الثقافي، بدأ هذا الفن يستعيد عافيته، وساعد على ذلك النهوض بالغناء الذي ذاع وفشا حتى في دكاكين الحاضرة غرناطة. وعرفت الأندلس في أيام السلطان أبي الحجاج يوسف وابنه الغني بالله طائفة من أئمة الشعر الخمري أمثال: ابن الجياب، ويحيى بن هذيل، وابن خميس، وابن خاتمة الأنصاري، وابن الخطيب وابن زمرك، وغيرهم. وفي أواخر هذا العهد ، وبالتحديد في أواخر القرن الثامن، لم يسطع في سماء الشعر الخمري سوى ابن الأزرق الغرناطي.[2]

وتحدّثت موضوعات شعر الخمرة حول عصرها، ووصف لونها وطعمها، وصفائها وبريقها، وطيب فعلها في النفوس ورقتها، وقدمها وسكبها، ووصفوا آنيتها من كؤوس وأباريق وجرار، والمجالس وما يدور فيها من نديم وساق ومغن. والتغني بشربها في أحضان الطبيعة الفاتنة، والدعوات إِلى استدامة السكر والحث على المجاهرة ومبادرة اللذات، والشرب مع المسيحيين، وقصص المغامرات التي تجري في الحانات والأديرة. وبذلك يكون أهل الأندلس غير مقصرين

[1] جوميث، إميليو: الشعر الأندلسي. ص: 66.

[2] طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص: 67.

في خمرياتهم ، فيصورون مجتمعهم على مر عصـــوره، طـــارقين بـــذلك أغـــراض الشـــعر الخمري.[1]

وفيما يتعلق بمجالس الخمر، نشير أنها كانت تمثل مجتمع الأندلس خير تمثيل، فهي مـــرآة صادقة تعكس حياة الناس وطريقة عَيْشِهِم، وكان الشعراء يصفونها بدقة وإفتنان، فتبـــدو القيـــان وهي تغني، والغلمان وهي تدير الكؤوس على الشاربين. وكل هذا يجري في طبيعة حباهـــا الله كل أسباب الجمال. وقد وصفوا الآلات التي كانت تعزف الألحان أثناء شربهم، وكأنهم يعيشـــون احتفالا لا ينقطع. وأكثر خمرياتهم كانت تجري في جوف الليل حيث يســـود الهـــدوء، وتصـــفو النفس، وهو ما صرح به ابن الخطيب في وصفه لمجالس الأنس يقول:

أدرها بين مزمـــــارٍ وعودِ	ودونكَ فاغتنم زمنَ الســـــعودِ
وجُنْحُ الليل مطويٌّ النَّواحي	وضوءُ الفجرِ منشـــــورُ البنودِ
وإن قام الغمـــام بها خطيباً	ترى الإبريق يسرع في السجود[2]

(الوافر)

وكثيرا ما كانت هذه المجالس تجري في أحضان الطبيعة، ويبدو أن فريقاً من الشـــعراء كانوا يقيمونها وقت الصباح، حيث الشمس تسطع بأشعتها التي تصافح مياه الجداول والأنهـــار، والطيور تصدح بأجمل الألحان فوق أغصانها. وفي هذه الأثناء كانت المغنيات يطلقـــن أجمـــل الأغاني. يقول صالح بن يزيد بن شريف النفزي:

وغانية يُغْني عن العودِ صوتُها	وجارية تسقي وســـــاقية تجري
بحيث يجرُّ النهر ذيل مجـــرَّة	يرفُّ على حافاتها الزُّهر كالزَّهر[3]

(الطويل)

---

[1] طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص: 67.
ينظر: البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الإنبعاث. ص:74.
ينظر: غريب، جورج: شعراء اللهو والخمر، تاريخه وأعلامه. ط 1. بيروت ، دار الثقافة 1966.
[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان ، 8: 1. ص، 282-283.
[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة . ج: 3. ص: 283.

وانتشرت عادة زيارة حانات المسيحيين واليهود في الشعر الأندلسي، وهي عادة معروفة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، إذ كان يقصدها شاربو الخمر، فينبهون الخمار ويبتاعون منه أفضل الخمور وأجودها.[1] يقول الفقيه محمد بن أحمد اللخمي الطرسوني واصفا ما جــرى معهم عند دخولهم حانة أحد المسيحيين:

طرقنا ديورَ القوم وَهْناً وتغليســاً ... وقد شرَّفوا الناسوتَ إذ عبدوا عيسى
وقد رفعوا الإنجيلَ فوق رؤوسِهم ... وقد قدَّسوا الروحَ المقدّس تقديــسا
فما استيقظوا إلا لصــكةِ بابِهم ... فأدهشت رهباناً وروَّع قسّيــــــسا
وقام بها البطريقُ يســعى ملبِّيا ... وقد أصْمَت الناقوسَ رفقاً وتأنيســا
فقلنا له: أمناً فإنا عصـــــــابةٌ ... أتينا لتثليث وإن شئتَ تســــــديسا
وما قصــدنا إلا الكؤوس وإنّما ... لحنّا له في القول خُبثا وتدليســـــا
ففُتِّحت الأبوابُ بالرّحــب منهم ... وعرَّس طلابُ المدامة تعريســــا[2]
فلما رأى زقي أمامي ومزهري ... دعاني تأنيّاً لحنثٍ وتلبيســــــــــاً
وقام إلى دنٍّ ففضَّ ختامَـــــــهُ ... فكبَّس أجرام الغياهب تكبيســــــا[3]

(الطويل)

وأشارت الأبيات إلى عادات أجراها المسيحيون في شربهم، وهي التتابع في شرب الكؤوس، فإمّا أن تكـــون ثلاثة أو ســـــــتة متتابعات، وهو ما عناهُ في قولهِ:(أتينا لتثليث وإن شئتَ تسديسا).[4]

وارتبطت زيارة الحوانيت عند العرب قديماً، بالترف والمال الوفير، فإن وجد المال شربوها في بيئات يغمرها الترف، وإن أعوزهم ، عكفوا عليها في الريف، أو في خباءٍ من شَعَر.[5]

---

(1) طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص: 76.

(2) التعريس : النزول آخر الليل.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة. ص: 179.

(4) أورد صاحب النفح هذه الأبيات على لسان يحيى بن هذيل. النفح 7 / 37 – 38.

(5) حسنين، محمد:أساليب الصناعة من شعر الخمرة والأسفار بين الأعشى والجاهليين. بيروت: دار النهضة العربية.1972. ص: 37.

وتميزت خمريات الأندلس بالتهتك الصريح، وبالفسوق والاستهتار، وكانوا يسرفون في وصف مجالسها، وما يدور فيها من مجاذبات تحدث بينهم وبين النساء اللواتي يعملن في هذه الحانات، فهم يبيحون الحرام من أجل إرضاء ملذاتهم،يقول ابن الخطيب:

لا توقدِ المصباحَ وأعلم أن لي ... من وجهِ مَنْ أحببتُهُ مصباحا
حُثَّ الكؤوسَ وهاتنيها قهوةً ... تنفي الهمومَ وتجلبُ الأفراحا
مِن كفِّ فاتنةِ اللِّحاظِ غريرةٍ ... سكرى الجُفُونِ، وما سُقين الرّاحا
هي روضةٌ تجنيك، بين لِثاتها ... خمراً، ومن وجناتها تفّاحا
فإذا اعتنقت أو ارتشفت فإنَّما ... عانقت غصنا وارتشفت أقاحا
وامزجْ بصرفِ الرَّاحِ عذبَ رضابِها ... ما ضرَّ أن خَلَفَ الحرامُ مباحا[1]

(الكامل)

وحاول الأندلسيون تقليد إخوانهم المشارقة في خمرياتهم، وجاء هذا في معظم صورهم التي نجدها واضحة في خمريات أبي نواس، ولكنّهم لم يستطيعوا أن يلحقوا بهم، فهذه الأبيات استطاع أبو نواس أن يجمل معانيها في بيت واحد حيث يقول:

تسقيكَ من يَدِها خمراً ومن فمِها ... خمراً، فمالك من سكرين من بُدِّ[2]

(البسيط)

ويأتينا من خلال هذه المجالس وصف الساقي، فهو غلام جميل المنظر. ويبالغُ ابن زمرك في وصف جماله، فهو أجمل من البدر. يقول:

في كفّ شفّاف تجسد نوره ... من جوهر لألاءُ بهجتهُ بَهَرْ
تهوى البدور كماله وتود أن ... لو أوتيت منه المحاسن والغرر[3]

(الكامل)

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين : الديوان . ج : 1. ص : 222.
[2] أبو نواس: الديوان — الخمريات. ت: فوزي عطوي. بيروت: دار صعب. 1971. ص: 16.
[3] ابن زمرك، محمد بن يوسف : الديوان . ص : 41.
ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامن. ص: 80.

وساعدت طبيعة الأندلس وكثرة الكروم فيها على تنوع أنواعها وطريقة صـنعها، فهـي تداس بالأرجل ليتم عصرها، ثم توضع لفترة حتى تفعل فعلها في العقول، يقول ابن الخطيب:

لا تعجبنَّ لطالبٍ نال العـــلا كهلاً وأُخفِضَ في الزّمانِ الأول

فالخمر تحكم في العقول مُسِنَّةً وتداس أول عصــرها بالأرجلِ[1]

(الكامل)

وتعددت ألوان الخمرة عندهم، وهذا جاء نتيجة لتنوع الكروم التي كانت تؤخـذ منهـا، وأشهرها الخمرة الحمراء ، فوصفوا رائحتها، فهي كالمسك ريحا، فقد أطال صانعوها وضـعها في الجرار، فأصبح لونها قريبا من لون التبر. يقول أبو عبد الله محمد بن خميس:

كالمسكِ ريحاً واللَّمى مطعماً والتِّبر لونا والهوى في اعتدال

عتَّقها في الدَّنِّ خـــمّارُها والبِكرُ لا تعرف غيرَ الحجال[2]

(السريع)

فمن أشهر المزايا التي وصفت بها الخمر قدمُها وعتقها، وهي من الصفات التي أشار إليها الشعر العربي قبل أبي نواس، فالخمر الأصيلة والكريمة عندهم، هي الخمر التي قدم العهد بها.[3] وبالـــغ البعض في مدحها، فهـــي عندهم دواء يذهـــب الهمّ عــن القلوب. يقــول ابن قطبة الدوسي:

يومُنا يومُ سرور فَلْتقُم تَصدَعِ الهمَّ بكاساتِ المُدام

إنَّما الدُّنيا منام فلتكن مغــرماً فيها بأحلى المنامِ[4]

(الرمل)

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين : الديوان . ج : 2. ص : 525.

(2) المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب . ج : 6. ص : 299.

ينظر : ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة. ص 229–266.

(3) العشماوي، زكي: موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العبّاسي. بيروت: دار النهضة العربية. ص: 228.

(4) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2 . ص: 160.

غير أن محمد بن عياش المُكَنَّى بابن عيشون قد ذمَّها وبيَّن فسادها، وأظهر مـــا تجلبـــه على صاحبها من هدر للمال والعقل، وإلى جانب هذا فإنها تحطُّ من مكانة من يعاقرهـــا، فهـــي تجعل السيد الكريم سفيها. يقول:

لقد ذمَّ بعضَ الخمـــر قومٌ لأنَّها   تُكِرُّ على ديـــن الفتى بفسادِ
وقد ســـلَّموا قول الذي قال إِنها   تَحلُّ مـــــن الدنيا بأعظم نادِ
وتذهب بالمال العظيم فلن ترى   لمُدْمِنها مـــــن طارفٍ وتلادِ
فيمسي كريما ســـيِّداً ثم يغتدي   سفيهاً حليفَ الغيِّ بعد رشادِ[1]

(الطويل)

وهذا يدلّ على بروز تيَّار معادٍ لهذا السفور الذي أظهرَهُ الشعراء الخمريّون، وهذا الشعر اتّسم بطابع الحكمة والإقناع وهو يقترب من شعر الزهد والتصوّف.

وعلى الرغم من غزارة الشعر الخمري وظهور شعراء موهوبين، فقد جـــاءت عنـــدهم الكثير من المعاني مكررة ،على نحو ما رأينا في وصف مجالسها عند ابـــن الخطيـــب ومحمـــد اللخمي الطرسوني. وكأن الشعراء يحاكي بعضهم الآخر.

ونرى أن بعضهم وصفها لإظهار براعته في الوصف ليس إلا، فهو لم يتعاطاها كما فعل غيره، ولهذا نجد شعرا قيل فيها، وقد صدر عن العديد من الفقهاء أمثال الفقيه اللخمي وغيره.

---

(1)ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص : 97.

المبحث التاسع: الإخوانيات

تنوّعت الأشعار التي جاءت في هذا الباب، ونقصد بالإخوانيات تلك التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم، من رغبة ورهبة، ومن عتاب واعتذار، ومن تهنئة وشكر...ودارت هذه الأشعار بين مختلف طبقات المجتمع ، فعبَّروا عمَّا يجول في نفوسهم، وما يشوبهم من مشاعر جياشة بأبيات أوجزت الكثير من الكلام.

ولعلَّ أكثرها ما جاء في التهنئة، فهم لم يتركوا مناسبة إلا وأنشدوا فيها مهنئين من يعنيهم من الأحبة والأصحاب. ونتيجة لما عصف بالأندلس من أحداث جسام تسببت في سقوط الكثير من المدن، فقد برز العديد من الملوك الذين حاربوا الإسبان بكلّ قوة، فحققوا الكثير من الإنتصارات ، فانبرى الشعراء ينشدونهم القصائد التي تمدحهم وتهنئهم بالنصر. وحاولوا أن يظهروا هذه الفتوح بأنها عظيمة لا يقوم بها إلا العظماء. وهم في هذا لا يغيب عنهم أن يذكّروا العامة بأن ملوكهم هم من الأنصار الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فآزروه ونصروه. ولابن زمرك أبياتُ يهنئ فيها سلطانه الغني بالله بفتح بلاد المغرب حيث يقول:

هي نفحة هبَّت من الأنصار وأهدتكَ فتح ممالكِ الأمصارِ
فتحُ الفتوحِ أتاك في حلل الرضا بعجائب الأزمان والأعصار
فتحُ الفتوحِ جنيت من أفنانه ما شئتَ من نصرٍ ومن أنصار[1]

(الكامل)

وجاءت المعاني متشابهة عندهم، فهي لا تخرج عن كونها تمجيد للبطولة، وأن سبب النصر هي شجاعتهم أثناء قيادتهم للمعركة، فهذا النصر جلب للإسلام العزة والمنعة، وساهم في تمكينه كما حدث في بيعة الرضوان في عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، يقول ابن الخطيب مهنئا السلطان أبي سالم المريني بفتح تلمسان:

أطاع لساني في مديحك إحساني وقد لَهِجتْ نفسي بفتح تلمسان

---

[1] المقّري: أحمد بن محمد : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 6. ص: 143-144.
ابن زمرك، محمد بن يوسف: الديوان . ص: 58.

وقدتَ إلى الأعداء فيها مبادرا ليوث رجالٍ في مناكبِ عِقّبـــان
تمدُّ بنود النَّصـــرِ منهم ظلالها على كل مِطعام العشِّيات مِطعان
لقد كستْ الإِسلامَ بيعتُكَ الرِّضا وكـــان على أهليه بيعةَ رضوانِ[1]

(الطويل)

و من باب التهنئة بالأعياد ما جاء في قصيدة لابن الجياب يهنئ فيها أبا عبد الله محمـــد بن الحكيم اللخمي بعيد الفطر يقول :

يا قادما عمَّت الدنيا بشــــــــائره أهلا بمقدمك الميمـــون طائره
و مرحبا بكَ من عيدٍ تحفُّ بـــــــه من الســـــــعاد أَجنادٌ تظافره
قدِمت فالخلقُ في نعمى وفي جذل أَبدى بك البشر باديه وحاضره[2]

(البسيط)

وانتشرت ظاهرة الاحتفال بالأعياد المسيحية وقد تجلت من خـــلال تهنئـــة الســـلاطين وإنشادهم المدائح بمناسبة عيد النيروز في عصر بني الأحمر، ومن أبرز الشواهد على ذلـــك، قصائد لسان الدين بن الخطيب.[3] ومنها قصيدة أنشدها بين يدي الحجاج يوسف الأول بن نصر في النيروز لعام ستة وثلاثين وسبعمئة يقول فيها:

يهنيك نيروز ســـــعيد قد انقضى أتتك على آثاره منـــــه أعداد
أتاك على علمٍ بجودك في الورى فأمَّل من جدواكَ ما هو يعتادُ
وما هو إلا رائدٌ لبشـــــــــــائرٍ فـــلا زال يحدوها إليكَ ويقتاد[4]

(الطويل)

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج : ح ، ص 588.
ينظر ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب. ص : 94- 95.
[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة . ج: ح. ص: 315.
ينظر: المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب . ج : 7. ص: 41.
[3] جرّار، صلاح: زمان الأنس، دراسات في التفاعل الحضاري والثقافي في الأندلس، ط: 1 . بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنتشر 2004.
[4] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان . ج : 1 . ص : 271- 274.

وتكشف هذه الإحتفالات عن انخراط المجتمع الأندلسي على اختلاف شرائحه، في مشاركة المسيحيين أعيادهم، حتى غدت في الأندلس ليست أعيادا مسيحية، بل أعيادا أندلسية.[1]

واحتفل الشعراء مهنئين ملوكهم بالشفاء من المرض، كقول محمد بن عمر القرشي مهنئا أمير المسلمين أبا الحجاج يوسف بعد شفائه. يقول:

عادت ببرئك بهجـــــــة الأيام | واستقبلتك بثغرها البسَّام
فانزاحَ عنك الضَّيرُ غير معاودٍ | وأُتيح بالآمـــال كلُّ مرامِ[2]

(الكامل)

وشملت التهنئات العديد من المناسبات الإجتماعية كالتهنئة بالمولود والإعـذار. ولأبـن الخطيب مراسلات جرت بينه وبين عبد الله بن خلدون، وفيها يهنئه بمولوده الجديد يقول:

لم لا تنالُ العُلى أو يعقــد التَّاج | والمشتري طالعٌ والشمسِ هيلاجُ
والسَّعد يركضُ في ميدانها فرحاً | جـــــذلان والفلك الدَّوَّار هِملاج[3]

(البسيط)

ويقول في غرض الإعذار لولد السلطان أبي عنان

شَحَطتْ وَفَوْدُ الليلِ بانَ بهِ الوَخْطُ | وعسكره الزنجي همَّ به القبط[4]
أتاه وليدُ الصبحِ من بعد كبـــرهِ | أيُولدَ أجنى ناحل الجسمِ مُشْمَطُّ[5]
كأنَّ النجومَ الزُّهرَ أعشارُ سورةٍ | ومن خطراتِ الرَّجم أثناءها قطُّ[6]

(الطويل)

---

[1] جرار، صلاح: زمان الوصل . ص : 119.
[2] ابن الأحمر، أبو الوليد اسماعيل: نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان . ص: 162.
[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص : 214.
[4] شحطت : بعدت ونأيت، وفود الليل، معظم شعر الرأس . الوخط : الشيب.
[5] الأجنى: الأحدب : المشمّط : بياض الرأس يخالط سواده. القاموس المحيط. ص : 870. مادة شمط.
[6] المقري: أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب . ج: 8 . ص: 157.

وساد العتاب بين الأخوان ليعبر عن ألم لما حل بينهم، وهو في طياته يحمل دعوة لعودة الصفاء إلى النفوس، ونرى المعاتب في أشعاره يميل إلى الشكوى مما أصابه بسبب من يعاتـــب. ومن ذلك عتاب ابن الجيّاب إلى أبي القاسم بن أبي العافية حيث يقول:

عتبتَ ولم تغدر وتزعــم أنَّني   لك الصـــاحبُ الخوّان ملَّ وتاركا
ولو أنني نازلتُ منك نظــيرَها   بسطتُ على ما كان منكَ اعتذاركا
صدعتَ فؤادي بالعتابِ وإنَّــه   لمنـــــزلك الأرضي فخرّبتَ داركا
فيا ثائرَ العتبِ الذي قد عكستَهُ   بحــــقٍّ ألا فارجع على من أثاركا[1]

(الطويل)

والعتاب لا يجري بين الأعداء، فهو نقيض الهجاء. ويأتي في سياق دعوة يطلقها المحبّون لكي تعود عُرى المحبّة وثيقةً بينهم، ولهذا فإنّنا نلحظ صدق العاطفة بين المتعاتبين.

وإلى جانب العتاب نرى النصح والإرشاد، الذي يمثل علاقات صادقة تمتزج بتجـــارب عميقة، تصدر عن إنسان يتصف بالحكمة والمعرفة، ولإبن الخطيب رسالة يوجههـــا إلـــى ابـــن مرزوق ينصحه فيها بقوله:

والناس إمَّا جائـــرٌ   أو جائر يشكو ظُلامَهْ
وإذا أردت العزَّلا   ترزأ بني الدنيا قُلامة[2]
قولوا لنا ما عندكم   أهل الخطابة والإمامة[3]

(مجزوء الكامل)

(1) ابن الخطيب ، لسان الدين: الكتيبة الكامنة. ص: 185.
(2) القُلامةُ: ما سقط منه. ينظر: الفيروز آبادي، مج الدين: القاموس المحيط. ص: 1485. مادة قَلَمَ.
(3) المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 6. ص: 123- 124.

بعد هذا العرض لأشعار الإخوانيات، نستطيع أن ننظر إليها من جانبين:

أولهما: جانب يسعى للحصول على مكاسب تعود عليه بالمنفعة، على نحو ما رأينا في تهنئة الملوك بالنصر والشفاء من المرض.

ثانيهما: جانب يسعى لتحقيق أغراض إِنسانية تدل على صدق ووضوح في المشاعر والأحاسيس، ومن ذلك أشعار النصح والإرشاد والعتاب، فهي خالصة وبعيدة عن المنفعة الذاتية.

المبحث العاشر: الإستعطاف والشفاعات

فن قديم من فنون الشعر العربي، ويقال له أحيانا "الإعتذار" والمتتبع لهذا الفن، يرى أنَّ الشعر العربي لم يخل من شاعر أو أكثر نظموا الشعر استعطافا، أو اعتذارا عما تورطوا فيه من إساءة، كالهجاء مثلا، أو ما نسب إِليهم زورا وبهتانا بحق ملك أو ذي سلطان، بباعث الوشاية أو الغَيْرَةِ أو الحسدِ. وقصيدة الإستعطاف تدور أكثر معانيها، على ترفق الشاعر في الإحتجاج على براءته مّما نسب إِليه، واستمالة قلب المُسْتَعْطَفِ، وتذكيره بولائه وخدماته، ووصف ما يعاني من ضروب الحرمان.[1] وهذا اللون يكاد يتصل بالرثاء لما فيه من بكاء الماضي، وتألم من الحاضر. ويكاد يختص بطبقة الملوك والوزراء، لما نالهم من النكبات والمحن، فهبطوا بعد رفعة، وذلُّوا بعد عِزَّة،[2] وازدهار هذا اللون يرجع إِلى طمع الشعراء أنفسهم في أن تكون لهم المنازل المرموقة، والدرجات الرفيعة عند الملوك والرؤساء، وبهذا تهافتوا عليهم، وقد كان التسابق والتهافت الذي لا يخلو من الاحتكاك والنقد والحسد داعيا إِلى ما يسوق بهم إِلى المواقف المحرجة، والهفوات الشاذة، والأعمال النابية، وحينئذ تدعو الحاجة إِلى هذا اللون من الشعر.[3]

ولجأ الشعراء في استعطافهم ملوك بني الأحمر، إِلى إظهار شرعيتهم في الحكم، ويدعمها في ذلك ما تميزوا به من خصال حميدة. يقول ابن زمرك مستعطفا السلطان أبا الحجاج:

بما قد حزتَ من كرمِ الخلالِ　　　بما أدركتَ من رتبِ الجلال
بما خوَّلتَ من ديـــن ودنيا　　　بما قد حزتَ من شرفِ الجمالِ

---

[1] عتيق: عبد العزيز : الأدب العربي في الأندلس. ص: 230.
[2] البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الإنبعاث. ص 56.
[3] طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص: 142.

تغمدني بفضلك واغتفــرها ذنـــــوبا في الفِعال وفي المقالِ[1]

(الوافر)

ونرى أن الشاعر يلجأ في استعطافهِ إلى استخدام الاسم الموصول (ما) المتبوع بحــرف التحقيق (قد)، فهو بهذا يضع المستعطَفْ بين الاسم الموصول وما يحمل من دلالاتٍ تدلَّ علـــى عظم ومكانةٍ عالية وجملة الصلة التي تدل على النتيجة وهي أن يتغمدّه بفضلهِ وعطفهِ. (بما قــد حزت، بما خولّت = تغمدني). ويأتي استخدام التركيب الوصلي من أجل التحرّك بين نقطتين ليتمَّ من خلالهما تركيز الانتباه وإثارة الانفعال إلى عمق بعيد في النّفس، فالاسم الموصول كلمـــةٌ لا تفصحُ عن مضمونها إلا من خلال جملة الصلة.[2]

وبرز هذا الشعر إلى الوجود في عصر الدولة الأموية وكان الاستعطاف يصــدر فـــي معظمهِ عن مسجونين يوجِّهونه إلى الحاكم، فبقى في دائرة الاسترحام والاعتذار. ولو عدنا إلـــى أصل الاعتذار، لوجدناه نشأ نشوءاً من المديح، وإن كانت تتداخل فيه عاطفة الخوف مع عاطفـــة الشكر والرجاء.[3]

ويظهر أنَّ الكثير من شعراء السجون طرقوا هذا الموضوع؛ لأنَّه كان يمثل لديهم أمـــل الخلاص من السجن. وكانت أشعارهم أحيانا تغلفها مسحة من التذلل والخضـــوع للحـــاكم مـــع الإعتراف بالذنب، لتكون أبلغ تأثيرا في سبيل غايته، أو قد يختلط هذا الإستعطاف بالمدح، ليأخذ مأخذه في نفس الحاكم فيعفو ويصفح، وقد يتوجه الشاعر أحيانا بالاستعطاف عن طريق شـــفيع ليشفع له، ويتوسل به للوصول إلى ما يتمنى.[4]

وعالم السجن مختلف تماما عن عالم الحرية، وهو يـــتلخص بكلمـــات البـــؤس والقهـــر والعذاب الدائم. لذلك فإنّ معظم الشعراء وصفوا عذاباتهم خلف القضبان، فابن الخطيـــب الـــذي

[1] ابن زمرك، محمد بن يوسف: الديوان. ص: 105.
ينظر: المقري، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: ح، ص: 157-158.
ينظر: المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 9. ص: 92.
[2] الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص: 54.
[3] ضيف، شوقي: العصر الجاهلي. ط: 7. مصر: دار المعارف. 1960. ص: 211.
[4] الخطيب، رشا: تجربة السجن في الشعر الأندلسي. ط1. أبو ظبي. المجمع الثقافي. 1999. ص: 65.

دارت عليه الأيام، وانقلبت أحواله رأسا على عقب، وانحطّت منزلته ومقداره فأصـــابته المحــن حتى سقط في سجنه، ونكّل به أمام الملأ، يقول باكيا نفسه ومصيره:

بعدنا وإن جاورتنا البيـــوت وجئنا بوعظ ونحن صُموت

وكنَّا عِظاماً فصــــرنا عظاما وكنا نقــوتُ فها نحن قُوتْ

فقل للعدا ذهبَ ابنُ الخطيب وفاتَ ومَنْ ذا الذي لا يفوت[1]

(المتقارب)

ولأن ظلام السجن الذي خيم عليه كان هزة قوية مرّ بها هذا الوزير، فالسجن لأمثاله من كبار الشخصيات يعد صدمه قاسية، وهذا ظهر في شعره، فهو يبكي نفسه متوقعا مصيره المؤلم على يد أعدائه الذين أدخلوه السجن.

وأبو الحجاج يوسف بن الأحمر، يشكو في سجنه في شلوبانية من هذه المأساة التي ألمّت به طوال هذه السنوات، ولم يطلق إلا بعد وفاة سجّانه أخيه الأمير محمد. يقول:

لقد خاض لجّ الحب مني فتى غِرّ وشبتُ فشبّت في ضلوعي له جمرُ

وما شبتُ من سن ولكن أشـــابني صروفُ زمانٍ سوف يلغي به الجبرُ

دع الدهرَ والأيامَ وارق تكســبا لنيل معــــــال عندها يُرفع القدر[2]

(الطويل)

فالشيب قد غزا مفارق شعره، ولما يجاوز سن الشباب، والشيب علامــة علـــى مـــرور الزمن وسنوات العمر، فكان همّ سجنه يأكل من ربيع عمره دون أن يشعر به.

ولابن هذيل التجيبي أشعار رقيقة تصور مأساته داخل السجن، ويصف بُعْدَهُ عن منـــزل الحبيب، وهو يعيش حالة من القهر لما حل به، فهو قريب من أحبابه، لكنه لا يستطيع وصالهم، مما زاده ألماً، وهو يعيش في غابة وبين وسط من الليوث تريد افتراسه. يقول:

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 185.

(2) يوسف الثالث: الديوان. ص 62.

ينظر: الخطيب، تجربة السجن في الشعر الأندلسي. ص: 86.

تباعدَ عني منزلٌ وحبيـــــــــــــبُ   وهاج اشـــتياقي والمزارُ قريب
وإني على قرب الحبيب مع النوى   يكـــــــــاد إذا اشتد الأنين يجيب
لقد بعدت عني ديار قريبـــــــــــة   عجبت لجار الجنب وهو غريب[1]

(الطويل)

ثم يشكو الدهر وما فعله به، فهو دائم الحزن والبكاء، ولا يلجأ في ســـجنه إلا إلـــى الله الذي يفرج كربة المكروبين. يقول:

أيا دهرُ، إني قد سئمتُ تهدمي   أجرني فإنَّ السَّهم منكَ مصيبُ
دعوتكَ ربي والدعاءُ ضراعةٌ   وأنـــــتَ تُنَاجى بالدعا فتجيب[2]

(الطويل)

وسادت هذه الأشعار المشاعر الحزينة التي عبرت عن نفس جريحة نال منها الزمان ما نال، وظهر الانكسار عند الشعراء واضحا، وعبّروا عنه من خلال تعابيرهم التي تراوحت بـــين التذلل والبكاء. ومِمَّا زاد في ألمهم ، أنّ شعورهم بقرب الأجل قد تمكن في نفوســـهم، فـــالزمن يسير والحياة تجري، وهم ما يزالون في مكانهم ينتظرون الموت الذي يقف بباب سجنهم.

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 4. ص: 340.
(2) ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر السابق. ج: 4. ص: 341.

المبحث الحادي عشر: شعر الحنين

توسع الأندلسيون في شعر الحنين، فمعظم من رحلوا من الأندلس، وما أكثرهم! كانوا من ذوي الأقلام الشاعرة. وليس كالاغتراب شيء يزيد من حنين الإنسان إِلى وطنه وتعلقه به، وهذا ما حدث لهؤلاء الأندلسيين، سواء أكان اغترابهم بالانتقال من الغرب إِلى الشرق، أم بالانتقال لسبب أو لآخر من مدينة إِلى مدينة بالأندلس. فكانوا كلَّما اشتدت عليهم وطأة الاغتراب ونالت من نفوسهم، فزعوا إِلى الشعر يبثون توقهم وحنينهم المشوب إِلى أوطانهم وأحبابهم.[1]

وتعددت ألوان الشكوى ، فمنهم من شكا سوء الحال وظلم الحياة، ومنهم من شكا الغربة وآلامها ، يقول صالح بن يزيد النفزي مبينا ما أصابه بسبب الغربة:

غريبٌ كلّما يلقى غريب   فــلا وطنٌ لديه ولا حَبيبُ
تذكَّر أصْلَهُ فبكى اشتياقا   وليس غريباً أن يبكي غريبُ[2]

(الوافر)

ويخاطب محمد بن الحكيم اللخمي أهله في مدينة تونس حيث يقول:

حيِّ حيِّ بالله يا ريح نجــد   وتحمَّل عظيمَ شوقي ووجدي
بي شوق إِليهم ليس يعزى   بجميــل ولا لسكان نجد[3]

(الخفيف)

وأكثرَ الشعراء من لومهم للزمن، وما أصابهم من تشرد كان بفعل تقلباته التي كانت السبب في إبعاد ابن الخطيب عن وطنه. ونراه يعبّر عن حبّه له فيقول في شوقه إلى غرناطة:

أيام قربكِ عندي ما لها ثمــن   لكنني صــدَّني عن قربك الزَّمنُ

---

[1] عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 273.

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 283-284.

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر نفسه. ج: 2. ص: 321

ينظر : المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 3. ص: 218.

حططتُ بعدكِ يا أهلي ويا وطني		رحلَ الغريبُ فلا أهلَ ولا وطنُ[1]

(البسيط)

وأظهروا في شكواهم إيمانا بالقضاء والقدر، فتبدل الحال هو من تقدير الله عز وجــل، فالأيام لا تدوم لواحد، ولكن الله باق ولا يتبدل.. يقول ابن الخطيب مخاطبا الغني بالله:

الحق يعلو والأباطل تســفُل		والله عن أحكامه لا يُســـــأل

وإذا استحالت حالة وتبدلــت		فالله عــــــز وجل لا يتبدلُ

واليسرُ بعد العسرِ موعودٌ به		والصبرُ بالفرجِ القريب مُوَكَّل[2]

(الكامل)

وظهر اليأس كثيراً في أشعارهم ،وهذا نلمحه واضحا عند القاضي أبي البركات البلفيقي حيث يقول :

قالوا : تغرَّبتَّ عن أهل وعن وطنٍ		فقلتُ: لم يبقَ لي أهلٌ ولا وطنُ

مضى الأحبَّةُ والأهلون كُلُّهُـــــــم		وليس لي بعدهم سُكْنى ولا سَكَن

أفرغتُ دمعي وحزني بعــدهم فأنا		مـــــن بعدِ ذلك لا دمعُ ولا حَزَن[3]

(الطويل)

فاليأس باد في أبياته،ونراه يلجأُ إلى الألفاظ التي تدلّ علـــى فقــد الأمـــل (تغرَّبـــتَ،لم يبقَ،ليس لي،مضى الأحبة، أفرغتُ دمعي) . وكذلك فقد كرَّر حرف النفي(لا) ليؤكِّدَ على يأسِـــهِ من العودة إلى وطنه ،فالذي يربطه به لم يعد موجودا.

وتشابه شعر الاستعطاف مع الحنين، فكلاهما يقوم على الشكوى مـــن الحـــال وغـــدر والزمان، وظهرت من خلالهما حالة اليأس واضحة في أشعارهم، فهم لم يعودوا يفرقـــون بـــين الحزن والفرح، أو الموت والحياة، فالأيّام تمرُّ في سِجْنِهِم دونَ قيمةٍ تُذْكَر.

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب. ص: 189
ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان، ج: ح. ص: 621.

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب. ص: 287.
ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان، ج: ح. ص: 495.

[3] النباهي، أبو الحسن: تاريخ قضاة الأندلس. ت: د: مريم الطويل.ط: 1. بيروت :دار الكتب العلمية. 1995.ص:205. 40-41.

المبحث الثاني عشر: الشعر الديني

ونقصد به شعر الزهد والتصوف، وهما مرتبطان بعضهما بعضاً، وظهر هـذا الشـعر بالأندلس في فترة الإمارة كردٍّ على حياة اللهو والمجون، أو لتكفير الذنوب في أيام الشيخوخة.

وكان هذا الشعر يصدر عن فقهاءَ أتقياءَ مؤمنين، أو عن أناسٍ تاب بعضُهُم في أواخـر أيامهم، ثم تطور هذا الشعر في بقية العصور الأندلسية.

ومن الزهد نشأ التصوف، فساد في عصر السيطرة المغربية نتيجة للظروف القاسية التي كان يعيشها بعض الناس، وبدافع الإيمان بالله، فالزاهد ينصرف عن الملذات طمعا في الآخـرة، أما الصوفي، فإنَّ همَّه هو وقته الحاضر، وهدفه هو معرفة الله والإتّصال الدائم به.[1]

ومن غير العجيب أن يظهر فن الزُّهد في الأندلس، وقد علمنا ما للفقهاء من سلطان على الخاصة والعامة، فلا بدّ لهذا السلطان أن يقود إِلى التعصب للدين، والتمسك بأحكامه، ثـم إِلـى التظاهر بالعبادة والتقوى، والنفور من الدنيا وزينتها، والإبتعاد عن زخرفها وغرورها، فيكثـر الشعراء المتزهدون حتى يصبحَ الزهد صناعة مطلوبة، وزيّا مرغوبا فيه، فمنهم من ينظم بعامل التقوى والصلاح، ومنهم من ينظم اقتداء بغيره وإرضاء للفن. ومنهم من ينظر إِلى الحياة الـدنيا نظرة خائف فيذم غرورها، ويذكر ذنوبه، وجنونه بملذات الحياة فيندم ويعتذر إِلى الله.[2]

ويمكن أن نردَّ وجود هذا القسط من شعر الزهد والتصوف إِلى أنَّها جاءت تلبية لرغبـة الأمير، وهذا ما نراه في قول ابن الخطيب، يقول: وقلت وقد تشيع السلطان – رحمة الله عليه – للصوفية والفقراء وأحضرهم مجلسه، وأمرهم بالنظم في طريقهم:

هبَّ النسـيمُ معطَّرَ الآراجِ فشـفى لواعجَ قلبي المهتاجِ

---

(1) طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي، ص: 128.

ينظر: الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. ص: 57.

ينظر: السعيد، محمد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس. ط ح: بيروت: الدار العربية للموسوعات 1985. ص: 259، 277.

(2) البستاني، بطرس: أدباء العرب في عصر الأندلس وعصر الإنبعاث، ص: 62.

فاشرب على ذكر الحبيب وسقِّني   صهباءَ تسرق في الظلام الداجي[1]

(الخفيف)

وللتصوف ركنان هما : الزهد والحب الالهي ، وعلى هذا، فالتصوف أعمّ من الزهـد، فكل تصوف زهد، وليس كلُّ زهدٍ تصوفاً، والفرق بينهما هو الفرق بين المبالغةِ والاعتدالِ، وإذا كان الزهد دعوة للانصراف عن ترف الحياة ومباهجها، والاكتفاء بما يقيم الأَود ويستر الجسم، فإِنَّ التصوُّف شظف وخشونة وجوع وحرمان وإِعراض عن زينة الدنيا وزخرفها، والزهد فيما يقبل عليه عامة الناس من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة.[2]

و يرى بعضهم أنَّ هذا اللون من الشّعر لم ينتشر في الأندلس ذلك الانتشار الواسع؛ لأَنَّ الأخلاق كانت مرعية، والدين كان مقدسا، والتقاليد كانت واجبة الاحترام، والسبب في ذلك يرجع إِلى جانبين: **أولهما:** أنّ الوازع الديني في الأندلس له قداسته واحترامه، ويرهب الناس سلطانه، ويخافون بطشه، ويحسبون حسابه، على خلاف ما كان المشارقة.

ثانيهما : كانت الفلسفة في المشرق علة العلل، فهي التي أَشاعت البلابل والشكوك وخلفت الطائفية والمذهبية، وفتحت أبواب الشر كلِّها بعنوان حرية الفكر والبحث والنظر، و ترتب على كل هذا الانطلاق والانحراف والمجون والانغماس في الملذات؛ ممّا دفع الغيورين إلى مقاومتها بمختلف صنوف المقاومة التي كانت خاتمة مطافها هذا اللون من الشعر.[3]

وفي مملكة غرناطة ذاتها، كان التصوف منتشرا بين الخاصة والعامة، وفيها الكثير من الفرق الصوفيّة، وكان لهذه الفرق هدفان أَساسيان هما: الإيثار والجهاد، ولما كانت أَهم الحركات

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 42.

(2) عتيق ، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 225.

(3) أبو الخشب، إبراهيم: الأدب العربي في الأندلس. ص 192–193. ينظر: خفاجة،محمد:قصة الأدب في الأندلس.بيروت : منشورات مكتبة المعارف. 1962. ص: 63.

الجهادية حصلت زمن الغني بالله إذ بلغت غزواته ذروتها ما بين 767هـ و 771 هـ، فقد برز الجهاد كغرض فنّيّ في تلك الفترة.[1]

و ازدهر التَّصوُّف في هذه الفترة ،وكان من بين أَقطابه في ذلك الوقت أَبو الحسن علي بن فرحون القرشي، المتوفى سنه 751هـ، وأَبو اسحق إبراهيم بن يحيى الأنصاري، و قد ولد سنة 687هـ وتوفي بغرناطة سنة 751 هـ، وأبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري المولود سنة 649 هـ، وله كتاب (بغية المسالك في أشرف الممالك) في مراتب الصوفية.[2] وقد صور هؤلاء في أَشعارهم الوقت وقدوم الموت، والحديث عنه على أَنَّه غاية مرجوة، وذم الدنيا لأَنَّها فانية، والدعوة إِلى التقوى والصلاح وطاعة الله والتذكير بقدرته وقضائه، والابتعاد عن كل ما فيه حساب الآخرة والاعتراف بالذنوب والتوبة والتضرع إِلى الباري في الشيخوخة، والابتعاد عن المجتمع بسبب انشغال الحكام في الملذات وابتعادهم عن مقارعة العدو.[3]

وتركزت أكثر أشعارهم على ذمّ الحياة الدنيا، فهي دار فناء لا دار بقاء، ولا يتمسك بها إلا الجاهل الذي يبحث عن اللَّذة الآنية التي لا تدوم، يقول أَبو جعفر أَحمد بن صفوان في ذمِّها:

حديث الأمان في الحياة شجونٌ   إن أرضاك شأنٌ احفَظَتْكَ شؤون

يميل إِليها جاهلٌ بغرورها   فمِنهُ اشتياقٌ نحوها وأنينُ

تجافَ عن الدنيا ودِنْ باطِّراحها   فمركبها بالمُطْمعين حَرُون[4]

(الطويل)

وظهر هذا عند ابن خميس في وصفه الدنيا، فحالها حال المرأة التي تبغض زوجها وتكرهه فلا يرجى منها صلاحٌ ولا ينظر فيها أَملٌ، يقول:

تراجع من دنياك ما أَنت تارك   وتسأَلها العُتبى وها هي فاركُ[5]

---

[1] الحمصي، أحمد: ابن زمرك سيرته وأدبه. ص: 168.

[2] عنان، محمد: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين. ص: 467.

[3] طويل ، يوسف : مدخل الى الادب الاندلسي : ص128.

[4] ابن الخطيب ، لسان الدين : الاحاطة في أخبار غرناطة . ج:1. ص:96 .

[5] الفارك، المرأة التي تبغض زوجها وتكرهه، والعتبى: هي الاسترضاء. ينظر: ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب. ج: 10. مادة (فرك).

تؤمل بعد التَّرك رَجْعَ ودادِها وشـــــرٌ وداد ما تودُّ الترائكُ[1]

(الطويل)

وهذا قادهم إِلى التمسُّك برضى الله وطاعته و اللجوء إليه فهو يحكم في خلقه . يقول محمد بـــن الحكيم اللخمي في النسك واللجوء إِلى الله:

أيا مَنْ له الحكمُ في خَلْقه ويامَنْ بِكربْي له أشـــتكي
تولَّ أموري ولا تُسْلمني وإن أنتَ أســـلمتَنِي أهلكِ
تعاليتَ مِنْ مُفْصل مُنْعِمٍ ونزِّهت مِنْ طالبٍ مُدْرِكِ[2]

(المتقارب)

والخوف من الله ظاهر في أشعارهم، فهم يفرون إِليه طلبا للمغفرة على ما اقترفت أيديهم من ذنوب ومعاص، وتعللوا بأنهم عصوه عن جهل، وليس عن كبر وعناد، فهم يطمعـــون يـــوم القيامة بعفوه، فهو الحاكم العادل. يقول محمد بن عبد الواحد التلوى:

إلهي أجرني إننــــــي لكَ تائبُ وإنّي من ذنبـــــي إليك لهاربُ
عصيتُكَ جهلاً ثـــم جئتُكَ نادماً مُقرّا وقد ســـادَتْ عليَّ المذاهبُ
فخذ بيدي واقبل بفضلك توبتي وحقِّق رجائي في الذي أنا راغب[3]

(الطويل)

كان السعيُ وراء الآخرة واضحاً عندهم، فكلٌّ ما سبق من بعد عن الدُّنيا ومتاعها جعلهم يحرصون على تحقيق هدفهم. فغايتهم هي الحصول على الأجر والثواب. وجُلُّ ما يتمنون هـــو النجاة يوم القيامة. يقول أبو القاسم بن أحمد الكلبي مشفقا من ذنبه، ومتضرعا إِلى ربه:

ياربِّ إن ذنوبي قد عظمـــــــــت فما أطيق لها حصراً ولا عددا
وليس لي بعذابِ النَّارِ مـــــن قِبَلٍ ولا أطيقُ لها صبراً ولا جلدا

---

[1] المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 6. ص: 298.
[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2، ص: 180.
[3] ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر السابق . ج: 3. ص: 167.

فانظر إلهي إلى ضعفي ومسكنتي ولا تذيقنّي حـــرَّ الجحيم غدا[1]

(البسيط)

ووجد هؤلاء ذاتهم الضائعة من خلال صلتهم بالله عز وجل، فانزاحت عـــنهم الضـــلالة فأصبحوا يرون أمورا لا تستطيع العامة رؤيتها، وهم بهذا يرفعون من مكانتهم بين الناس، وهذا الشعور كان سائدا عندهم يقول أبو حيان محمد بن يوسف النفزي الغرناطي:

تفرَّدت لما أن جُمعــــــتُ بذاتي وأُسكِنتُ لما أن بَدَتْ حركاتي

فلم أر في الأكـــــوانِ غيراً لأنني أزَحْتُ عن الأغيار روحَ حياتي

وقدستُها عن رتبة لو تعيَّنـــــــتْ لها دائماً دامـــتْ لها حسراتي

فها أَنا قد أصعدتُها عن حضيضها إلى رُتبة تَقْضـــــي لها بثبات[2]

(الطويل)

ونخلص إلى نتيجة وهي أن الجوَّ الروحاني الذي عاشه هؤلاء قد تمكن في نفوسهم، ممّا دفعهم إلى الإبتعاد عن الدنيا وملاذها الزائل، فأكثروا من تأنيب مَـــنْ يُقْبِـــلُ عليهـــا، واتَّخـــذت أشعارهم طابع التحذير من خلال الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى. والمتتبع لأشعارهم يرى أنهم استطاعوا– كما يعتقدون– أن يروا أمورا لا نستطيع رؤيتها، وكأنَّ الحجاب قد رُفِعَ عنهم.

وكان للحرمان الأثر البالغ في انتشاره، فمنهم من اتخذه نتيجة للفقر المدقع والحرمـــان . فهم نظروا إلى الدنيا ولذاتها، فحاولوا التمتُّع بها، لكنَّهم لم يُوَفَّقُوا لسبب من الأســـباب فيئســـوا، وآثروا الزهد على الكفاح في سبيل العيش الهنيء، وناصبوا الحياة وصوروها على أنها باطل.[3]

وساعدت الحياة اللاهية على وجود هذا اللون من الشعر في مختلف الأعصر الإسلامية، فكانت الفتوحات مصدرا لإقتناء القصور نتيجة للغنائم الوفيرة التي كان يغنمها المســـلمون مـــن

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة فب من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة. ص: 47.

ينظر : المقري، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 3. ص: 187.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين:الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 39–40.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: : الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة. ص: 82.

(3) ناصيف: إميل: أروع ما قيل في الزهد والتصوف. بيروت– دار الجيل. ص: 8.

أعدائهم. وهذا قاد بعض الشعراء لكي يطلقوا صرخاتهم إِلى الحكام، من أجل أن لا يركنوا إِلـــى حياة الترف والمجون، وأن لا ينسوا أنَّ أعداء الإسلام يتربصون بهم.

المبحث الثالث عشر: الشعر التعليمي

هذا اللون من الشعر أبعد ما يكون عن الشعر بمعناه الخاص، أي الشعر الفنـــي الــذي يغلب عليه عنصرا الخيال والعاطفة، ويهدف إِلى الإمتاع والتأثير في النفوس. وهــذا اللـــون لا يلتقي مع الألوان الأخرى إلا في صفة النَّظم فقط، وأغلبه يأتي من الرجز، والقليل يأتي في غيره من بحور الشعر. وعُرِف الشعر التعليمي قبل عصر بني الأحمر، ومنه ما بدأهُ يحيى الغزال في القرن الثالث الهجري، ثم ابن عبد ربّه الذي نظم غزوات الناصر في أرجوزة مطوّلة. ثــم أبــو طالب عبد الجبّار الذي نظم أرجوزة في قيام دولة المرابطين، وقد نظم ابن الخطيب تاريخ دول الإسلام في أرجوزة سمّاها (رقم المحلل).[1]

وهذا الشعر يراد به الأراجيز والقصائد التاريخية أو العلمية، التي جــاءت فــي حكــم الكتب، وكذلك الكتب التي نظمت في حكم الأراجيز والقصائد، وهو ما يعبر عنــه المتــأخرون بالمتون المنظومة، كألفية الإمام مالك في نحو العربية، ممــا يجمــع قضــايا العلــوم والفنــون وضوابطها.[2]

ومن ذلك ما جاء به محمد بن أحمد بن مالك اللخمي اليَّكي، والذي يبين فضل الحــديث الشريف، ويصف تدوينه على يد صحابة رسول الله، والمنهج الدقيق والحازم في عملهم.

يقول واصفا عمل رجال الحديث:

لقد حاز أصحابُ الحديـــثِ وأهله ... شأواً وثيرا ومجــــــــداً مخلدا
فهم دوَّنوا علمَ الحديـــــثِ وأتقنوا ... ونصّوا بتبيين صحيحاً ومــسندا
وجاؤوا بأخبارِ الرســـولِ وصحبهِ ... على وجهها لفظاً ورَسْــما مقيدا
وهم نقلوا الآثارَ والســــــنَ التي ... مَنْ أصبح ذا أخذٍ بها فقد اهتدى

---

[1] بسبح، أحمد: لسان الدين بن الخطيب، عصرهُ، بيئتهُ، حياتهُ، وآثارهُ. ص: 20 – 21.
[2] عتيق: عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 329.
ينظر: أبو الخشب. تاريخ الأدب العربي في الأندلس. ص: 221– 223.

وهم أوضحوا من بعدهم بإجتهادهم وتبيينهم ســبلَ الهدى لمن اقتدى[1]

(الطويل)

ومن المطولات التي تصف علم النحو وتاريخه ما جاء به محمد بن يوسف بــن حيــان النفزي. فهو يرى بأن النحو هو أساس العلوم، فبه تعرف مقاصد القرآن والسنة. ويذكر النفــزي وبعض علمائه من أمثال أبي الأسود الدؤلي والخليل بن أحمد الفراهيدي. ولا يــنس أن يــذكر بعض الأحداث التاريخية التي واكبت هذا العلم، ونذكر منها لقاء ســيبويه بالخليــل بــن أحمــد الفراهيدي. وتعتبر هذه المطولة وثيقة تاريخية لميلاد علم النحو العربي. ونذكر منها قوله:

بهِ يعرف القرآن والســــنة التي هما أصلُ دينِ اللهِ ذو أنت عابده
لقد حازَ في الدنيا فخارا وسؤددا أبو الأسود الديلي فللجرِّ ســانده
هو استنبط العلمَ الذي جل قَدْرُهُ وطارَ به للعُرْبِ ذكــــرٌ نعاوده
وساد عطا نجله وابن هرمــــز ويحيى ونصــرٌ ثم ميمون ماهده
وعنبسة قد كان أبرع صـــحبه فقـــد قلّدت جيدَ المعالي قلائده
إلى أن أتى الدهر العقيم بواحد من الأزد تنميـــــه إليه فرائده
إمام الورى ذاك الخليل بن أحمد أقر له بالســبق في العلم حاسِدُهُ[2]

(الطويل)

ولشاعر المرية أبي عبدالله محمد بن الهواري، المعروف بابن جابر، قصيدة طويلة مــن بحر الطويل، وتدور حول ذكر فضائل الصحابة العشر وأهل البيت، ومــن هــؤلاء أبــو بكــر الصديق، عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وحمزة والعباس.

ومن هذه القصيدة في فضائل أبي بكر الصديق يقول:

فمنهم أبو بكــــرٍ خليفتُــــهُ الذي له الفضلُ والتقديمُ في كلِّ مشهدِ

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين:الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 44-45.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين:الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 35-36.

ينظر: بقية الأبيات، الصفحات: 35-39. وتقع المطولة في مئة وستة أبيات.

وصدّيق هادي الخلقِ والمؤثرُ الذي   لإنفاقه للمال في الله قـــــد هُدي
وصهرُ رسولِ اللهِ وابنتُـــــــهُ التي   يبرئها آي الكتابِ المُمـــــــجَّدِ
وصاحبه إذ قال في الغارِ لا تخفْ   فثالثنا ذو العـــرشِ أوثقُ منجـــد[1]

(الطويل)

فهذة الأبيات تشير إلى العديد من الأحداث التي جرت في بدايات الدعوة المحمديّة ، وهي أحداث مشهورة. فأبو بكر الصدّيق هو أوّل الخلفاء الراشدين، وكان الرفيق الذي لزم الرسول صلى الله عليه وسلّم في رحلته أثناء الهجرة إلى المدينة المنوّرة.

ويشير إلى حادثة الإفك التي جرت مع امِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وفي البيت الأخير يشير أيضاً إلى حادثة وصول رجال قريش إلى باب الغار أثناء الهجرة، وموقف الرسول في تطمينه لأبي بكر عندما قال له: ما رأيك يا أبا بكرٍ في اثنين الله ثالثهما.

ولأبي حيّان الغرناطي دالية في تفضيل النحو مطلعها:

هُوَ العلمُ لا شيءٍ كالعلمِ شــــــيء تراودهُ   لقد حازَ باغيهِ وأنجحَ قاصدهُ[2]

(الطويل)

---

(1) المقري: أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج 9. 201-202.
ينظر الصفحات: 201-207.
ينظر: عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 337.

(2) أبو حيّان، محمد بن يوسف: تذكرة النحاة. ت : عفيف عبد الرحمن.ط: 1. بيروت:مؤسسة الرسالة.1986.ص: 21. 40-41.

المبحث الرابع عشر: الحكمة

الحكمةُ قولٌ رائعٌ يتضمّن حُكماً صحيحاً، وقلّما يخلو أدب أمّةٍ من حكماءَ خلّفوا وراءهم أقوالاً رائعة أودعوها خلاصة تجاربهم في الحياة. وشعر الحكمة يقوم في أكثرهِ على المعاني والأفكار التي تستلهمها العقول الراجحة من ظروفِ وأحداث مجتمعاتها في شتّى ميادين الحياة، ومن ثمّ فهو ليس في حقيقتهِ شعراً خالصاً، وذلك لافتقارهِ إلى عنصري الخيال والعاطفة.(1)

والأدب العربي في كلِّ عصر من عصورهِ لم يخلُ من حكماء عبّروا عن آرائهم وتجاربهم في أقوال النثر أو الشعر، فالشاعر ما يزال يُدلي في تضاعيف قصيدته بتجاربهِ.(2)

ويظهر أن الحكمةَ قديمة عندهم، فنحن نجدها في معلقة عبيد بن الأبرص حيث يقول:

وكلُّ ذي غَيْبةٍ يَؤُوبُ   وغائِبُ الموتِ لا يَؤُوبُ(3)

(المتقارب)

وتطوّر شعر الحكمة بتأثير الترجمة عن الأمم الأجنبيّة واتِّساع آفاق الثقافة. وكان أول مظاهر هذا التطوّر، أن شعر الحكمةِ أصبح موضوعاً ثابتاً في الشعر العربي.(4)

وعبّرت الحكمة في هذا العصر عن هموم الأندلسيين وآلامهم، فحملت بين ثناياها صرخات مدوّية لما حلّ بهم بعد السقوط ، وما رافقه من ذلّ وتشريد، حيث يقول أبو البقاء الرندي:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصانُ   فلا يغرَّ بطيب العيش إنسانُ

---

(1) عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 207.

ينظر: اليازجي، كمال: الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم. ط: 1. لبنان: دار الجيل. 1986. ص: 13.

(2) ضيف، شوقي: العصر الجاهلي. ص: 218.

(3) الزوزني، الإمام أبو عبد اله: شرح المعلقات السّبع. ت: عمر أبو نصر. حلب: منشورات جامعة حلب. 1966. ص: 332.

(4) هدّارة، محمد: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. القاهرة: دار المعارف. 1963. ص: 448.

هي الأمورُ كما شاهدتها دولٌ   من سرّهُ زمنٌ ساءتهُ أزمانُ[1]

(البسيط)

وحاولَ الرندي أن ينفذ إلى جواهر الأشياء، واتّكأ على عنصر المقابلة، فقابل بين التمام والنقصان، وبين البقاء والفناء، وبين السرور والحزن، فهو يحذّر النّاس من الاغترار بطيب العيش؛ لأن دوام الحال من المحال.

وتناولت الحكمة في أغلب مواضيعها نقداً للحياة الاجتماعية السائدة، وهي في هذا تعتبر وسيلة للنهوض بالقيم الإنسانية. يقول علي بن عمر القيجاطي:

الحرُ يصفحُ وإن أخلّ خليلهُ   والبرّ يسمحُ إن تجرأ جارُهُ

فتراهُ يدفع إن تمكّن جاهُـــهُ   وتراهُ ينفعُ إن علا مقدارهُ[2]

(الكامل)

ونرى أن الحكمة استندت في أسلوبها على التركيب الشرطي، ولعلّ الغاية من استخدامهِ كونَهُ يعتمد على العقل، فالخطاب في هذا اللون من الأدب لا يكتفي بمحاكاة المشاعر على نحو ما نرى في الغزل والرثاء وغير ذلك من الفنون الأخرى.

وتأثر شعراء هذا العصر بتعاليم الإسلام في معظم حكمهم، فمن معينهِ استقوا تجاربهم التي انطلقوا من خلالها ومِن هذا قولُ محمد بن عبد الله الغافقي:

اقنع بما أوتيته تنلِ الغنـــــى   وإذا دهتكَ مُلِمَّةٌ فتصبّرِ

واعلم بأنّ الرزقَ مقسومٌ فلو   رُمْـــنا زيادة ذرّةً لم نقدر[3]

(الكامل)

---

[1] المقّري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 5. 373.
ينظر: الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه. ص: 550.
[2] المقّري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 7. ص: 48.
[3] ابن الخطيب، لسان الدين:الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص: 295.

ويظهر تأثُّر الشاعر بالآية الكريمة "اللهُ يبسطُ الرزقَ لِمَنْ يشاءُ من عبادهِ ويقدرُ لهُ إنَّ الله بكل شيءٍ عليم"[1].

ونتيجةً لتأثر الحكمة بالقرآن الكريم والحديث الشريف، فلا بدّ من أن نوضّح الفرق بينها وبين شعر الزهد، فعلى الرغم من التقائهما من ناحيةٍ أو أكثر إلا أنّهما يفترقان افتراقاً واضحاً، فالزهد مذهب في الحياة يدعو البشر أن يتجرّدوا لله ويعكفوا على صلواتهم في خلوةٍ بعيدةٍ عن حياة الترف واللهو. أمّا الحكمة فهي مذهب في الشعر لا في الحياة ينظم فيه صاحبهُ بتأثير نظرة فلسفيّة للكون وحقائق الأشياء. ولهذا لا نستغرب إن وجدنا من الشعراء الذين يملؤون شعرهم بالحكمة والأمثال زنديقاً أو فاسقاً.[2]

وتأثّر الشعراء في حكمهم بإخوانهم المشارقة، على نحو ما حدث في أغراضهم السابقة. وظهر تأثرهم بالمتنبي واضحاً، فقد تأثر به كبار هذا العصر من الشعراء، أمثال ابن الخطيب وابن خاتمة الأنصاري. ومما تأثر به ابن خاتمة قوله في ذم الحرص على جمع المال:

يا مَنْ غدا يُنفق العُمر الثمين بلا   جدوى سِوى جَمْعَ مالٍ خيفةَ العدمِ

ارجعِ لِنفسِكَ وانظر في تخلصِها   فقـــــــــد قذفتَ بها في لُجَّةِ العَدَمِ[3]

(البسيط)

وهو في هذين البيتين يشير إلى معنى بيتِ أبي الطيب حيث يقول:

ومَنْ ينفقُ الساعاتِ في جمعِ مالهِ   مخافةَ فقرٍ فالذي فعلَ الفقرُ[4]

(الطويل)

---

(1) سورة العنكبوت: آية62.

(2) هدّارة، محمد: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. ص: 448.

(3) ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 156.

ينظر: ابن الخطيب، لسن الدين: الديوان. ج: 1. ص: 47.

(4) المتنبي، أبو الطيب: الديوان. ت: بدر الدين حاضري. ط:1. بيروت: دار الشرق العربي. 1992. ص: 181.

ومن الباحثين مَنْ يرى أنّ الحكمة في الشعر الأندلسي ضعيفة النتاج، وهي ساذجة التفكير والتصوّر، ولا تدلّ على ثقافةٍ ناضجة وعلم واسع. ويعزو السبب في ذلك إلى قلة انتشار الفلسفة عن الأندلسيين.[1]

والملاحظ على هذه الأحكام، أنّها جاءت بعيدة عن الموضوعية، فهي تنظر إلى هذا اللون الشعري من جانب واحد. ونحن لا نذكر أنَّ الحكمة قليلةٌ في الشعر الأندلسي فهم لم يكثروا فيها،[2] على نحو ما حصل في شعر الاستعطاف.[3] ومقابل هذا تكثر في أغراض الغزل ورثاء المدن وغير ذلك من فنون الشعر الأخرى. وأما عن قوله بأنّها ساذجة التفكير؛ كونها لم تتأثر بالفلسفة، فهذا القول فيه تعصبٌ وظلمٌ للثقافة العربية التي حفلت بنتاج حضاري عريق يتربع على قمته، القرآن الكريم والشعر العربي بعصورهِ المختلفة.

---

[1] البستاني، بطرس: أدباء العرب. ص: 60.

[2] جوميث: اميليو: الشعر الأندلسي، بحث في تطوّره وخصائصهِ. ص: 73.

[3] أسعد: محمد جاسر: الاستعطاف في الشعر الأندلسي، عصر ملوك الطوائف. رسالة جامعية غير منشورة. جامعة النجاح الوطنية. نابلس: فلسطين. 2004. ص: 148.

الفصـــــل الثـــالـــــــث

الخَصَــائِــص الفَنِّيَّـــة للشِّــعر في عصر بني الأحــمــر

أولاً: الــبنــــــاء اللغــوي:

المبحث الأول: التكرار:

المبحث الثاني: التقديم والتأخير.

المبحث الثالث: الطباق.

المبحث الرابع: التضمين والاقتباس.

ثانياً: الــموســـيــقا الـــداخلــيــــــــة:

المبحث الأول: إيقاع الحروف.

المبحث الثاني: المشتقّات.

ثالثاً: الــموســــــيقـــا الــخارجيـــة:

المبحث الأول: الوزن.

المبحث الثاني: القافية.

رابعاً: مناسبة الألفاظ للمعاني المطروقة .

البنـــــــاء اللـــغـــــوي

المبحث الأول: الــتـــكـــــــرار:

إن أبسط قاعدة نستطيع أن نصوغها بالاستقراء ونستفيد منها، هي أنّ التكرار في حقيقتهِ، إلحاحٌ على جهة مهمّةٍ في العبارة. وهذا هو القانون الذي نلمسهُ كامناً في كلّ تكرار يخطر على البال. فالتكرار يسلّط الضوء على نقطةٍ حساسةٍ في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلّم بها، وهو بهذا المعنى، ذو دلالةٍ نفسيّةٍ قيّمة[1]. فهذه الظاهرة ليست حليةً لفظيّة تزيّن النّص، ولا عملاً عشوائياً يأتي به الشاعر كيفما شاء، إذ أن اللفظ المكرر ينبغي أن يكون وثيق الارتباط بالمعنى العام. والتكرار هو ذكر الشيء مرتين فصاعداً. ولهذا نستطيع أن نضع التكرار في باب الإطناب.

ولم يعارض البلاغيون العرب التكرار، وعدّوه نوعاً من أنواع التأكيد. " فمن سنن العرب التكرير والإعادة، والغرض منه إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر"[2].

ومن البلاغيين مَنْ عاب التكرار إذا وقع في اللفظ والمعنى، " لأنّه يقعُ في الألفاظ دون المعاني، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينهِ"[3].

ويرى الجاحظ أن التكرار لا يجوز أن يستخدم إلا عند الضرورة والحاجة، وهذه الحاجة تكون ضمن دائرة المعنى الذي نريده، فلا يخرج إلى العبث. " فالتكرار لا يكون زيادة ما دام لحكمـــه كتقرير المعنى، أو خطاب السَّـــاهي، كما أن تـــرداد الألفاظ ليـــس بعيّ ما لـــم يجاوز مقدار الحاجة"[1].

---

(1) الملائكة، نازك: قضايا الشعر المعاصر. ط: 9. بيروت: دار العلم للملايين 1996. ص: 276.

(2) أنظـــر: السيوطي، عبد الرحمن: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. ج: 2. ضبط وتصحيح: محمد أحمد جاد المولى. بيروت: دار إحياء الكتب العربية. ص: 332.

(3) أنظـــر: ابن رشيق، الحســـن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقدهِ. ج: 2. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط: 3. مصر: المكتبة التجارية الكبرى. 1964. ص: 74.

(1) أنظـــر: البيان والتبيين. ج: 3. ت: عبد السلام هارون. ط: 3. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1968. ص: 314. ينظـــر: الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ت: محمـــد عبـــد المنعـــم خفاجـــي. ط: 4. بيـــروت: لبنان: دار الكتـــاب اللبناني. 1975. ص: 304.

والتكرار يأتي لأغراضٍ كثيرةٍ، منها إبراز المعنى وتقريرهِ في النفس واستمالة المخاطب، فهو من ضمن الإيقاع الداخلي للنص على مستوى البيت أو الأبيات، وهذا التكرار ينجح في كسر رتابة الإيقاع الخارجي، مما يجعل القصيدة "سيمفونيةٍ" متعددة الألحان.[1]

أ. الاسم الموصول: إن تكرار الاسم الموصول ينقل السّامع إلى ما يدور في نفس الشاعر[2]، فقد استطاع الشعراء من خلال الاسم الموصول "ما" أن يعبّروا عن معاني الكمال التي يريدونها، ومن هذا قول ابن خاتمة في وصف مالقة:

ما شئْتَ مِنْ حُسْنٍ ومن حَسَنٍ   ما شِئْتَ مِنْ شمس ومن بدرِ
ما رمـــتَ مِنْ أمنٍ ومن أملٍ   ما رمتَ مِنْ بُشَـــرٍ ومن بشْرِ[3]

(الكامل)

فقد لجأ الشاعر في هذه الأبيات إلى تكرار الاسم الموصول "ما". ولكن هذا التكرار لم يكن في "ما" وحدها، بل لجأ إلى استخدام التركيب الفعلي الذي ظهر من خلال قوله "ما شئتَ، ما رمتَ". وهذا دفع السّامع لكي يجول في خياله راسماً لوحة فنيّة جميلة، تتكون من كل معاني الجمال التي تآلفت فيما بينها لكي ترسم معالم هذه المدينة التي أرادها الشاعر أن تكون أجمل المدن. "وبهذا فقد استطاع من خلال استخدامه للاسم الموصول أن يعلمَ بشيء لم يكن عندهُ"[4].

---

(1) عتيق، عمر: دراسة أسلوبية في شعر الأخطل. رسالة جامعية: نابلس: منشورات جامعة النجاح الوطنية. 2000. ص: 55.

(2) الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص: 55.

(3) ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 120.

(4) أنظـــر: الجرجاني، عبـــد القاهر: دلائل الإعجاز. ت: الدكـــتور فايز الداية ومحمد رضوان الداية. ط: 2. دمشق: مكتبة ســـعد الدين. 1987. ص: 204.

ينظـــر: تكرار الاسم الموصول: ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 327، 354، 460. ابن خاتمة الأنصاري، جعفر: الديوان. ص: 39، 153، 157، 204.

ينظـــر: ابن الخطيب، لســـان الدين: الديوان. ص: 215، 225، 337، 339، 443، 600، 616، 620، 707. ابن الخطيب، لسان الدين:

الإحاطة. ج: 3. ص: 214، 350. ينظـــر: المقرّي، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 2. ص: 31، 120.

وظهرت هذه الصورة عند ابن زمرك، وهو يستعطف السلطان أبا الحجاج، ونرى أنّه لجأ إلى استخدام الاسم الموصول "ما" ليدلّ على حاجتهِ التي يريدها، وأدخل عليهِ حرف الجر "الباء" الذي يفيد الاستعانة. حيثُ يقول:

بما قَدْ حُزتَ مِن كرمِ الخلالِ   بما أدركْـــتَ من رتبِ الجـــلالِ
بما خُوِّلْـــتَ مـــن دينٍ ودنيا   بما قد حُزتَ من شرفِ الجمـــالِ
بما أوْليتَ من صـــنعٍ جميلٍ   يُطَابـــقُ لفظُـــهُ معنى الكَمَـــالِ
تغَمدْني بفضـــلِكَ واغتفرها   ذنوباً فـــي الفِعَـــال وفي المقـــالِ[1]

(الوافر)

فالشاعر اعتمد في استعطافهِ على مقدمات بدأها بـــ "ما". وجاءت النتيجة بعدها، لتظهر في قوله: "تغمدني". والشعراء في التركيب الوصلي يتحركون بين نقطتين هما: الاسم الموصول وجملة الصلة[2].

ب. أسلوب النداء: ويُعتبر من أساليب الإنشاء الطلبي، وهو طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة، ينوب كلّ حرف منها مناب الفعل "أدعو"[3]. ولجأ الشعراء إلى تكرار الاسم الممدوح حرصاً منهم على التنويه به، والإشادة بذكرهِ تفخيماً له في القلوب والأسماع[4]. وظهر هذا في أغراض المدح والفخر بالنسب والاستعطاف. ومن هنا ما جاء في مدح الغني بالله حيث يقول ابن زمرك:

يا ابـــنَ الإمامِ ابنِ الإمام ابنِ الإمـــ   ـمِ ابـــنِ الإمام وقَدْرُها لا يُجْهَـــلُ[5]

(الكامل)

---

(1) ابن زمرك: الديوان. ص: 105.
(2) الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص: 54.
(3) ابن هشام الأنصاري، جمال الدين: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. ت: مازن المبارك وآخرون. دمشق: 1972. ص: 488.
(4) ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابهِ، ونقدهِ. ج: 2. ص: 74.
(5) ابن زمرك: الديوان. ص: 96.
يُنظر: المقّري، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 2. ص: 115.
ينظر: المقري: نفح الطيب. ج: 9. ص: 67.

فابن زمرك يسعى جاهداً ليؤكد على أصالة الغنيّ بالله وأحقيّته بتولي أمور المسلمين، فلجأ إلى تكرار "ابن الإمام". وجاء التكرار هنا لرفع الشأن والمنزلة والتعظيم، والدليل على ذلك، هو أنّه أكد على أنّه ابن إمام، وأبوه ابن إمام وجدّه ابن إمام، وهكذا...

ولجأ بعض الشعراء إلى تكرار المنادى وحذف حرف النداء، حيث يقول ابن الخطيب:

مولايَ، مولايَ إن أرضـــاكَ بـــذلُ دمي فقد أتيتُ بهِ أســـعى عَلى قدمي[1]

(البسيط)

واستخدم الشعراء حرف النداء كثيراً في أشعارهم، ولعلّ (الياء) من أكثرها استخداماً. والمتتبع لأشعار ابن زمرك يجدهُ قد استخدم هذا الحرف أكثر من مئة مرّةٍ. ولجأ أكثرهم إلى تكرارهِ إلى جانب غيرهِ من حروف النداء الأخرى.[2]

وهذا ابن الخطيب يبني قصيدةً كاملة على تكرار حرف النداء (الياء)، في أثناء خطابٍ يوجههُ إلى ساقطٍ أفرط في الكبر والتباهي حيث يقول:

يا طَلْعةَ الشُّـؤم التي مهما بَدَتْ يَئِسَتْ عُفَاةُ النُّجحِ مِنْ أســبابــهِ
يا وَقْفَةَ النّاعِـــي بمقْتلِ واحــدٍ أذكى على الأحشاءِ حَرَّ مُصَابـــهِ
يا مَنْ تَشَكَّـى عَصْرُهُ مِنْ عارهِ يا مَنْ تبرَّمَ دَهْرُهُ مِنْ عَابِـــــهِ
يا مَنْ يَغُــصُّ بهِ الزَّمانُ نَدَامةً من كَفّهِ وتـــراهُ قـــارِعَ نابِـــهِ
يا مَنْ تَجَمَّلَ بالحَـــرَامِ وإنَّمـــا قَدَرُ الفتى ما كـــــان تحتَ إهابهِ[1]

(الكامل)

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 554.

[2] ينظـــر تكرار حرف النداء (الياء) ديوان ابن زمرك. الصفـــحات: 50 – 60 – 100. وديوان الملك يوســـف الثالث: الصفحات 46. وابن خاتمة الأنصاري. ص: 79. الكتيبة الكامنة. الصفحات: 41، 50، 105، 168، 169، 217.
ينظـــر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص: 137، 442، 428، 429، 616.
ينظـــر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 84، 192. الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 4. ص: 125، 294.
ينظـــر: المقري، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 2. ص: 49.

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 137.

واستطاع ابن الخطيب من خلال تكرار هذا الحرف، أن يجعل هذه الصفات الذميمة قريبةً من هذا الشخص. ولم يكتفِ بتكرار هذا الحرف، بل نراه يقرنه باسم الاستفهام (مَنْ) الذي يستخدم للعاقل[1]. وكأنّه بهذا يوجّه نصحاً لبني البشر جميعاً، لكي يبتعدوا عن هذه الصفات، فهو بهذا يخرج من باب الهجاء إلى النّصح والإرشاد. وهذا يدلّ على شاعريةٍ تتسم بالعبقرية والقدرة على استحضار الصور وربطها بعضها ببعض.

ولجأ بعض الشعراء إلى تكرار البيت كاملاً، على نحو ما فعل ابن الخطيب حيث يقول:

مُثيرُ رياحِ العزمِ في حَوْمةِ الوَغى   ومُخْتطفُ الأبطـــالِ يومَ نِزالـــهِ
مُثيرُ رياحِ العزمِ في حَوْمةِ الوَغى   ومُخْتطفُ الأبطـــالِ يومَ نِزالـــهِ[2]

(الطويل)

ومن قولهِ أيضاً:

رحيبـــةَ ألطافٍ إذا الوَفــدُ حَلَّها   تكنَّفَهُــمْ غَمْــرُ النَّوَالِ عَمَيْمُـــهُ
رحيبـــةَ ألطافٍ إذا الوَفــدُ حَلَّها   تكنَّفَهُــمْ غَمْــرُ النَّوَالِ عَمَيْمُـــهُ[3]

(الطويل)

وظهر تكرار الأبيات عند ابن زمرك حيث يقول في باب المديح:

يا فخرَ أندلــسٍ وعصمـــةَ أهلِها   يجـــزيك عنها اللهُ خيرَ جـــزاءِ[4]

(الكامل)

ج. أُسلوب الشرط: يستخدم أسلوب الشرط في اللغة ليصل بين أمرين، ويتكون من جملتين تربط بينهما أداة الشرط، والجملتان مترابطتان ارتباط النتائج بالمقدمات، أو ارتباط الغاية

(1) عَدس، محمد: الواضح في قواعد النّحو والصرف. ط: 1. عمّان. دار مجدلاوي للنشر. 1991. ص: 93.
(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 484.
(3) ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر السابق. ص: 551.
(4) ابن زمرك، الديوان. ص: 16. يُنظر التكرار في الصـــفحات: 41، 95، 113. ينظر تكرار عجز البيت عند ابن زمرك "نصر من الله وفتح قريب" أزهار الرياض. ج: 2. ص: 198، 203، 204.

بالوسيلة، أو ارتباط العلة بالمعلول.[1] فهذا الأسلوب يميل إلى الجانب العقلي، الذي يعتمد على أسبابٍ تصل في النهاية إلى نتائج متوقّعة. ونجد أنّ الشعراء يميلون إلى استخدام أدوات الشرط، بغية الإقناع والوصول إلى ما يريدون. وأكثروا من استخدام أداة الشرط "لو" ومن هذا ما جاء في فخر يوسف الثالث حيث يقول:

لو أنّ ما بي بالأفق مِنْ أســفٍ   ما لاح نــورٌ للأنجم الزُّهرِ
لو أنّ ما بي بالروضِ مِنْ كَلَفٍ   ما انتشقتْ منه رائحةُ الزّهرِ
لو أنّ ما بي بالســحب مِنْ ألمٍ   ما أرســلتْ واكِفاً من المطرِ
لو كنتَ تفــدي بالمال لابتدرتْ   أكفّـــنا بالهبــاتِ للبــــدرِ[2]

(الكامل)

هذه البنية التكرارية بدأت بحرف الشرط غير الجازم (لو). وهو حرف امتناع لامتناع ، فجواب الشرط يمتنع لامتناع فعل الشرط. وفعلها لا يمكن أن يكون قد حصل، وبالمحصّلة جوابها لا يتحقق، لذلك لا جدوى منها، فأَراد الشاعر هنا، أن يبيّن شدة الألم والأسف والأعباء، فلو وضعت على ظواهر الطبيعة لغيّرت في نظامها من شدّة الهموم المترتبة عليه. فالألفاظ المكرّرة هنا لا تكتسب أهميتها من القيمة العدديّة فحسب، وإنّما من ارتباطها بالحالة الشعورية المسيطرة على الصياغةِ أيضاً، وهي حالة إثبات القوّة له، ونفي الضعف والخوار، ووضعهُ في صدر الصياغة يضفي عليهِ أهمية تؤازر أهميتهُ السابقة.[3]

وقد يتآلف أسلوب الشرط في تكرارهِ مع أساليب أخرى يلجأ الشاعر إلى تكرارها مجتمعةً على نحو ما جاء عند محمد بن عبد الله بن لب الأمي حيث يقول:

لو أنّ للبدرِ المنيرِ كمــالَهُ   ما نالَهُ كَسْفٌ ونُكسُ مَحاقِ
لو أنّ للبحرينِ جُودَ يمينهِ   أمِنَ السَّفِينُ غوائلَ الإغراقِ

---

[1] الخطيب، حسام وآخرون: اللغة العربية. ط:2. حلب: منشورات جامعة حلب. 1985. ص: 77.
[2] يوسف الثالث: الديوان. ص: 78.
[3] مصطفى، محمود: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث. ص: 88.

لو أنّ للآباءِ رحمــــةَ قلبهِ   ذابتْ نفوسُــــهُمْ مِنَ الإشفاقِ[1]

(الكامل)

فقد بدأ بتكرار حرف الشرط (لو)، بأن جعله أساساً للكلام، ثم أتبعه بتكرار آخر جاء من خلال حرف التوكيد "أنّ"، فازداد الكلامُ بذلك قوةً وترابطاً. وظهر إبداع الشاعر الفنيّ من خلال إدخال تكرارٍ ثالث وهو حرف (اللام). وكل هذا جاء ضمن سياق الجملة الإسمية التي سدّت مسد فعل الشرط، واستطاع بتعدد التكرارات أن يضع السامع في حالةٍ من الشوق والانفعال والترقّب، لما سيحدث من نتائج قد تظهر من خلال جواب الشرط.

ووجد الشعراء في أسلوب الشرط متنفَّساً، يستطيعون من خلالهِ أن يعبّروا عما يجول في نفوسهم. (فالشرط يتعلق بمجموع الجملة)[2].

وهذا يُظْهِر صدق ما جاء به الشاعر، فهو برهان على شيء سيحصل في المستقبل، أو أنّه حصل في الماضي. إنّ المتتبع للأشعار التي ظهرت في هذا العصر، يجد أن كثيراً منها اعتمد على أسلوب الشرط.[3] ولهذا فلم يجد ابن زمرك أسلوباً يعبر فيه عن حزنهِ بعد فقدهِ لسلطانه الغنيّ بالله غير هذا الأسلوب، لما فيه من فسحةٍ يستطيع من خلالها أن يأتي بالأدلةِ والبراهين، على أنّ هذا السلطان لم يأتِ مثله في أي زمان ومكان، وفي مقابل هذا، فهو متفائل بأنّ وليّ عهده سيكون عظيماً مثلهُ. يقول:

لئنْ غَرَبَ البـــــدرُ المنيرُ محمــــــدٌ   لقد طلعَ البدرُ المكمَّلُ يوســـفُ

وإنْ رُدَّ ســــــيفُ الملكِ صَوْناً لِغْمْدِهِ   فقد سُلَّ من غِمدِ الخلافةِ مُرْهفُ

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص: 302.

[2] أنظـــر: الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ص: 50.

[3] أنظـــر: تكرار أسلوب الشرط، ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات: 117، 470، 475، 478.

ينظـــر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات: 235، 285، 415، 458، 544.

ينظـــر: ابن الخطيب، لســـان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 1. ص: 144. الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. الصفحات: 131، 302، 318.

ينظـــر: المقري، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 1. الصفحات: 119، 149.

ينظـــر: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 2. ص: 99.

وإنْ طوَتِ البُــردَ اليماني يــدُ البلَى   فقد نُشِرَ البردُ الجديدُ المُفَــوَّفُ
وإنْ نضبَ الوادي وجفَّ معينُـــــــهُ   فقد فاض بَحْرٌ بالجواهرِ يقــذفُ
وإنْ صوّح الرَّوض الذي ينبتُ الغِنى   فقد أنبتَ الروضُ الذي هو يُخلِفُ
وإنْ أقلعت سُحْبُ الحيا وتقشَّـــعت   فقد نشأت منها غمائم وُكْـــــــفُ
وإنْ صدع السَّمْلَ الجميعَ يدُ النَّـــوَى   بيوسفَ فخرِ المنتدِي يتألّـــــــفُ
وإنْ راع قلبَ الدَّيــنِ نَعْيُ إمامِـــــهِ   فقد هُزَّ منهُ بالبشارةِ مَعْطِـــــــفُ[1]

(الطويل)

فابن زمرك في أبياته هذه، يعتمد على أسلوب الشرط، (وهو بهذا يقيّد الفعل بالشرط، و"إن" هي حرف شرط للاستقبال، وقد تستخدم للتفاؤل)[2] وهذا بدا واضحاً في الأبيات. فالشاعر يظهر تفاؤلاً من خلال تعزية نفسه بأنَّ هذا السلطان العظيم قد أورث ملكه إلى وليّ عهد عظيم من شأنه أن ينهض بأعباء الدولة.

د. أسلوب الاستفهام: وهو من الإنشاء الطلب[3]، ويستدعي مطلوباً غير حاصلٍ وقت الطلب.[4] ولهذا فقد أكثر الشعراء من استخدام هذا الأسلوب في أغلب أغراضهم الشعرية. ووجد الشعراء باستخدام أدوات الاستفهام ملاذاً لهم، يستطيعون من خلالهِ أن يعبّروا عن أغراضٍ كثيرة، كالتعجّب والتقرير والإنكار.[5] وجاء استخدام (مَنْ) واضحاً في أشعارهم المدحية ومراثيهم. ومن هذا ما جاء في رثاء ابن الجيّاب لأبي مسعود المحاربيّ حيث يقول:

ومَنْ كعليٍّ ذي الشجاعةِ والرِّضا   لإصراخِ مَذْعورٍ وإيواء مَطْرود
ومن كعليٍّ ذي السَّماحةِ والنّدى   لإســــباغِ إنعام وانجاز مَوْعودِ
ومن كعليٍّ للـــوزارةِ قائمـــــاً   عليها بتصْــويب عليها وتصْعيدِ

---

(1) ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 440.
(2) أنظـــر: الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 183.
(3) عتيق، عبد العزيز: علم المعاني. ص: 96.
(4) الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص: 97.
(5) ابن هشام الأنصاري، جمال الدين: مغني اللبيب. ص: 24 – 25 – 244 – 271 – 392.

ومن كعليٍّ للإدارةِ ســــــالكاً لها نهجَ تليين مشــوبٍ بتشــديدِ[1]

(الطويل)

ويكمل الشاعر تكرارهُ لاسم الاستفهام (مَنْ) فهو يرفع من مكانة المرثي علي بن مسعود المحاربي. وخرج الاستفهام في هذه الأبيات إلى درجة التعظيم. ودلّ هذا على صفات عديدة أرادها الشاعر أن تكون ملازمة له، كالشجاعة والكرم والسيادة.

وخرج الاستفهام إلى معنى التعجّب، ووجه خروجهِ، أن السؤال عن السبب في عدم الرؤية يستلزم الجهل بذلك السبب، والجهل بسبب عدم الرؤية يستلزم التعجّب[2]. وهذا يتّفق مع الشعراء في مديحهم، فحرصوا على إظهار ممدوحيهم بصفات لم يستطع الآخرون أن يتّصفوا بها. ومن هذا ما جاء في مدح ابن زمرك للسلطان الغنيّ بالله حيث يقول:

مِنْ أينَ للشمـــــسِ المنيرةِ منطقٌ ببيـــانــهِ دُرُّ الكــلام يفصَّلُ

مِنْ أينَ للشمـــــسِ المنيرةِ راحة تسخو إذا بخل الزمانُ المُمْحِلُ

مِن أينَ للبدرِ المنير شـــــــمائلٌ تســري بريّاها الصَّبا والشَّمألُ

مِن أينَ للبـــــدرِ المنير مناقــــبٌ بجهادها تُنضى المطــيُّ الزُلَّلُ[3]

(الكامل)

وجاء تكرار اسم الاستفهام (أين) والمسبوق بحرف الجر، ليؤكد على المبالغة في إظهار الممدوح متفرِّداً بهذه الصفات. وإن تكرار أدوات الاستفهام، جعلها قادرةً على نقلِ الانفعالات بصورةٍ بارزة عندنا، مما دفعنا لأن نرسم في خيالاتنا العديد من الصور المتخيَّلة حول هذا الممدوح، كلها تبقى حبيسة في دائرة هذا الأسلوب.

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 4. ص: 55.

(2) عتيق، عبد العزيز: علم المعاني. ص: 106.

(3) ابن زمرك: الديوان. ص: 99 – 100.

ينظر: المقّري، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 2. ص: 120.

المبحث الثاني: التقديم والتأخير:

إن الجملة العربية تخضع لترتيب ينظّم تتابع أجزائها في الهيكل الأساسي للبناء اللغوي النحوي، ومن ثمّ تستكمل عناصر أخرى يتمّ بها التعبير ونقلُ الآراء والانفعالات، فهناك التركيب الاســمي، وفيهِ يتقدم المبتدأ على الخبر. والتركــيب الفعلي الذي يبدأ بالفعــل والفاعــل وبعده المفعول به.[1]

وليس من الممكن النطق بأجزاء أي كلامٍ دفعةً واحدة، من أجل هذا، كان لا بدّ عند النّطق بالكلام من تقديم بعضهِ وتأخير بعضهِ الآخر. (والتقديم لا يرد اعتباطاً في نظم الكلام وإنّما يكون مقصوداً بما يلبي الحاجة وهذا هو سرّ التقديم)[2].

فالأهميّة تلعب دورا فاعلا في بيان رغبة الشعراء في التقديم والتأخير ، فالمتقدّم يخالف المألوف وهو مجيئه متأخرا ، والمتأخّر في مقابل ذلك يأتي متقدما للسبب المذكور ، وكأنّه يضع السّامع في بؤرة التركيز على هذا المتقدّم.

ومن أســــاليب التقديم الشــــائعة ما جاء في باب تقديم المجرورات، والتي تعين الشــاعر في تعبيره عما يبغي إيصاله، ومن هذا ما جاء في مخاطبة ابن الخطيب للوزير ابن الحكيم حيث يقول:

في ســـــــــــبيل الإلاهِ مجدٌ تــوارثت كريمَ الإصدار والإيرادِ
في ســـبيلِ الإلاهِ أخلاقُك اللا تي هِي العَذبُ في احتدامِ الجُوَادِ[1]
في ســـــــــــبيل الإلاهِ علمٌ تُروِّيهِ ونقْلٌ مصحَّحُ الإســــــنادِ

---

[1] الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص: 76.
[2] أنظـــر: الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ص: 135.
ينظـــر: عبّاس، فضل: إعجاز القرآن. ط: 2. الأردن: منشورات جامعة القدس المفتوحة. 1977. ص: 196.
ينظـــر: عتيق، عبد العزيز: علم المعاني. ص: 149.
[1] الجُوَاد: شدة الحرّ.

لي ثناءٌ كما علمتَ هو الوَشْيُ   وصـــــــــــنعاءُ في فمي وفؤادي[1]

(الخفيف)

فابن الخطيب يلجأ إلى تقديم شبه الجملة وهي الخبر على المبتدأ، وهذا التقديم جاء ليرفع من مكانة ابن الحكيم، حيث إنّه جعل حياتهِ كلّها مكرّسةً لله. فنراه يقدّم قوله (في سبيل الإلاهِ) ليؤكد على هذا الأمر، وهو بهذا فقد قصر الصفة على الموصوف. فالمجد والخلق والعلم، كلّها أمور تآلفت لتصل إلى تحقيق هذا الهدف.

ويعود ابن الخطيب في نهاية الكلام ليؤكد على ثنائهِ على هذا الشخص من خلال الأسلوب نفسه.

إنّ أهميّةَ أمرٍ، أو شخوصٍ أو انفعال، تلعب الدور الأساسي في التقديم. وهذه الأهميّة مرتبطة بالسّياق وتوجّهِهُ، ونقصد هنا ما يشغل الشاعر من قضايا ومواقف وانفعالات. إنّ تقدّمَ المفعول به يحدّد نقطة الاهتمام التي سوف ينصبّ التركيز عليها. وهنا يوجه السَّامع كلّ تركيزه لكي يوضع في دائرة المفعول به. يقول ابن خاتمة الأنصاري مغرياً بالصمت:

لسانَكَ اسْجُنْ ولْتُطِلْ حَبْسَـــهُ   إن شئتَ إكراماً وتصوينا
لو لم يكنْ للسِّـــجنِ أهلاً لما   غدا بقعْرِ الفم مَسْـــجونا[2]

(السريع)

فالشاعر لجأ إلى تقديم المفعول به على الفعل والفاعل؛ لأن الإنسان إذا أراد أن يحفظ كرامته وهيبته بين الناس، فلا بدّ له من أن يحافظ على كلامه، وهذا لا يتأتى له إلا من خلال ضبط لسانه.

ومن هذا ما ظهر عند ابن زمرك، فهو يقدّم ممدوحه ليظهره بصفاتٍ جعلها متأصلةً فيه، فالغني بالله سلطان فان الجميع بأفعاله التي عجز عن فعلها سائر الملوك، يقول:

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين. الديوان. ج: 1. ص: 296.

(2) ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 159.

نشَرَتْ مَحَمِدَكَ الرِّفاقُ فأَصبحتْ　　　تُطوَى بها الأنجادُ والأغوارُ
علمت مُلوكُ الأرض أنّك فخرُها　　　فلها مــا تبتغيـــه بـــدارُ
ناجتْكَ قاصيةُ البلاد بشـــكرِها　　　وأتي رسُـولُك بالذي تختارُ
وافتْكَ من مِصْرَ الهَدَايا تمتري　　　مِنكَ القَبُول ونعــمَ ما تمتارُ
خطبَتْ نوَالكَ بالثنا أعـــلامُها　　　فأَتتْكَ منها الكتبُ والأشــعارُ[1]

(الكامل)

فابن زمرك يلجأ إلى تقديم المفعول به على الفاعل، سعياً منه للتأكيد على ما جاء به من صفاتٍ وأفعال تتعلق بهذا السلطان دون غيرهِ.

---

[1] ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 159.

المبحث الثالث: الطــباق:

وهو الجمع بين الشـــيء وضدّهِ، أو بين معنيين متقابلين في الجملة[1] ومنهم مَنْ اشترط فيه أن يضع المتكلمُ أحدَ المعنيين المتضادين من الآخر وضعاً ملائماً. فيجمع بين الشيئين على حذو واحد، فيكون الشيئان للمعنيين، والحذو الواحد: اللفظة.[2]

وحاول الشعراء من خلال استخدامهم لهذا اللون من البديع، أن يظهروا الشيء من خلال ضدهِ. ويعدُّ الطباق من الوسائل الفنيّة التي اعتمد عليها الشعراء في إقامة علاقات جديدة بين مفردات اللغة.

ومِنْ الشعراء مَن أقام قصائد كاملة من خلال الجمع بين المتناقضات، فهم يعبّرون عن الشيء بضدّهِ. يقول ابن زمرك واصفاً محبوبَهُ:

رَضيتُ بما تقضي عليَّ وتَحْكُمُ ... أُهانُ فأقُصـــى أم أعزُّ فأُكرَمُ
على أنّ روحي في يديكَ بقاؤها ... بوصلِكَ تُحْيي أو بهَجْرِكَ تُعْدَمُ
وأنتَ إلى المشــتاقِ نارٌ وجنّةٌ ... ببعدك يشـــــقى أو بقربك ينعمُ[3]

(الطويل)

وابن زمرك يصوّر علاقتهُ بالمحبوبة من خلال بيان العلاقات المتناقضة التي يحياها، فالعزّ في حياته لا يظهر إلا من خلال زوال حالة الهوان التي يعيشها، والبقاء الذي يكون مرهوناً بالوصال لا يتحقّق إلا بذهاب الهجر والنكران. ونتيجة لما سبق ،فهو يقف أمام طريقين متناقضين؛ هما: طريق النعيم الذي لا يتحقق إلا بانتهاء طريق الشَّقاء.

---

(1) الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 477.

(2) أنظـــر: ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابهِ، ونقدهِ. ج: 2. ص: 7.

(3) ابن زمرك: الديوان. ص: 109.

(إن الجمع بين الأمور المتضادة، يكسوها جمالاً وبهاءً، فالضدُّ – كما قالوا – يظهر حَسنَهُ الضدُّ، ولا بدّ أن يكون هناك معنى و مغزى وراء الجمع بين هذين الضدين في إطار واحد ، وإلا كان هذا الجمع عبثاً وضرباً من الهذيان)[1].

وكان للظروف السياسية التي سادت الأندلس آنذاك، أثر واضحٌ في استخدام الشعراء للطباق، فأوجدوا من خلالهِ مقارنةً بين واقعين: أولهما: واقع اتّسم بالعز والقوة، وثانيهما: واقع يتسم بالذلّ والتراجع. فالعرب أصبحوا لقمة سائغة بيد الاسبان، بعد أن كانوا أسياداً على أرضهم. وخير من عبّر عن هذا الواقع أبو البقاء الرّندي حيث يقول:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نُقْصـــانُ   فلا يغرُّ بطيبِ العيشِ إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدتها دُوَلٌ   مَنْ سرَّهُ زمن ساءتهُ أزمانُ[2]

(البسيط)

وأظهر الشعراء في هذا العصر براعةً في الوصول إلى ما يريدون، وهنا تفاوتت هذه البراعة من شاعر إلى آخر، والمتتبع لأشـــعار ابن الخطيب يرى هذه البراعة واضحةً في أشعارهِ، فهو يعطي الفكرة مكتملة المعالم من خلال عبقريةٍ نافذة، في الجمع بين هذه الأضداد فنراهُ يمدح الغنيّ بالله قائلاً:

فمَنْ اســــتجار عُلاكَ عزّ جوارُهُ   وعزيزُ قومٍ، لم يُطعْكَ، ذليـــــل[1]

(الكامل)

وابن الخطيب في هذا البيت، يمدح الغنيّ بالله من خلال بيان أن الطاعة لهذا الملك واجبةٌ على الجميع، ومن لم يطعهُ، سيؤول في النهاية ذليلاً وإن كان عزيزاً في قومهِ.

وهذا الملك يوسف الثالث، استطاع أن يصوّر لنا، أن بني نصرٍ هم حماةٌ للدّين، فهم الذين نشروا الأمن والرخاء في ربوع الأندلس حيث يقول:

---

(1) فيّود، بسيوني: علم البديع، دراسة تاريخيّة وفنيّة لأصول البلاغة ومسائل البديع. ص: 136.

(2) المقّري، أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج: 5. ص: 373.

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 487.

لمن رايةٌ حمراءُ ترتاحُ بالنصرِ   تطيفُ حَوالَيْها حماةُ بني نصــر

إلى جبلٍ بالفَتْحِ يَصْـــدُقُ فألُهُ   فبعدَ تولى العسرِ لا بدّ من يُسْرِ[1]

(الطويل)

فهؤلاء الملوك – كما يرى يوسف الثالث – استطاعوا أن يخلقوا من رحمِ الهزيمة نصراً، وأن يجعلوا العسرَ يسراً، وهذا الفعل لا يتأتّى لأناسٍ عاديين.

وظهر الطباق واضحاً في أشعار الزهد والحكمة،[2] فهو أساس لها، فعليهِ أقاموا الحجج والبراهين، ففرّقوا الباطل بإظهار الحق، والسعي وراء الآخرة من خلال نبذ الدنيا والابتعاد عنها. يقول ابن خاتمة الأنصاري:

أعرضْ عن الشَّيء إنْ تهواهُ تحظَ به   واحرص عليهِ إذا تأباهُ يمتنـــع

قد أقســـم الدَهر إيمانـــاً مُغَلّظَـــةً   إن ليس ينجح حِرصاً فاسعَ أو دَعْ[1]

(البسيط)

فابن خاتمة يتمثل قول أبي بكر الصدّيق "أطلبوا الموتَ توهبْ لكم الحياة" فالإعراض عن الشيء يقابله الحظ الطيّب، ولكن الحرص يقابله الضياع، فهو يقرنُ الإعراضَ بالحرص. وفي البيت الثاني يدعنا أمام خياريــن، إمّا السـعيَ وراء الشــيء سـعياً دؤوباً، أو أن نترك هــذا الأمر للآخرين.

---

(1) الملك يوسف الثالث: الديوان. ص: 65.

(2) ينظــر أشعار الحكمة والزهد في: ابن الأحمر، إسماعيل: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. الصفحات: 302، 326، 339.

ينظــر: الملك يوسف الثالث: الديوان. الصفحات: 33، 46، 70، 71، 183.

ينظــر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. الصفحات: 291، 324. ينظــر: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 1. الصفحات: 96، 288. الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. الصفحات: 176، 180، 339، 452.

ينظــر: ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. الصفحات: 154، 156، 157، 161.

ينظــر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص: 574.

ينظــر: المقّري، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 2. ص: 317.

ينظــر: ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة. الصفحات: 35، 36، 44، 47، 53.

(1) ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 156.

ونرى أن الطباق واضحاً في شعر الحكمة عند الملك يوسف الثالث، فكان لهذا اللون من البديع الأثر الواضح في قوة التعبير والبرهان حيث يقول:

خليليَّ مهلاً فالزّمانُ كما تــــدري ولا بدّ من يسر على أثر العســـرِ
فَمَهما دهى صحوٌ فلا بدَّ من قَطرِ ومهما دجا خطبٌ فلا بدّ مِنْ فجرِ[1]

(الطويل)

فالشاعر يبيّن أنّ دوام الحال من المحال، فليس هناك شيء ثابت في هذه الحياة، فالعسر يعقبهُ اليسر، ومهما اشتدّت الأزمات فلا بدّ أن تنفرج يوماً ما. وإن أجدبت الأرض، فلا بدّ مِن أن تمطر السماء، فالفجر يبزغ من رحم الظلام.

[1] الملك يوسف الثالث: الديوان. ص: 70.

المبحث الرابع: الـــتـــضـــمـــيــــــن والاقـــتـــبـــــاس:

لقد عَرف شعراء بني الأحمر التضمين كغيرهم من شعراء الأندلس والشعراء المشارقة، ويرجع هذا إلى عامل التأثر والتأثير بين الشعراء أنفسهم. وعلاوة على هذا فقد لجأ إليه بعضهم مـــن باب الإعجاب بكبار الشـــــعراء أمثال المتنبي وأبي تمّام وغيرهـــم من كبار شـــعراء المشرق والأندلس.

والتضمين: هو أن يضمّن الشاعر كلامه شيئاً من مشهور شعر غيره مع التنبيه عليه إن لم يكن الشاعر مشهوراً،[1] فإن كان معروفاً فلا يشترط التنبيه[2]. (وأحسن وجوه التضمين ما دَخلَهُ التورية والتشبيه)[3].

وجاء التضمين واضحاً في أشعارهم، وربّما يكون المتنبي من الشعراء الذين أثّروا في أشعار هذا العصر، لما لهِ من عبقرِيّة أُعجب بها كبار شعرائهم أمثال: ابن زمرك، وابن الخطيب، وابن خاتمة الأنصاري، وغيرهم... والملاحظ في تضمينهم هو ذكر البيت صريحاً دون تغيير عليه، وإن حدث هذا يكون طفيفاً محتفظاً بإيقاعِ موسيقيّ ثابتٍ. ومن ذلك ما جاء عند ابن الخطيب في أبياته حيث يقول:

ومحتملُ الرّكْبـــــان طيبَ حَدِيثهِ   " فيأتيكَ بالأخبارِ مَـــنْ لَمْ تُزَوِّدِ[1]

(الطويل)

وهذا البيت ضَمَّنهُ من قول طرفة بن العبد حيث يقول:

ســـــتبدي لكَ الأيّامُ ما كنتَ جاهلاً   ويأتيكَ بالأخبـــــارِ مَنْ لم تُزَوِّد[2]

(الطويل)

---

[1] ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ج: 2. ص: 84.
[2] الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 580.
[3] أنظـــر: الخطيب القزويني، جمال الدين: المصدر السابق. ص: 582.
[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 312.
[2] طرفة بن العبد: الديوان. ت: فوزي عطوي. بيروت: دار صعب. 1980. ص: 57.

ونرى أن شاعراً كبيراً كابن الخطيب لم يأخذ من شعراء غير معروفين، ولهذا فكلُّ الذين تأثّر بهم، هم من الشعراء الكبار وإن كانوا من النساء، فقد تأثر ببعض أبياته بالخنساء حيث يقول:

هــيهات يَجْحدُ فضــْلَ مَجْدِكَ جاحِــدٌ إنّ العُلا عَلَــمٌ وفَخْــرُكَ نارُهُ[1]

(الكامل)

وهذا البيت مأخوذ من قول الخنساء:

وإنّ صـــــخراً لتأتمُ الهداةُ بـــهِ كأنّهُ علمٌ في رأســـــهِ نارُ[2]

(الكامل)

وابن خاتمة يعاتب محبوبته التي تمكّنت من قلبهِ، ولكنّها تُعرِض عنه زيادةً في تعذيبهِ، وهو لا يغيب عن ذهنهِ أن يصوّر حاله بحال المتنبي الذي أحبّ سيف الدولة، ولكنّه لم يرع هذه المحبة. يقول ابن خاتمة الأنصاري مصوراً هذا:

أنتِ الأميرُ وأنتِ خصـــــمي فاحكمي لي أو عليَّ فلن أُســـائِلْ: ذا لِمَهْ ؟ [3]

(الكامل)

ونرى معنى هذا البيت مأخوذ من قول المتنبي حيث يقول:

يا أعــدلَ الناسِ إلا فــي مُعَاملتي فيكَ الخصـــامُ وأنتَ الخصــمُ والحَكَمُ[1]

(البسيط)

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 373.

[2] الخنساء: الديوان. بيروت: منشورات دار الحياة. ص:51.

[3] ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 112.

[1] المتنبي، أبو الطيّب: الديوان. ص: 271.

فالتضمين لم يقتصر على أشعار البعضِ منهم دون الآخر، بل ظهر عند جميع شعرائهم[1] فهو ظاهرة عامّة نلحظ فيها احتراماً كان يبديه هؤلاء لمن سبقوهم من شعراء المشرق وغيرهم.

وقد ضمّنوا أشعارهم الكثير من الأمثال، وساقوها تحقيقاً لغاياتٍ في نفوسهم، فالمِثل يعطي الكثير من المعاني في قليل من الألفاظ، ولذلك جاءت الأبيات متناسقة مع مضمون القصيدة، ومن هذا ما جاء عند ابن الخطيب حيث يقول:

مَنْ كعمـــــرو مُضْنِي البَرَاجِمْ والمُدْ   نِ وَقَدْ أُلْقِحَتْ حُرُبُ الشَـــــدادِ[2]

(الخفيف)

والبراجمُ: هم قومٌ من تميم. وفي المثل "إنّ الشقيَّ وافدُ البراجم"[3]. ويضرب لمن يوقع نفسه في هلكةٍ طمعاً.

ومن الذين ضمّنوا أبياتهم بعض الأمثال، ابن خاتمة الأنصاري، حيث يقول في حفظ اللّسان والحضّ على صونهِ:

لسانك كالسيف في شكلهِ   وأعدى من السّـــــيفِ في سطوتهِ
فاغمــــد ظُباهُ فقد يُتّقى   على حاملِ السّـــــــيفِ من شفرتهِ[1]

(المتقارب)

---

(1) ينظر التضمين في: ابن الخطيب: الديوان. ج: 2. فهرس التضمينات والاقتباسات الشعرية. ص: 819 – 820.
ينظر: ابن خاتمة الأنصاري: الديوان: الصفحات: 97 – 99 – 100- 108 – 112 – 121 – 156.
ينظر: نثير فرائد الجمان، الصفحات، 316 – 317.
ينظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب. ص: 360.
ينظر: ابن زمرك: الديوان: فهرس أشعار سائر الشعراء. ص: 194.
ينظر: يوسف الثالث: الديوان. ص: 39 – 46 – 61 – 62 – 109.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 395.

(3) العسكري، أبو هلال: كتاب جمهرة الأمثال. ج: 1. ت: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: 2. بيروت: دار الفكر. 1988. ص: 121.

(1) ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 159.

فقد ضمّن أبياته المثل الذي يقول: "مقتلُ الرّجل بين فّكيهِ"[1]. ولذلك نرى أن تضمين الأشعار بالعديد من الأمثال، قد جاء من أجلِ تدعيم مقولة الشاعر وما يؤمن به.[2]

أمّا الاقتباس: "فهو تضمين النثر أو الشَّعر شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث الشريف من غير دلاله على أنّه منهما، ويجوز أن يغيِّر في الأثر المقتبس قليلاً"[3]. ونحن نظنّ أن سبب إطلاق هذه التسمية على هذا النوع من المحسنات اللفظية، راجعٌ إلى قداسةِ المقتبس منه وهو القرآن الكريم والحديث الشريف. "فالقبسُ شعلةٌ من نارٍ تقتبس من معظم النّار بقصدِ الهداية"[4]. ومنهم مَنْ ذهب إلى القول: "إنّ الاقتباس يجب أن يحصلَ دون شعور المُقتبِس، فإن شعر باقتباسه، فلا يكون اقتباساً، بل استشهاداً"[5]. وفي الاقتباس تكون الصلة بين المعنى اللغوي والمعنى البلاغي ظاهرة؛ "لأنَّ المقتبِس مستفيدٌ بما اقتبسَهُ"[6].

فالأصل في الاقتباس: هو تقوية النّص وتوضيح المعنى، إذا ما عدنا إلى بدايات بني الأحمر وجدناهم حريصين على إرجاع نسبهم إلى أنصار الرسول الكريم، لهذا نرى أن كثيراً من شعرائهم قد تنبّه إلى هذه القضيّة، فحاولوا أن يظهروا لهم بأنهم على معرفةٍ بكتاب الله وسنّتهِ، فجاء إكثارهم للاقتباس من القرآن والحديث الشريف، وظهر هذا واضحاً في المدائح النبوية التي كانوا يلقونها أمام سلاطينهم. ومن هذا ما جاء عند ابن الخطيب في مدح رسول الله حيث يقول:

---

[1] العسكري، أبو هلال: كتاب جمهرة الأمثال. ج: 2.

[2] ينظـــر: تضمين الأمثال في: ابن الخطيب: الديوان. ج: 2. ص: 821 – 822.

ينظـــر: ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 41 – 165.

ينظـــر: يوسف الثالث: الديوان. ص: 128 – 1299.

ينظـــر: أزهار الرياض. ج: 2. ص: 18 – 51. الكتيبة الكامنة: ص: 94 – 178 – 181.

[3] الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 575.

ينظـــر: الجارم، علي وآخرون: البلاغة الواضحة. ط: 21. مصر: دار المعارف. 1969. ص: 270.

[4] الفيروز آبادي، مجد الدين: القاموس المحيط. 727.

[5] فيّود، بسيوني: علم البديع، دراسة تاريخيّة وفنيّة لأصول البلاغة ومسائل البديع. ص: 268.

ينظـــر: العلي، فيصل: البلاغة الميّسرة في المعاني والبيان والبديع. ص: 221.

ينظـــر: معطي، يحيى: البديع في علم البديع. ص: 224.

[6] المطعني، عبد العظيم: البديع من المعنى والألفاظ. ص: 195.

ينظـــر: الصابوني، محمد: الموجز في البلاغة العربية والعروض. ط: 1. بيروت: المكتبة العصرية. 1998. ص: 84. ا

كدَحــتَ إلى رَبِّ الجمــالِ مُلاقياً "فيا أيُّها الإنســـانُ إنّك كادحٌ"[1]

(الطويل)

فابن الخطيب أراد أن يظهر المعاناة التي واجهها الرسول الكريم في بدايةِ دعوتهِ، فجاء بالفعل "كدح" وهو الإجهاد في العمل، ثم اقتبس الآية الكريمة "يا أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه"[2] ليرسّخ من حجم المعاناة في أذهاننا، وجاء اسم الفاعل الذي يدلُ على الفعل ومَنْ قام بهِ، مرتبطاً بالفعل "كَدَحَ". فالاقتباس ظهر في كثير من أشعارهم، فاستعانوا به على مخاطبة الآخرين في معظم قضاياهم التي تمرّ بهم، ومن هذا ما جاء عند أبي القاسم الخضر بن أحمد بن أبي العافية، في وصفهِ للفقر والغنى، حيث يقول مخاطباً زوجتهُ:

وهُـــزّي إليكِ بجذْعِ الرِّضى تُســـاقِط عليكِ الأماني ثماراً[3]

(المتقارب)

ويظهر أن زوجته لم تكن قانعةً بالحياةِ معه، ولهذا فهو يحثُّها على الرضى بالقليل والصبر على ما قسم الله لهما، وهو يستحضر قصة مريم من خلال اقتباسه للآية الكريمة: "وهزّي إليكِ بجذعِ النخلةِ تُساقِطُ عليك رطباً جنيّاً"[4]. والشاعر في هذا الاقتباس يحاول أن يقيم على زوجته الحجّة من خلال الإقناع، فمريم أثناء ولادتها عيسى لم يكن لديها سوى حباتٍ من التمر تقتات بها.

وإلى جانب القرآن الكريم جاء اقتباسهم من الحديث الشريف، وهذا نلمحهُ في أشعار ابن الخطيب واضحاً، ومن هذا قوله منشداً السلطان أبا الحجاج بن نصر:

"مطلُ الغنيِّ ظلــمٌ" ففيم ظلمتني؟ ولوَيتَ ديني عن وجُودٍ يســـارِ[1]

(الكامل)

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 225.

(2) القرآن الكريم: سورة الانشقاق. آية 6.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة. ص: 181. ج: 2.

(4) سورة مريم: آية 25.

(1) ابن الخطيب لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 368.

فهو يضمن قولَهُ الحديث الشريف "مطلُ الغنيِّ ظلمٌ"[1] فهو بهذا يوجه لوماً للسلطان أبي الحجاج على تأخّرِهِ في أعطياتهِ له. واستحضر حديث الرسول؛ لينبّه أبا الحجاج ويحذّرَهُ من أن يكون كذاك الرجل الغنيّ الذي يماطلُ في أجر عامله؛ وهذا مكروه عند رسول الله. وبهذا الاقتباس، اســتطاع ابن الخطيب أن يكشــف مهارته في إحكام الصـــلة بين كلامهِ وبين النّص الذي اقتبسَهُ.[2]

فالاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، دليل قاطع يقوّي ما ذهب إليه الشاعر من أفكار ووجهات نظر.

ولجأ ابن خاتمة في وعظهِ إلى الاقتباس من الحديث الشريف يقول:

إذا وجدْتَ فجُــدْ للنّاسِ قاطبةً   فالحالُ تفنى ويبقى الذكـــــرُ أحوالا
لاسيما ورســـولُ الله ضامِنُهُ   أنفق ولا تخشَ من ذي العرشِ إقلالا[3]

(البسيط)

فابن خاتمة يلجأ إلى مدح البذل والعطاء والحضّ عليهما من خلال الاستعانة بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي يقول فيه: "أنفِق يا بلال ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا".

ويظهر الاقتباس واضحاً في أبيات أحمد بن علي الهواري، ويعرف بابن جابر، حيث يقول في حضّ الناس على حسن النيّة:

حسِّن النيّة ما اســطعَتَ ولا   تتّبع في النّاس ما قد نوى

---

[1] البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري. ت: طه عبد الرؤوف سعد. المنصورة مكتبة الإيمان. 2003. ص: 493. باب الاستقراض.

[2] الزين، نبيل: المرشـــد في البلاغـــة.ط: 1. عمّان: دار أســـامة. 1996. ص: 107. ينظـــــر الاقتباس في: المقّري: أزهار الرياض. ج:الصفحات: 198 – 203 – 204. ينظر ابن زمـــرك: الديوان: فهرس الآيات القرآنية. ص: 189. ينظر ابن الخطيب: الديوان. ج: 2. فهرس التضمينات والاقتباسات القرآنية والتضمينات الحديثيّة. الصفحـــــات: 815 – 816 – 817 – 818. ينظر ابن الخطيب: الإحاطة. ج: 4.الصفحات 103 – 213 – 521. يتظـــر ابن الخطيـــب الكتيبة الكامنـــة. الصفحـــات: 181 – 258. ينظر: ابن خاتمـــــــة: الديوان. الصفحات: 65 –94 – 137 – 155 – 164– 211. ينظر نثير فرائد الجمان: 238– 247. ينظر يوسف الثالث: الديوان: 17– 65– 86. ينظـــر: المقري، أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج: 9. الصفحات: 202، 203، 204 – 205، 207، 266.

[3] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 156 – 157.

إنّما الأعمال بالنيّات، مَــنْ ينوِ شـــيئاً فلهُ ما قد نوى[1]

(الرمل)

وقد أخذ هذا البيت من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكل أمريءِ ما نوى"[2].

الـمـــوسيــــقـــا الــداخــلــــــية

[1] المقري، أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج: 9. ص: 191.

[2] البخاري، محمد: صحيح البخاري. ص: 25.

المبحث الأول: إيـــقـــاع الــحــــــروف:

جاءت البنية الإيقاعية للحروف التي تشكّلت منها قصائد الشعراء في أغراضهم المختلفة، مواكبةً للغرض الذي يهدفون إليه، ولهذا فإنّنا نلحظ تفاوتاً في استخدامهم لها، فالحرف جاء عندهم ليشكّل لبنةً تُساهم في تشكيل هيكل القصيدة العام. وإذا ما ألقينا نظرةً فاحصةً على هذه الأغراض، فإنّنا نجدها قد جاءت في بنيتين إيقاعيتين مختلفتين، أولها: ما جاء في بنيةٍ إيقاعيّةٍ صاخبةٍ تتميز بموسيقاها العالية، والأخرى، اتّسمت بالإيقاع الهادئ الذي يميل إلى السكون.

ولجأ الشعراء إلى تزيين ألفاظهم بألوان من البديع اللّفظي من أجل تحسين الكلام عندهم. "وأصل الحسن في هذا التزيين؛ هو أن تكون الألفاظ تابعةً للمعاني، فإنّ المعاني إذا أُرسلت على سجيَّتها، وتُركت وما تريد، طلبت لأنفسها الألفاظ، ولم تكتسِ إلا ما يليق بها"[(1)].

ومن الألوان البديعية التي ظهرت في أشعارهم: الجناسُ، والسجع، والتصريع، وردّ العجز على الصور، إضافة إلى تعدد القوافي داخل البيت الواحد.

الــجــنـــــاس:

وهو تشابه الكلمتين في النطق واختلافهما في المعنى، ويسمى التجنيس والتجانس والمجانسة.[(1)] والجناس نوع من أنواع التكرير بالمعنى العام.[(2)] ويفيد في خلق تماثل إيقاعي داخل النص.[(3)] والجناس يحتاج إلى توازن دقيق بين أجزاء الكلام المتجانس والكلمة نفسها. وممَّا جاء في باب الجناس قول ابن الخطيب:

مَا لِي أعذّب نفسي في مطامِعها　　　والنَّفسُ تُزْري بتهْذِيبي وتَهْذي بي
وإذا استعنتُ على دهرٍ بتجربةٍ　　　تأْبى المقادِيرُ تجرِبْبي وتجْري بي[(4)]

---

(1) الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 554.
(1) ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابهِ، ونقدهِ. ج: 1. ص: 321.
ينظـــر: الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 535.
(2) السيّد، عز الدين: التكرير بين المثير والتأثير. ط: 2: بيروت: عالم الكتب. 1986. ص: 102.
(3) ابن معطي، يحيى: البديع في علم البديع. ص: 100.
(4) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 147. ينظر: ابن الأحمر: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. ص: 251.

(البسيط)

فابن الخطيب يظهر دقّةً في اختيار ألفاظهِ، ويظهر الجرس الموسيقي في توالي حروف المدّ في قوله: "تهذيبي وتهذي بي" و "تجريبي وتجري بي" فالياء حرف مدّ يحتاج إلى نفس طويل وجهد واضح في نطقهِ، "والكلمة التي تشتمل على واحدٍ من حروف المدّ، يصبح لها إيقاع واضحٌ، لأنَّ النغمة تتولد من خلال تطويل النفس في هذا الحرف، ويكون الصدى فيه طويلاً"[1] وهذا يتناسب مع جوهر الأبيات ومضمونها، فعذاب النّفس منبته الطمع، والمقادير تتحكم بحياة الإنسان على طولها حتى وفاتهِ.

ومن قوله في الجناس:

إنّ الصَّـــــــدَاقةَ لفظةٌ مَدْلُولُها	في الدَّهْرِ كالعَنْقاءِ بلْ هو أغْربُ
كم فضّةٍ فُضَتْ، وكم من ضيعةٍ	ضاعتْ، وكم ذَهَبٍ رأينا يَذْهَبُ[2]

(الكامل)

واستطاع الشاعر أن يعبِّر عن موقفهِ في الصداقة من خلال توليد معانٍ جديدة، باستخدام هذا اللون من البديع. فالفضة والذَّهب يُؤلفان بين الأخوان والأصحاب، وهما اللذان يبنيان الضياع، ولكنَّهما في الوقتِ نفسهِ يهدمان ما بينهم من جسور المودّةِ والمحبّة.

والتطابق الإيقاعي بين ركني التجانس يتعانق مع المعاني وإحساس الشاعر بها، على الرغم من تباين مدلولهما في الواقع، فهما مختلفان في المعنى واقعاً، لكنهما تتّحدان في نفس الشاعر إحساساً، "ومن هنا تأتي مهمة الشاعر في المزج والجمع بين العناصر المتباعدة، وتحقيق الوحدة فيها من خلال عاطفتهِ وإحساسه"[1].

---

[1] عبد الله، محمد: جماليات اللغة وغنى دلالاتها من الوجهة العقدية والفنيّة والفكرية. ط: 1. القاهرة: دار إحياء الكتب العلمية. 1993. ص: 293.

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 111.

ينظــر: الجناس في الصفحات: 95، 100، 116، 129، 131، 164، 167، 230، 231، 337، 382، 385، 394، 511، 513، 514، 526، 527، 528، 533.

[1] مصطفى، محمود: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث: ص: 78.

يقول الملك يوسف الثالث:

والملحـــــدون بما قالوا وما فعلوا للســـــيفِ ما كتَّبوا والمَحْوُ ما كتبوا[1]

(البسيط)

الجناس عند هذا الملك، صادر عن طبع لا عن تكلّف، وجاء عفوياً، والمعنى هو الذي يطلبهُ، والجناس وقع بين الفعلين "كتّبوا" الذي جاء على وزنّ "فعّل" ويدلّ على التكثير، والمعنى فيه أن الأعداء يحشدون الكتائب للقتال على وجه الكثرة. والفعل الثاني هو "كتبوا" وهو من باب الكتابة. ويظهر الشاعر براعته من خلال الربط بينهما برابط الجمع الذي تم من خلال الضمير وهو "واو الجماعة".

ونجد هذا اللون من البديع ظاهراً في أشعار ابن زمرك وابن خاتمة وابن الخطيب. فلا نكاد نجد قصيدة تخلو منه. يقول ابن زمرك:

كم مشـــهدٍ زحَفَ النبيُّ لحَرْبهِ في مَعْشَـــرِ الأنصارِ نعمَ المعْشَرْ[2]

(الكامل)

ومما ظهر عند ابن خاتمة قوله:

مجالُ لُطفِكَ بين النَّفْسِ والنَّفَسْ وسرُّ هَدْيك بين النارِ والقَبَسِ
غرَّتْهُ غُرَّةُ دنيا بالصِّــبا فصَبَا وأنَّسَتْتهُ بتهوين الهوى فَنَسِي[1]

(البسيط)

فالشاعر يبدأ قصيدته بتمجيد وحمد لله تعالى، فيقول: إنّ حياة الإنسان ليست إلا إمساك النَّفْسِ باستمرار جريان النَّفَسْ بلطف سعت إلى الدنيا ونسيت الآخرة. فكان هذا وبالاً عليها،

---

(1) الملك يوسف الثالث: الديوان. ص: 5.

(2) ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 46.

(1) ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 33، 35.

ولجأ ابن زمرك إلى استخدام كلمة (الصِّبا) لما فيها من دلالات التمتّع بالدنيا وعدم الاكتراث بالآخرة، وكلمة (صَبَا) "بمعنى الجهل والفتَنة"[1].

فالشاعر يستخدم كلمة (مَعْشَر) في معنيين مختلفين، ففي الأولى جاءت في معنى الجماعة، والثانية جاءت في باب حسن المعاملة، وكأنّهُ بهذا يحصر الشجاعة ومؤازرة المظلوم في جماعة الأنصار. فهو من خلال هذه الأبيات أعادنا إلى نسب بني الأحمر الذي يتصل بهم.

فالشعراء استطاعوا من خلال الجناس أن يوجدوا تآلفاً في إيقاع الحروف داخل الكلمات، فجاءت كقطرات الماء التي تنساب من جدول، مشكلةً حركة واحدة تدل على روعةٍ وجمالٍ فائقتين.

ومن الجناس ما نراه عند ابن زمرك حيث يقول:

هُوَ النَّجمُ حَقّاً قد تَطَلَّعَ مِنْ بَـــدْرِ   لوارث أنصار النُبُوّة في بَـــدْرِ[2]

(الطويل)

وجاء الجناس بين كلمتين هما (بدر) الأولى، وتدل على الجمال والإبداع، وكلمة (بدر) الثانية، وهي معركة بدر التي انتصر المسلمون فيها، والشاعر هنا يربط السلطان الغنيّ بالله بحادثة معركة بدر، وهو بهذا يرفع من مكانتهِ بين الملوك.

ومن الجناس والتصريع ما جاء عند ابن خاتمة الأنصاري حيث يقول:

بَدْرُ تِمٍّ بأفــقِ قلبـــي تَجلّـــــى   جَلَّ في الحُسْنِ أن يُناعَتَ جلا

حرَّم الوَصْلِ والصُّدودَ أحـــلا   وضروبَ الأسى بصدري أجلا

كيفَ قلْ لي: عن الهوى يَتَسلَّى   مَـــــنْ حَشــاهُ بَوْجدِهِ يتصلَّى[1]

---

[1] أنظـــر: الفيروز آبادي، مجد الدين: القاموس المحيط. ص: 1679.

[2] ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 193.

ينظـــر: الجناس: ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات: 46، 48، 53، 57، 58، 61، 63، 71، 79، 81، 247، 235، 417، 418.

ينظـــر: ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. الصفحات: 29، 33، 34، 35، 42، 45، 65، 67، 68، 72، 74، 75، 77، 79، 81.

(الخفيف)

إنّ الإيقاع الموسيقي يبدو واضحاً في هذه الأبيات، وجاء نتيجةً لاعتماد الشاعر على أكثر من لون بديعيٍّ. فاعتمد على الجناس، والطباق، والتصريع، وردّ العجز على الصدر، وكلّ هذا جاء في آن واحد. ففي البيت الأول نرى الجناس ظاهراً من خلال كلمتي (جلّ، جلا). أمّ البيت الثاني، فقد ورد فيه الجناس من خلال كلمتي (أحَلا، أحلا)، ومنهُ فقد لجأ إلى ردّ العجز على الصدر. وفي البيت الثالث، ظهر التصريع في قولهِ: (يَتَسَلَّى: فعلاتن) و(يَتَصَلَّى: فعلاتن) وهما في نفس الموقع جناس غير تام.

ويظهر إبداع الشاعر من خلال التآلف الموسيقي الذي حدث بين هذه الألوان، فلم نرَ تنافراً من شأنه أن يؤذي أذن السامع، فالإيقاع جاء رتيباً متناغماً.

والتصريع هو: "جعل العروض مقفّاة تقفية الضرب. وهو ممّا استحسن، حتى أن أكثر الشعر صُرِّع البيت الأول منهُ"[2].

وظهر التصريع واضحاً في قصائدهم، ومنهُ ما جاء عند عبد الله بن سعيد السِّلْماني حيث يقول:

سِـــهامُ المنايا لا تطيشُ ولا تُخْطي   وللدَّهرِ كَفٌّ تَسْـــتردُّ الذي تُعطِي[1]

(الطويل)

فالتصريع يظهر بين الكلمات: (ولا تخطي، الذي تعطي) وهما على وزن مفاعيلن التي هي من ضرب الطويل وعروضهِ في هذا البيت.

---

[1] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 131.

[2] الخطيب، القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 551.

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 298.

أنظـــر: التصريع:

ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. الصفحات: 33، 48، 67، 70، 74، 78، 76، 90.

ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. الصفحات: 414، 416.

ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات: 50، 57، 73، 85، 103، 132، 147، 174، 185، 188، 193، 197، 199.

ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات: 134، 148، 155، 167، 180، 181، 229، 245، 259، 306، 337، 359.

وكذلك فمن التصريع ما جاء عند صالح بن شريف النّغزي حيث يقول:

يا طَلْعةَ الشـــمسِ إلا أنّهُ قمرٌ   أمَّا هواكِ فلا يُبْقي ولا يَـــذَرُ[1]

(البسيط)

فالتصريع جاء في كلمتين (قمرٌ، يَذَرُ) وهما يقعان في آخر الصدر، وآخر العجز على الترتيب. ويظهر التجانس الصوتي في نهاية كل مصراع من البيت. فالإيقاع جاء من خلال التكرار (فعلن).

ومن الشعراء من ردّ العجز على الصدر وهو: "أن يكون أحدهما في آخر البيت، والآخر في المصراع الأول، أو حشوهِ، أو آخرهِ، أو صدر الثاني"[2].

ومنه ما جاء عند ابن خاتمة الأنصاري في وصف فتاةٍ جميلة حيث يقول:

لِمُحيَّاة المُحَيَّا رَوْنَـــــقٌ   يا لقلبي ولِذاكَ الرَّونَـــــق[1]

(الرَّمل)

فالشاعر في هذا البيت يردّ العجز (الرّونق) على آخر المصراع الأول، وهذا شكل تجانساً صوتياً من خلال تكرار كلمتي (الرونق، رونق).

ومن هذا اللون ما ظهر عند ابن زمرك الغرناطي، أثناء وصفهِ لجيش الغني بالله حيث يقول:

ولَرُبَّ ذي بصرٍ حَديدٍ قـــــد غدا   يُعْشِـــــيهِ مِنْ لَمْعِ الصِّقَالِ حَديدُ[2]

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 278.

(2) الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 543.

أنظـــر: ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقدهِ. ج: 1. ص: 173.

(1) ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 100.

(2) ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 119.

أنظـــر: ردّ العجز على الصدر:

ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات: 109، 111، 119، 139، 193، 196، 197.

(الكامل)

فالشاعر يلجأ إلى تكرار كلمة (الحديد) الواردة في عجز البيت ويضعها حشواً في الصدر. وجاءت منوّنةً (ذي بصرٍ حديدٍ). وهذا زاد من وقد الجرس الموسيقي في السامع.

وظهرت الموسيقا واضحة من خلال تعدد القوافي الداخلية في أشعارهم. ومن هذا ما جاء عند ابن خاتمة الأنصاري حيث يقول:

نورٌ لمُقتبـــــسٍ، حزرٌ لمُحترِسٍ يُمنٌ لمُنتكِسٍ، نُعْمى لمبتئـــسٍ

أعظِمْ به من هُدًى للمُقتَفِين، ندًى للمُعْتَفِين، ردًى للمُلْحِدِ النكِسِ[1]

(البسيط)

فالشاعر يلجأ إلى التعدد في القوافي الداخلية، ففي البيت الأول نراه يستخدم الكلمات: (لمقتبسٍ، لمحترسٍ، لمنتكسٍ، لمبتئسٍ). أمّا البيت الثاني فاستخدم فيه الكلمات: (هدًى للمقتفين، ندًى للمعتفين، ردًى للملحد النّكِسِ). إن هذا التكرار الذي جاء مصاحباً للتنوين، وقد أعطى الألفاظ جمالاً نتج عن التتابع في الجرس الموسيقي، فالشاعر استطاع أن يضعنا في جوٍّ مفعمٍ بالحيوية والحركة. ولعلّ الذي ساعد في خلق هذا الجوّ، هو استخدام التنوين المصاحب لحرف السين، وهو صوت صفيريّ مهموس.

إن تتابع القوافي داخل الأبيات، من شأنهِ أن يجعل السامع تحت تأثير الموسيقا التي تشدُّ انتباه كلّ مَنْ يستمع إليها؛ لأنّ القصيدة تصبح أغنيةً كاملةً لا نستطيع أن نقتطع جزءاً منها.

ومن هذا قول ابن الخطيب في وصفهِ للطائر الحسون:

أحسنتِ أحسنتِ أَمّ الحَسَـــــنْ لقد جئتِ بالحُسْنِ في كلّ فَنْ

ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات: 163، 388، 390، 500، 550، 723.

ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. الصفحات: 40، 45، 50، 63، 72، 79، 80 – 103.

ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. الصفحات: 291، 308، 317، 321.

[1] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 34.

مُحَيّا عجيبٌ، وشخصٌ طَرْوبٌ   وسَجْعٌ أديبٌ وصوتٌ حَسَنْ[1]

(المتقارب)

فالشاعر يبدأ قصيدته بتكرار قوله: (أحْسَنْتِ، أحسنتِ)، ثم أتبعها بقوله: (أمّ الحسن)، وفي العجز يأتي بقوله: (بالحسن... فن). ثم لا يلبث أن يبدأ بالغناء من خلال تعدد القوافي في قوله: (محيا عجيب، شخص طروب، سَجْع أديب). ثم ينهي كما بدأ في البيت الأول من خلال قولهِ: (صوت حســـن). واســـتخدم حرف النون وهو مـــن الأصوات الموســـيقية التي لها تأثير سمعي واضح.

ومن تتابع القوافي ما جاء في مدحهِ وبيان حبهِ للرسول الكريم. حيث يقول:

سَلْ ما "لسلمى" بنار الهجرِ تَكْوِيني   وحبُّها في الحَشَى مِنْ قبل تَكْويني

النّار في كبدي، والشـــوق يقلقني   والقربُ ينشُــرُني، والبعدُ يطويني[2]

(البسيط)

فالشاعر يبدأ أبياته من خلال الاعتماد على الجناس التام، الذي ظهر في قوله: (تكويني) الأولى والتي عبّرت عن الأذى والألم. و(تكويني) الثانية التي عبّرت عن النفس البشرية. فهو يربط بين الألم وحبّه القديم للرسول الكريم، ثم لا يلبث أن يرسخ هذه الفكرة في نفوسنا من خلال التعدد في القافية داخل البيت من خلال قوله: (الشوق يقلقني، القربُ ينشرني). وهذا التعدد جاء مصاحباً لضـــمير المتكلم، وكأن هـــذه الصـــفات التي تـــدلّ على معاني الألم قـــد بدأت مـــع ولادة هذا الشاعر.

والسجع من ألوان البديع التي ظهرت واضحة في أشعارهم، فلا نكاد نجد قصيدةً واحدةً تخلو مـــن هـــذا اللون،[1] فجاءت عباراتهم رشـــيقةً خفيفةً على السّـــمع، وهـــذا أعطاها إيقاعاً موسيقيّاً ثابتاً.

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص: 124.

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص: 610.

ينظـــر: المقّري، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 1. ص: 316.

ومن السّجع ما ظهر عند ابن زمرك الغرناطي حيث يقول:

مَلِيْكٌ لَهُ تَعْنُو المُلوك جَــلالةً   يُجَرِّرُ أذيــــال الفَخَارِ مُطَالَةً
وتَفْرَقُ أُسْدُ الغَابِ مِنْهُ بَسَالةً   وتَرْضاهُ أنصارُ الرَّسولِ سُلالةً[2]

(الطويل)

فالشاعر يلجأ إلى استخدامهِ في قولهِ: (جَلالةً، مُطالَةً، بسالةً، سُلالةً). وهذا منح الأبيات إيقاعاً موسيقيّاً ثابتاً؛ مما جعله يتسم بالرتابة وحسن الوقع على أذن السامع. ولعلّ مجيء التنوين في سياق السّجع، قد ساهم في إظهار هذا الإيقاع واضحاً ومسموعاً.

ومنه ما ظهر عند لسان الدين بن الخطيب حيث يقول:

يميناً بيانِعِ وَرْدِ الخُـــــدودِ   وعَذْبِ اللَّمَى في الشَّهِيِّ البَرُودْ
جَمالُكَ مَعْنَى جَمالِ الوجودِ   وبابُكَ مَغْنَى مَضَاءٍ وَجُـــــود[1]

(المتقارب)

فالشاعر في مديحه للسلطان أبي الحجاج يستخدم السجع من خلال قوله: (الخدودِ، البرود) و(جمالكَ، بابك) و(معنى، مغنى) و(الوجود، جود).

فابن الخطيب يكثر من استخدامهِ للسّجع في هذا البيت، فاستطاع أن يحشد العديد منه. وظهر التآلف الصوتي واضحاً بين العبارات. ولهذا فقد بدت الألفاظ خفيفةً عذبة، ممَّا جعل أذن السامع ترتاح لها.

---

(1) أنظـــر: السجع:

ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. الصفحات: 41، 82، 84، 88، 109، 111، 112، 114، 127، 139، 142، 143.

ينظـــر: ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات: 226، 283، 291، 362، 371، 383، 393، 402.

بنظـــر: يوسف الثالث: الديوان. الصفحات: 70، 71، 75، 81، 132، 136، 152، 157.

ينظـــر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات: 120، 122، 127، 128، 138، 169، 180، 185، 199، 219، 259.

(2) ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 395.

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص: 263.

ولم يغب الجناس عن أشعار ملوكهم، ومنه ما ظهر عند الشاعر الملك يوسف الثالث، حيث يقول:

على العَدْلِ يجري حكمُهُ وقضاؤهُ ومنالُهُ التســـــليمُ فيما يشاؤهُ
ومَنْ كان بالحقِّ اليقينِ اهتـــداؤهُ رأى النَّصرَ خفّاقاً عليهِ لواؤهُ[1]

(الطويل)

فالشاعر يكثر من استخدامهِ للسّجع من خلال قوله: (حكمهُ، قضاؤهُ، منالهُ، يشاؤهُ، اهتداؤهُ، لواؤهُ).

وجاء سجعه من خلال تكرار الضمير الذي يعود على محبوبته، وبهذا، فقد استطاع الشاعر من خلال هذا التكرار المنتظم أن يضعنا ضمن الحالة الشعورية التي كان يعيشها، فكلّ الخيوط قد أمسكها هذا المحبوب.

وساعدت الحياة اللاهية على شيوع الغناء في بيئتهم، مما استوجب عليهم الإكثار من استخدام هذا اللون من البديع. فالشاعر ينظر من حوله فيرى الأرض وقد زيِّنت بزينةِ الربيع وخضرتهِ ومياههِ المتدفقة، وســـجع طيورهِ التي انتشـــرت في حدائقهم التي امتـــدَّت على طول مملكة غرناطة. ومن هذا ما جاء عند ابن خاتمة الأنصاري حيث يقول:

حيَّا الرَّبيعُ بنرجـــــسٍ وَبَهارِ فارْدُدْ تحيَّتَهُ بكأس عُقَـــارِ[1]

(الكامل)

فالسّجع واضح بين كلمتي (بهار، عقار).

ومنه ما جاء في الطيور حيث يقول:

ووردیّـــــةِ الجلْبابِ أعجَبَها الـــوَرْدُ فغنّتْ وما بالغانياتِ لها عَهْــــدُ

---

[1] الملك يوسف الثالث: الديوان. ص: 70.

[1] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 76.

تُريكَ اضْطِراب الراقصاتِ إذا انْثَنَتْ وتُسْمِعُ لَحْنَ المُسْمِعَات إذا تشدو[1]

(الطويل)

فالشاعر يستخدم السّجع في وصف طيور البُلبل وهي تغني فرحةً بين البساتين التي امتلأت بالورود الجميلة. ونرى الشاعر يلجأ في وصفهِ إلى الاستعانة بالسّجع، ليظهر المشهد وكأنّه يجري أمام أعيننا، وظهر هذا في قولهِ (الوردُ، عهدُ) (الراقصات، المسمعات). إنّ استخدام السّجع في هذه الأبيات جاء مناسباً للمشهد الحركي الذي يجري داخل هذه الجنان.

ولعلّ التآلف الذي ظهر بين المجموعات الصوتية القوية، قد أدى إلى حشدٍ من الحروف يجتاح القصيدة، فالحرف داخل الجملة، أو المفردة يهيِّئ السبيل إلى حرف آخر يماثلهُ نغماً أو رسماً.[2] ومن هذا ما ظهر في قصائد ابن الخطيب في الاستنفار والجهاد حيث يقول:

أإخواننا لا تنسوا الفَضْلَ والعَطْفَا فقـــد كـــادَ نورُ اللهِ بالكفـــرِ أنْ يطفا
فَهَل ناصِرٌ مَســتبصِرٌ في يقينهِ يُجيرُ مَنْ اســـتعْدى ويَكفي مَنْ استكفى
ومُســـتنجزٌ فينا مِنَ الله وَعدَهُ فلا نكَـــثَ في وَعْـــدِ الإلاهِ ولا خُلْفَا
وكيف يَعيثُ الكُفْــرُ فينا ودونَنَا قبائِلُ مِنْكُمْ تُعجزُ الحَصْـــــرَ والوَصَفَا
إذا كَتَبَتْ يَوْمــاً فأقلامهــا ألقَنَا وإن أرْسلتْ يَوْماً كانت صَفَائِحها الصُّحُفا[1]

(الطويل)

فابن الخطيب يبدأ قصيدته بالصراخ الموجّه على أخوانهِ في المغرب، وأثناء هذا، فإنّه ينظم لنا سيمفونية تعتبر غايةً في الروعة والاتقان، حيث نراه يستخدم الحروف القوية ذات الدرجة العالية في السمع، فهو يستهل قصيدته بحروف التفخيم في قوله: "العطفا، يطفا". ونراهُ بعد ذلك يستخدم حروف "السين والصاد والزاي" (وهي حروف صفيرية عالية الدرجة)[2]، وقد ظهرت في قوله: "مستبصر، استعدى، ستكفى، مستنجز، صفائحها، الصحفا" وجاءت الحروف

---

[1] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 123.

[2] الصائغ، عبد الإله: الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنيّة. ط: 1. بيروت: المركز الثقافي العربي. 1999. ص: 170.

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. 678.

[2] النوري، محمد جواد: علم الأصوات العربية. ص: 147.

متآلفةً غير متنافرة، فالصاد حرف مفخم يقابلهُ حرف السين المرقق، والسين مهموسة تقابلها الزاي المجهورة، وكلها تنتمي إلى مخرج واحد.[1]

وإذا ما نظرنا إلى البنية الإيقاعيّة الهادئة، فإنّنا نجدها واضحة في غرض الرثاء، وبخاصة رثاء الأشخاص، فهذا الغرض يسودهُ الأنين والدموع، ولا يحتاج إلى صوت عالٍ ليسمع الآخرون، فالأحاسيسُ والمشاعر تُعتصر في القلوب. ومن هذا ما جاء في رثاء ابن زمرك لوالدِ السلطان الغني بالله حيث يقول:

سلامٌ على الدنيا جميعاً وما فيها   غداة نَعَتْ شمسُ الخِلافة مِنْ فيها
نَعت مَلِكَ الأملاكِ والكاملَ الذي   يكـــفّ عوادي الحادثاتِ ويكفيها
عميدَ بني الأنصارِ غير مدافعٍ   ومحيـــي معاليها ومولى مواليها
وبدرُ دَياجيها وشـــمس نهارها   وبشـــــرَ مُحيّاها ونورَ مجاليها[1]

(الطويل)

فابن زمرك يستخدم حروف المدّ على نحو واضحٍ في أبياتهِ، فحرف الألف ورد أكثر من عشرين مرّةً، وحرف الياء ورد سبعَ عشرة مرة، ولهذا ظهر تناغم وإيقاع هادئ ومسموع، نتيجةً لاستخدام هذين الحرفين. وهذه الحروف أينما وقعت في الكلمة، فإنّها تحدث إيقاعاً مؤثراً في الحسِّ والنّفس، وتتابعها يولّدُ طاقة من هذهِ الإيقاعات التي تفسح المجال لتنوّع النغمة الموسيقية للكلمة الواحدة، أو للجملة الواحدة لسعة إمكاناتها الصوتية ومرونتها.[2]

وظهرت الأصوات المهموسة واضحة في أشعار المديح ، ومن هذا ما جاء في مدح ابن الخطيب لأبي عنان المريني ملك المغرب، حيث يقول:

سَقَتْ سارياتُ السُّـــحب سَاحةَ فاسِ   سوانحُ تكسو السَّرحَ حُسْن لبَاس

---

[1] النوري، محمد جواد: فصول في علم الأصوات العربية. ط: 1. نابلس مطبعة النصر التجارية. 1991. ص: 98.
[1] ابن زمرك: الديوان. ص: 126.
ينظر: المقّري: أزهار الرياض. ج: 2. ص: 152.
[2] عبد الله، حسن: جماليات اللغة ودلالاتها. ص: 293.

وَسَارَ بتَسْـــــليمي لِسُـــدّةِ فارسٍ		نسيمٌ ســـــرى للسَّلسبيل بكاسِ
سِراجَ السُّرى، شمْسٌ، سَمَا قبسُ السَّنا		كَسَا ســاطياتِ الأسدِ لبسه باس
أنِسْتُ بمسرى سَـــيْبِهِ وتأنْســـتْ		بســـــاحتهِ نفسي وأُسْعِدَ ناسِي[1]

(الطويل)

ونلاحظ أن السين تكررت في هذه الأبيات في جميع الكلمات، وهي مهموسة، وجاءت مناسبةً للحال الذي يكتنف الشاعر، فهو مبعوث من قبل سلطانهِ الغنيِّ بالله إلى السلطان المغربي أبي عنان، والوقوف بين يدي هذا السلطان يتطلبُ الاحترام والتذلل، مما يستوجب استخدام صوت يحقق هذا الحال، وهو أمر يتماشى مع صوت السين البعيدِ عن الجهر والاهتزاز.[2]

المبحث الثاني: الـمـــشـتـقَّـــات:

استخدمَ الشعراء المشتقات في قصائدهم سعياً منهم في تقوية المعنى وتأكيد دلالته، فالمشتقات جميعها تحمل دلالاتٍ إضافية إلى دلالتها الأصلية، فاسم الفاعل يدلّ على الفعل ومَنْ قام به، فهو يحمل دلالتين، وهكذا الحال بالنسبة لباقي المشتقّات، فمنها مَنْ يحمل ثلاث دلالات، "وقد تكون هذه الدلالات متصفةً بالثبوت كما يحصل في الصفة المشبهة[1]. وأدرك الشعراء

---

(1) ابن الأحمر، اسماعيل: نثير فرائد الجمان فحول الزمان. ص: 289.
ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين. ج: 2. ص: 735.
(2) محمد، محمود: الأصوات العربية بين اللغوين والقرّاء: المدينة المنوّرة: مكتبة دار الفجر الإسلامية. 1998. ص: 111.
(1) الغلاييني، الشيخ مصطفى: جامع الدروس العربية. ج: 1. ط: 38. بيروت: المكتبة العصرية. 2000. ص: 178، 182، 185، 193.

أهميّة هذه المشتقات في أغراضهم الشعرية المختلفة، فاستطاعوا أن يسوقوها في أثناء قصائدهم بما يخدم الهدف الذي يريدون.

والأمر اللافتُ للنظر أن هذه المشتقّات جاءت ملازمة لألوان البديع المختلفة، وهذا الأمر نلحظهُ عند غالبية شعرائهم. فاستخدموا الصفة المشبهة، واسم التفضيل، واسم المفعول، واسم الفاعل في الجناس، والسجع، والتصريع، وغير ذلك من ألوان البديع الأخرى. ومن هذا ما جاء عند ابن زمرك الغرناطي حيث يقول:

صَاحِ ثَوْبُ الشُّحوب فوق الأصيل   مُسْـــتعارٌ مِن رقّتي ونُحُولي
مَنْ عذيري مِن النّســــيم عَلِيلاً   قد وَشَ في الهَوَى بسرِّ العَلِيلِ[1]

(الخفيف)

فالشاعر يستخدم الصفة المشبهة (عليل) في سياق استخدامهِ للجناس، فكلمة (عليل) الأولى جاءت بمعنى الهواء الخفيف على النّفس، أمّا كلمة (العليل) الثانية، فهي الإنسان الذي أَصابه المرض. ووردت الصفة المشبهة في لون آخر من ألوان البديع وهو التصريع، حيث جاءت كلمتا (العليل) و(عليل) في عروض وضرب البيت، وهما على وزن (فاعلاتن).

ومن استخدام الصفة المشبهة في ألوان البديع، ما جاء عند ابن الخطيب حيث يقول:

لَبِسْــنَ رِدَاءَ الصَّبَاحِ الجَدِيدِ   وَجَرَّرْنَ ذيــلَ الزَّمانِ الجديدِ[1]

(المتقارب)

---

[1] أنظـــر: ابن زمركن محمد: الديوان. الصفحات: 169، 170، 201، 224، 226، 234، 242، 271، 277، 280، 300، 353.
أنظـــر: ابن خاتمة الأنصاري، أحمد. الصفحات: 45، 209، 214، 216، 218.
أنظـــر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات: 129، 164، 473، 474، 482، 488، 517، 535، 567، 650.
أنظـــر: يوسف الثالث: الديوان. الصفحات: 23، 78، 81، 85، 113، 114، 119، 122، 123.
أنظـــر: ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة. الصفحات: 77، 82، 111، 168، 176، 178، 179، 233، 297.

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص: 265.

فالشاعر يستخدم الصفة المشبهة (الجديد) في لونين من ألوان البديع. أولهما: ما جاء في باب التصريع، ويظهر في كلمتين هما: (الجديد، الجديد). وتقعان في آخر الصدر وآخر العجز، وهما على وزن (فعولن). وثانيهما: ما جاء في باب ردّ العجز على الصدر.

ومن استخدام المشتقّات في البديع ما جاء عند ابن خاتمة:

الدَّهر يحكُمُ بيننا يا ظالِمَهْ   ها حَالتي هاتِيْ وأنــتِ العالِمَهْ[1]

(الكامل)

فالشاعر يستخدم اسم الفاعل في تصريعهِ لهذا البيت، وظهر هذا من خلال الكلمتين (ظالمهْ، عالمهْ). ويظهر فيهما لونٌ آخرٌ من ألوان البديع وهو السجع.

واستخدم ابن خاتمة اسم الفاعل في باب ردّ العجز على الصدر، ومنهُ قوله:

سائِلٍ كيفَ حالتيْ وهو يَدْري   أنّ دَمْعِي مِن الصَّبابةِ سائِلْ[1]

(الخفيف)

فالشاعر يستخدم في (ردّ العجز على الصدر) اسمَ الفاعل (سائل). حيث ورد في بداية الصدر ونهاية العجز. ويظهر هنا لون آخر من ألوان البديع وهو الجناس. فكلمة (سائل) الأولى جاءت بمعنى السؤال وكلمة (سائل) الثانية جاءت بمعنى المنسكب. إن هذا التتابع الذي ظهر في البيت من خلال المشتق (اسم الفاعل) وكذلك استخدامه في نوعين من أنواع البديع، قد أوجد نوعاً من التجانس الصوتي الذي نشأ بين المقاطع في كل مصراع من البيت.

ولجأ ابن خاتمة إلى استخدام الاسم المشتق في تعدد القوافي الداخلية في البيت، حيث يقول:

نورٌ لمُقتبــــسٍ، حزرٌ لمُحترِسٍ   يُمنٌ لمُنتكِسٍ، نُعْمى لمبتئــسٍ
أعظِمْ به من هُدًى للمُقتَفِين، ندًى   للمُعْتَفِين، ردًى للمُلْحِدِ النكِسِ[2]

---

[1] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 112.
[1] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 113.

(البسيط)

فالشاعر يستخدم اسم الفاعل في تعدد قوافيه الداخلية، وظهر هذا من خلال قولهِ: (مقتبسٍ، محترسٍ، منتكسٍ، مبتئسٍ) وقولهِ في البيت الثاني: (هدًى للمقتفين، ندًى للمعتفين).

إنّ هذا التعدد في استخدام القوافي والذي جاء من خلال استخدام اسم الفاعل، قد أوجد إيقاعاً موسيقيّاً ظاهراً. وهذا أدى إلى أسر انتباه السامع ووضعهِ في الجوّ العام للمعاني داخل القصيدة.

الموسيقا الخارجية

المبحث الأول: الوزن:

وهو مجموع التفعيلات التي يتألّف منها البيت، وقد كان البيت هو الوحدة الموسيقية للقصيدة العربية في معظم الأحيان.[1] ولا ريب أنّ لبحورِ الشعر وأوزانهِ، أثراً في الأداء، وفي

[1] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 34.

[1] فاخوري، محمود: موسيقا الشعر العربي. حلب: منشورات جامعة حلب / كلية الآداب. 1987. ص: 165.

موسيقا العبارة، وفي قوّة الأسلوب. ولذلك فالوزن يأتي بعد الإيقاع والقافية ودقّة اختيار الكلمات وجودةِ صياغتها، وهو قمّة الأداء الموسيقي في الشِّعر.[1]

وإذا وقفنا عند البحور التي اختارها الشعراء في هذا العصر، فإنّنا نجدهم مقلّدين للنّهج الذي سار عليه الشعراء المتقدّمون، فهم يلجؤون في أغلب أشعارهم إلى بحور الطويل والكامل والبسيط. وأثناء تتبعنا لأشعار المشهورين منهم، كابن الخطيب، وابن زمرك، وابن خاتمة الأنصاري، والملك يوسف الثالث، فقد وجدنا أن الغالب في قصائدهم قد نسج على هذه البحور الثلاثة، وكانت النتائج على النحو الآتي:

ابن الخطيب: وجدنا عنده مئةً وثمان وسبعين قصيدةً على البحر الكامل، ومئتين وخمسَ عشرة قصيدة على البحر الطويل، وواحدة وتسعين قصيدة على البحر البسيط، وسبعاً وأربعين قصيدة على البحر الوافر، واثنتين وعشرين قصيدة على البحر المتقارب، وأما بقية القصائد والمقطوعات، وعددها مئة وثمانون، فقد جاءت على بقية البحور، كالسريع والمنسرح والرمل والرجز والخفيف والمجتث.[1]

ابن زمرك: جاء معظم شعرهِ على ثلاثة أوزان، وهي: الكامل والطويل والبسيط، وبلغت نسبة الكامل 42%، والطويل 44%، والبسـيط 10%، والبقيّة من أشـعارهِ البالغة 3% جاءت على بقية البحور. [2]

الملك يوسف الثالث: جاءت أشعاره في معظمها على هذه البحور الثلاثة وهي: الطويل والكامل والبسيط، حيث بلغت في مجملها ما نسبتهُ 70%.[3]

---

[1] سـليمان، نايف: الواضح في العروض وموسيقى الشعر. ط: 1. عمّان: دار الفكر للنشر. 1991. ص: 7. ينظر: الأسعد، عمر: علم العروض والقافية.. ط: 4. الأردن: عالم الكتب الحديث. 2004. ص: 21.

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. فهرس الأشعار: ص: 823.

[2] الحمصي، سليم: ابن زمرك، سيرته وأدبه. ص: 244.

[3] مصطفى، محمود: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث. ص: 115.

وأما ابن خاتمة الأنصاري: فقد جاءت نصفُ أشعارِهِ على هذه البحور الثلاثة، حيث بلغت نسبة البسيط 25%، و20% على الكامل، و10% على الطويل، 12% على الخفيف، و7% على المتقارب، و5% على الوافر، و9% على السريع، و12% على بقيّة البحور.[1]

إنّ استخدام هذه البحور الثلاثة ــ الكامل، والطويل، والبسيط ــ على وجه الكثرة لم يأت عبثاً ووليداً للصدفة، بل إنّ الظروف التي أحاطت ببني الأحمر، وسير حياتهم في هذه المملكة التي كانت تحيط بها الأهوال، هي التي قادت شعراءهم لكي يستخدموا بحراً دون آخر في قصائدهم.

وقديماً ذكروا أن الغضب ينتج الحماسة والتهديد والشكوى والهجاء، والإعجاب ينتج المديح والوصف الجميل، والحبُّ ينتج النسيب والمديح، والازدراء ينتج الهجاء، والحزن ينشئ الرثاء والعتاب، والطرب يقود إلى الفخر والخمريات.[2]

والحماسة من حمس بمعنى اشتد وقوي، وفن الحماسة في الشعر هو فن القوة أو فن الأسلوب القوي الشديد، فالكلمات قوية الجرس، إيجابية المعنى، وهي رماح وسيوف، وطعن وضرب، وقتل وأسر، وانتصار ودماء.[1] وقد لوحظ أنّ الطويلَ يتّسع للفخر والحماسة.[2] ومن الذين نظموا في الحماسة شاعرنا ابن الخطيب حيث يقول:

أنتَ ابنُ أنصـــــارِ الهُدى وحُمَاتِـــــهِ	هَنــيئاً لَهُمْ هذا الثّنــاء المخَلــــَّفُ
شـــــــعارُهُم عِلْمٌ وَحِـــــلْمٌ ونائــــلٌ	وحَرْبٌ ومِحْرابٌ وسيفٌ ومُصْحَفُ
فكم أطلعوا في الحربِ من تجْرٍ صارمٍ	يُعفّرُ آنافِ الطغـــــاةِ ويُرعِــــفُ[3]

(الطويل)

---

[1] ابن خاتمة الأنصاري: الديوان / الفهرس. ص: 232.

[2] الشايب، أحمد: الأسلوب، دراسة بلاغية لأصول الأساليب الأدبية. ط: 12. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 2003. ص: 79.ا

[1] الشايب، أحمد: المرجع نفسه. ص: 80.

[2] الأسعد، عمر: علم العروض والقافية. ص: 41.

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 671.

فابن الخطيب منذ بداية القصيدة، وهو يحاول إثارة الهمم والعزيمة في نفس وقلب أبي الحجاج، فلم يجدوا بحراً يتَّسع لهذا الهدف على نحو أفضل من الطويل، فهو بحرٌ ذو تفاعيل كثيرة تتّسع لكلامتهِ وأنّاتهِ وشكواه، وجاء ملائماً لأغراضهِ الجديّة التي تتمثل في الدعوة إلى القتال والتصدي:[1]

وهذا الملك يوسف الثالث، الذي تموج نفسه بمشاعر العزّ والكبرياء لم يجد متَّسعاً للتعبير عنها إلا من خلال البحر الطويل، فهو بحرٌ يستوعبُ هذا الملك وعنفوانه، حيث يقول:

إذا شئتَ أن تُعطى المقادةَ أهلها　　　وتلقى حُسَامَ النَّصرِ في كفِّ ضاربِ

تجدِني مِقْداماً على الهَوْلِ لم أبلُ　　　بما جَمَعُوا أو عدّدوا مــــن مقانب

يصاحبني حزمٌ يَخُونُ هاجســـي　　　وعزمٌ كما سُلتْ رِقاقُ المضـــــاربِ[2]

(الطويل)

ونراهُ يصدّر بيتهُ بأداة الشرط غير الجازمة (إذا) وهي ظرف متعلق بجوابهِ، ولكنّنا نلحظُ أنّه أخرَّ الجواب إلى البيت الثاني، وهذا يتناسب مع الطول الذي بنى أبياته عليهِ، حيث بناهاَ على البحر الطويل، ليربط بين البيتين من جهة، وليثبت طول نفسهِ من جهةٍ أخرى.[1]

وإلى جانب الطويل يكثرُ استخدام الكامل، فهو بحر يصلحُ لأكثر الموضوعات؛ وهو في الخبر أجود منه في الإنشاء، وأقرب إلى الرقّة[2] ولهذا نراه يصلحُ للوصف والمديح والنسيب وغير ذلك من الأغراض الأخرى، إلا أنّنا نراه بوضوحٍ في الوصف؛ لأنّ هذا اللون يحتاج إلى

---

(1) الفاخوري، محمود: موسيقا الشعر العربي. ص: 174.

(2) الملك يوسف الثالث: الديوان. ص: 5.

(1) مصطفى، محمود: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث. ص: 117.

(2) الأسعد، عمر: علم العروض والقافية. ص: 41.

الأساليب الخبرية، وهذا ما نلحظه في أشعار ابن الخطيب وابن خاتمة الأنصاري، فالأول جاءت أكثر أوصافهِ في الكامل[1]، حيث يقول:

بلدٌ يَحُفُّ به الرّياضُ كأنّهُ　　　وَجْهٌ جميــلٌ، والرياضُ عِذارُهُ

وكأنّما واديهِ مِعْصَمُ غادةٍ　　　ومِنْ الجُسورِ المحكَماتِ سِوَارُهُ[2]

(الكامل)

ولجأ ابن خاتمة في غزلهِ إلى استخدام البحر الكامل ليعبّر عن أحاسيس تعتمر في داخلهِ حيث يقول:

اللهُ يكفـــــي عاذلـــي وَرَقـــــيبَها　　　حتّى تُثيبَ على الهَـوَى وأُثيبُها

ما كانَ ضَرَّ وقَدْ عصـــيتُ عَوَاذِلي　　　أنْ لم تكُنْ تعصي كــذاك رقيبَها

وأنا الفقيرُ إلى اختلاســـــةِ لحظةٍ　　　مِنْها، وتقتُلُ بالصُّـــــدودِ كئيبَها

لمياءَ تَبْسِــــــــمُ عَنْ عقودِ لآلـيء　　　يا برْدَ كبدي لو رشــفتُ شَنَيبَها[3]

(الكامل)

فابن خاتمة يشكو من عاذلهِ، ومن رقيب المحبوبة المذكورة، ويقسم أنّ راحتهُ لا تكون بغيرها. فالأحاسيس المرهفة جاءت مناسبة للبحر الذي قيلت فيه هذه القصيدة، فهذه الأبياتُ بعيدةٌ عن الحدّةِ والخشونة، وتميلُ إلى الهدوء والرقّة، وهذا أدى إلى وجود التناغم بين إيقاع الأبيات ومضمونها.

وجاء استخدام البسيط واسعاً عند أغلب شعرائهم، ولا سيما في أشعار ابن خاتمة الأنصاري، فهو يأتي في مقدمة البحور عندَهُ. والبسيط يقرب من الطويل، وإن كان لا يتّسع مثلَهُ لاستيعاب المعاني، ولا يلين لينه للتصرّف بالتراكيب مع تساوي أجزاء البحرين، ولكنّهُ يفوقُهُ

---

(1) ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات: 93، 103، 105، 109، 193، 199.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 425.

(3) ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 86.

رقّةً وجزالةً، ولهذا قيل في الجاهلية، وكثر في شعر المولّدين[1]وسُمِيَ البسيط بسيطاً، لسهولته في الذوق وبساطتهِ.[2]

إنّ هذه الميزة جعلت الشعراء يستخدمونه في أغلب أغراضهم، فظهر في الحماسة والمديح والفخر وغير ذلك من الأغراض الأخرى. ولعل الرقَّة التي ظهرت فيه، جعلتهُ قريباً وصالحاً للمديح النبوي، حيث يقول ابن زمرك:

أنتَ المشَفَّعُ والأبصارُ شـــاخِصّة   أنت الغياثُ وهولُ الخطبِ قد فَدَحا

حاشَ العُلا، وجميلُ الظنِّ يشفعُ لي   أنْ يُخفِقَ السعي مني بعد ما نجحا

عَسَاكَ يا خيرَ مَنْ تُرجى وســـائلهُ   تنجي غريقاً ببحرِ الذّنبِ قد ســـبحا[3]

(البسيط)

إنّ مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم، تتطلب منّا مزيداً من الخشوع والإقدام، ولهذا يستوجب علينا استخدام ألفاظ تتوافق مع هذه المشاعر، فكان لا بدّ من استخدام البحر البسيط الذي يتسم بالرقة والسهولة. وفي مقابل هذا، فإنّه يتّسع لأغراض الحماسة، ومن هذا ما جاء عند أبي البقاء الرندي، حيث يقول:

لكلِّ شـــــيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ   فلا يغرَّ بطيبِ العيـــشِ إنســـــان[4]

(البسيط)

فالرندي يستثير عزمات المسلمين مستخدماً البحر البسيط، ولهذا فقد ظهرت العواطف في أبياتهِ واضحةً، على نحو ما مرّ بنا سابقاً في ذكرنا لهذه القصيدة.

والوافر من البحور التي كانت أقلّ استخداماً، وظهر عندهم في الرثاء والاستعطاف والغزل. فالوافر هو ألين البحور، يشتدُّ إذا شددتهُ، ويرقُّ إذا رققتهُ.[1]

---

[1] الأسعد، عمر: علم العروض والقافية. ص: 41.

[2] الحنفي، الشيخ جلال: العروض، تهذيبهُ وإعادة تدوينهُ. ط: 2. بغداد: مطبعة الإرشاد. 1982. ص: 205.

[3] ابن زمرك: الديوان. ص: 27.

[4] المقّري، أحمد: نفح الطيب. ج: 5. ص: 373.

ومن ظهوره في الاستعطاف قول ابن زمرك وهو يستعطف السلطان أبا الحجاج:

بما قد حزتَ من كَرَمِ الخِلالِ   بما أدركتَ من رتـــب الجلالِ
بما خوّلتَ مـــــن دين ودنيا   بما قد حُزتَ من شرفِ الجَمال
تغمدني بفضلك واغتفـــــرها   ذنوباً في الفِعال وفــــــي المقال[2]

(الوافر)

فالمشاعر الرقيقة هي التي سيطرت على هذه الأبيات، ويظهر التوسُّل واضحاً عند ابن زمرك، وكأنّه أمامَ فِعْلة كبيرة يريد المغفرة والصفح عنها عند أبي الحجاج.

ونخلصُ إلى القول: إنَّ البحور الشعرية التي استخدمت عند شعراء بين الأحمر، جاءت ملبيّةً لحاجاتهم وأحاسيسهم، ووفق ما يقتضي الحال، ولكن نعود إلى حكم ذكرناه في السابق، وهو أن فنون القول هي واحدة، ولهذا لا بدّ لنا من القول أن البحور الشعرية في التاريخ العربي هي واحدة أيضاً، فمن الطبيعي أن يستخدمها الشاعر الأندلسيّ في غرناطة، كما استخدمها الشاعر الأمويَّ في دمشق، والشاعرُ العباسيُّ في بغداد.

المبحث الثاني: القافية:

القافية: هي آخر حرفٍ ساكن في البيت، إلى أول ساكن يليه من قبلهِ، مع الحرف الذي قبل هذا الساكن.[1] وقد اختلف الباحثون في حقيقة القافية، وعدّها الأخفش بقولهِ: إنّها آخر كلمة

---

[1] الشايب، أحمد: الأسلوب، دراسة بلاغية تحليليّة لأصول الأساليب الأدبية. ص: 82.

[2] ابن زمرك: الديوان. ص: 105.

[1] الفاخوري، محمود: موسيقا الشعر العربي. ص: 137. ينظر: العلي، فيصل: الميَّـــــــسر الكافي في العروض والقوافي عمّان: مكتبة الثقافة للنشر. ص:120. ينظر: أبو مغلي، سميح: مبادئ العروض. ط: 3. 1984. ص: 36.

في البيت، ومنهم من يرى أنها حرف الرويّ في آخر البيت[1] والقافية ليستِ إلا عدّة أصوات تتكرر في أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يكون جزءاً هامّاً من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية التي تتردد في فترات زمنية منتظمة.[2]

وتتركز القافية بشكل أساسي على حرف الروي، وهو الحرفُ الذي تبنى عليهِ القصيدة وتنسب إليه.[3]

ولا يخفى علينا أنّ للروي دوراً بارزاً في إضفاء النغم على القصيدة، فالشعر يحسن وقعهُ على السمع لحسن وقع قافيتهِ، ويسوء وقعه لضعف قافيتهِ، وسوء وقع رويّة، حتى ولو كان يتضمن المعاني البليغة والصور الشعرية الرائعة.[4]

وإذا كان لكلّ بحر صفات تلائم غّرضاً من الأغراض الشعرية، فالأمر كذلك بالنسبة إلى الروي، فلا يَحْسُنْ استعمال القاف، مثلاً، روياً في قصيدةٍ غزليّةٍ، لأنّهُ حرف استعلاء يتّصف بالشدّةِ ويجود في غرض الحرب والقتال.[5] ولهذا جاء استخدام حروف الروي بما يتناسب مع الحالة الشعورية التي يعيشها هؤلاء الشعراء، فابن زمرك يلجأ إلى الأصوات المهموسة في أغلب مراثيه، وله في هذا الغرض أربع قصائد: ثلاث منها جاء رويها مهموساً، ومنها ما جاء في رثاء الغني بالله حيث يقول:

عزاءً فإنّ الشجوَ قد كان يُسرِفُ — وبُشرى بها الراعي على الغور يشرفُ
لئن غَرَبَ البــدرُ المنيرُ محّمــدٌ — لقــد طلــعَ البـْدرُ المكمّلُ يوســـــفُ[1]

(الطويل)

---

[1] اسعد، عبد المنعم: علم العروض والقافية. ط: 1. القدس: كلية الآداب للبنات – جماعة القدس. 1987. ص: 129.

[2] أنيس، إبراهيم: موسيقا الشعر. ط: 4. مصر: مكتبة الأنجلو. 1972. ص: 346.

[3] خفاجي، محمد: الأصول الفنيّة لأوزان الشعر العربي. ط: 1. بيروت: دار الجيل. 1992. ص: 129.

[4] الحمصي، أحمد: ابن زمرك. سيرته وأدبه. ص: 183.

[5] الحمصي، أحمد: المرجع السابق. ص: 183.

[1] ابن زمرك: الديوان. ص: 71. ينظر: ص: 74 – 126 – 128.

ونرى ابن زمرك يبدأ قصيدته بقول: (عزاءً)، وهو مفعول مطلق حُذف عامله، وجاء هنا للطلب.[1] فهو يبحث عن شيء يخفف من مصابه وآلامِهِ، ولم يجد ما ينفّسُ عنه هذه الآلام سوى الشكوى التي أطلقها مستخدماً الصوت المهموس الذي عبّر عن أحاسيسَ مكبوتة أُريد بها أن تخرج لعلها تكون بلسماً شافياً لنفسهِ. وإذا ما نظرنا إلى بقية القصيدة ، نرى أنّ صوتيّ السين والشين قد ترددتا كثيراً بين ثناياها، إضافة إلى روي الفاء الذي يلتقي معهما في الهمس.

وهناك من الشعراء من جاءت مراثيهِ مجهورة الروّي، ومن هذا ما جاء عند علي بن عمر القيجاطي حيث يقول:

حَمَامُ حِمَامُ فوق إيك الأسى تشـــدو   تهيجُ من الأشجان ما أوجَدَ الوجْدُ
وذلك شـــجوٌ في حناجرنا شـــجىً   وذلك لهْــوٌ فــــي ضمائرنا جَدُّ
أرى أرجـــلَ الارزاءِ تشتدُّ نحونا   وأيديها تســــــعى إلينا فتمتـــــدُّ[2]

(الطويل)

فهذه المرثيَّةُ اعتمدت على روّي مجهور، وهو حرف الدال، ويأتي استخدام الحروف المجهورة بما يتناسب والحالة التي يعيشها الشاعر، فالعاطفة الجياشة واضحة في الأبيات حيث يقول: تشدو، تهيج، شجوٌ في حناجرنا. وجاء رويُّ الدال حرفاً مضعفاً، ليزيد من حالة الترديد لهذه الصرخات.

وفي مقابل هذا، فإنّنا نرى أن الشعر السياسي قد اعتمد في معظم قصائدهِ على الأصوات المجهورة، فالاستنجاد والدعوة للقتال يتناسب مع الجهر، فالمقام يتطلب الأصوات المسموعة ذات الرويّ الشديد. ومن هذا ما جاء في استنجاد الملك يوسف الثالث ببني مرين حيث يقول:

أبني مرين والحمايةَ شأنُكُم   وبكفِكُمْ ســيفُ الجهادِ يُجــرّدُ
إنَّ السَّعيد إذا تمهّد ملكــهُ   عُدْتم لنا والعَـــوْدُ منكم أحمدُ
أوطانكُ أخوانكُ وبلادُكُـــم   عودوا وعهدكم القديمَ فــجددوا[1]

---

[1] جطل، مصطفى: النحو والصرف. حلب: منشورات جامعة حلب. 1985. ص: 131.

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 4. ص: 83.

(الكامل)

والشاعر في هذه الأبيات يطلق صرخة موجّهة إلى إخوانه من بني مرين، فالجهادُ عندَهُ فرضُ عين لا يسقط كما هو الحال في فرض الكفاية، ولهذا جاءت دعوته قويّة ومدوّيَةً، واستخدم المعاني التي تدعو للعودة إلى الجهاد في قوله (عدتم، العود، عودوا). وإلى جانب هذا فقد جاء رويٌّ القصيدة حرف الدال، وهو صوت شديد مجهور.[2]

إنّ النّسق اللغوي العام لهذه الأشعار، يتطلب استخدام فعل يتماشى مع غرض الطلب، مما يوجب عليهم استخدام صيغة الأمر، وهذا يتناسب مع الرويّ المجهور في نهاية كلّ بيت. ومن هذا ما جاء في دعوة ابن زمرك للسلطان الغنيّ بالله يحثّهُ فيها على الجهاد، حيث يقول:

يا ناصرَ الإســـلامِ يا مَلِكَ العُلا   الله يُؤْتيكَ الجَـــزَاءَ جزيلا
جهّز جُيُوشَـــــك للجهادِ مُوَفّقاً   وكفى بِرَبِّكَ كافــياً وكَفيلا
ولِتُبْعِد الغاراتِ في أرضِ العِدا   والله حَسْبُكَ ناصِراً ووكيلا[3]

(الكامل)

واستخدم ابن زمرك صيَغَ الامر في قوله: (جهّز، كفى، لِتُبعِدَ) وهذا يتناسب مع التفخيم الذي أبداهُ لها الملك، وجاء الرويّ من خلال حرف (اللام) وهو من الحروف التي تتميز بالوضوح السمعي، إضافةً إلى هذا فقد أُتبع الرويّ بحرفي لين هما: الياء والألف، ممَّا زاد من قوةٍ وضوحه في السمع، فاللام من أوضح الأصوات الساكنة في السمع، ولهذا أشبهت من هذه الناحية أصوات اللين.[4]

ونلحظ أن رويّ الراء، قد وردَ في جميع الأغراض، فقد رأيناه في المديح والرثاء والغزل، وغير ذلك من الألوان الأخرى. ويرجع هذا إلى صفة التكرار التي تميّزهُ عن باقي

---

(1) الملك يوسف الثالث: الديوان. ص: 51.

(2) أنيس، إبراهيم: الأصوات اللغوية. ط: 5. مصر: مكتبة الأنجلو. 1979. ص: 48.

(3) المقّري، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 2. ص: 102.

(4) أنيس، إبراهيم: الأصوات اللغوية. ص: 63.

الأصوات، وهذا جعله ملبّياً للحالة الشعورية التي يعيشها هؤلاء. ومن الغزل ما جاء عند أبي عبد الله البلشي، حيث يقول:

عيناي َتفهمُ من عينيــكِ أسراراً ووردُ خدّيكِ يزكي في الحشا نارا

ملكتَ قلبَ محبٍّ فيــكَ مكتئبٍ قد أثّر الدَّمــــعُ فــي خدّيهِ آثارا

رضابُ ثغركِ يُروي حَرَّ غُلَّتِهِ يا ليتَ نفســي تقضي منهُ أوطارا

أنعِمْ بطيفِ خيــالٍ منك ألمحه ماذا عليكَ لطيــفٍ منــهُ لو زارا[1]

(البسيط)

فالشاعر يعبّر عن حبّه المتجدد الذي لا ينضب، من خلال رويٍّ يتناسب مع التجدّد والاستمرار، وهذا يتناسب مع حرف الراء الذي يعطي دلالة التكرار في ذاته.

والذي يدعو الشعراء إلى استخدامه، هو أن الصفات التي يطلقونها على محبيهم وممدوحيهم لا تنقطع، وهذا يتوافق مع دلالة التكرار في صوت الراء.

مناســـبة المعانـــي للألفــاظ المطروقــة

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة. ص: 56.

قضيّة "اللفظ والمعنى" من قضايا النقد الأدبي التي كانت وما زالت موضع اهتمام النقّاد قديماً وحديثاً, على أساس أنّهما من عناصر العمل الأدبي, ومن الخصائص التي تؤخذ في الاعتبار عند تقديره والحكم عليه.[1]

ويراعى المعنى الذي يعطيه اللفظ لا صيغة اللفظ وحدَهُ[2]. ولهذا يجب أن تتآلف الألفاظ والمعاني في قالبٍ واحد, بحيث يوافق أحدهما الآخر, وهذا ما دفع الشعراء لاستخدام ألفاظ لها خصائص تختلف من غرض إلى آخر. وجاءت أشعارهم مناسبة للغرض المطروق, وإضافة إلى هذا، فقد كانت هذه الألفاظ تسبك ضمن قواعد تختلف من شاعر إلى آخر, فالألفاظ واحدة, ولكنَّها تختلف في سياق الكلام, وهنا تبرز مقدرةُ الشاعر على حسن استغلالها ووضعها في المكان المناسب التي تعطي فيه المعنى اللازم. إن هذا الأمر جعلنا نُعجبُ بشاعر دون آخر, فظهر الشعراء المبدعون الذين استطاعوا أن يتركوا خلفهم نتاجاً شعريّاً زاخراً ويحمل في طيّاتهِ فنّاً راقياً تناقلته الأجيال فيما بينها.

ونستطيع أن نقول: إن قضيّة مناسبة الألفاظ للمعاني المطروقة, هي قضيّةٌ نسبيّةٌ تختلف من شاعر إلى آخر, فالشاعر الذي يمتلك ناصية اللغة, يستطيع أن يلائم بين اللفظ والمعنى, على نحو يتيح لجوهر المعنى أن يبدو كاملاً وواضحاً بحيث يمنحهُ قوة التأثير في النفوس. وإذا ما نظرنا إلى أشعارهم فإنّنا نرى التآلف واضحاً بين ثنايا أشعارهم, فاللفظة تساق فتوضع في مكانها المناسب الذي لا يمكن أن يقبل غيرها. وكأنّنا أمام فنّانٍ عبقريٍّ يقيم لوحة غاية في الروعة والجمال, فهي من الفسيفساء الجميلة التي تآلفت فيها العديد من الألوان, فلا نرى تنافراً بينها. وهذا الترابط نراه واضحاً في أشعار ابن الخطيب, فهو يقود الألفاظ بعنايةٍ وإتقان، وكأنّه فارس يمتطي جواده الذي لا يتحرّك إلا بإشارةٍ من صاحبهِ, وهذا ما جعلهُ قادراً على الربط بين الأغراض الشعرية المختلفة في قصيدةٍ واحدة, فهو يبدأ بالغزل ثم يدخل في المديح, حيث يقول مادحاً السلطان أبا الحجاج يوسف:

---

[1] عتيق, عبد العزيز: تاريخ النقد الأدبي عند العرب. ط: 3. بيروت: دار النهضة للطباعة والنشر. 1980. ص: 326.

[2] ابن حزم الأندلسي, علي بن أحمد: التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامّية والأمثلة الفقهيّة. ت: إحســان عبّاس. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة. ص: 137.

خُضتَ بحرَ الحبِّ والدَّمْعِ وهَــلْ تُدْرَكُ الآمَــــــالُ إلا بالغَرَرْ[1]

فسطا الوَصْلُ على الهَجْرِ كمَــنْ "ببني نَصْر" على الدَّهر انتصر

أبْحُــرْ الجــودِ وأمــلاكُ الوَرى وســيوفُ الله تُرْدِي من كَــفَر

لهُــــم الفخــرُ بحــقٍّ, وكــفى "بأبي الحجاج" اســـماً مُفْتَخَر

أيُّ مَــجْدٍ أُحْـكِـمت, آيــاتُــهُ فهي تتلى مثلما تُتلى الســـــور

دام فــي ســــعدٍ جــديدٍ ومُنىً تصلُ الآصــــال فيها بالبُكــر

ما ارتدى بالغيثِ رَوْضٌ فرَوَتْ نَسْــــمَةُ الرِّيح عن الزَّهرِ خَبَرْ[2]

(الرمل)

و"الخوض" لفظةٌ تدل على العموم, وهذا الفعل يقوم به الجميع مشاةً وركباناً[3], وهذا جاء متناغماً مع مدلول "بحر الحبِّ" فهذهِ العاطفةُ يعانيها الجميع, والتي تأتي في نتائجها بالدموع, ولا يقوم بهذا العمل في النهاية إلا مَنْ أرادَ أن يخوض غمار هذهِ المعاناة, وغالباً ما تكون من نصيب العاشقين الذين يدافعون عن حبّهم. والشاعر يأتي بالنتائج بناء على المقدّمات (الحبّ + الدموع) ← (الإصرار + المغامرة).

ويبدأ صدر البيت الثاني بقوله: "فسطا" والسَّطوة فيها معاني القوّة والإقدام, وهما تأتيان بالقهر والبطش[4], وهذا يتناسب مع قولهِ: "فسطا الوصل على الهجر", لأن وصل الحبيب يحتاج إلى التضحية والصبر, والهجر لا ينتهي إلا بدوام الوصل.

ونرى ابن الخطيب يحاول أن يصلَ إلى فكرة أرادها منذ البداية وتتلخص في قوله: إنّ النصر لا يأتي الإنسان إلا من خلال(آلِ نصر), وعبّر عن هذا من خلال الرابط وهو الاسم الموصول "مَنْ", فالشـــاعر يربــط بين الصــــدر والعجز ربطاً محكماً, (الوصل ← الهجر) (بني نصر ← الانتصار). والمتتبع لبقيّة الأبيات يرى هذا البناء اللغوي واضحاً, وكأنَّ

---

(1) الغَرَرْ: المغامرة, ينظر حاشية الديوان. ص: 394.

(2) ابن الخطيب, لسان الدين: الديوان. ط: 1. ص: 394.

(3) الفيروز آبادي, مجد الدين: القاموس المحيط. ص: 827.

(4) الفيروز آبادي, مجد الدين: المصدر السابق. ص: 1670.

ابن الخطـيب عالـم منطـق ورياضـيات, فالجـود عنـدهُ يُذهِـبْ الفقر, كما تذهب سـيوف المجاهـدين الكـفر, والمجـد يدوم كـما تدوم الآيات التي تُتلى تقرُّباً إلى الله, والآصال ترتبط بالبُكَر كما ترتبط الأزهار بالمطر.

وفرّقوا بين المحسـوس والمتخيّل في أشـعارهم, فما وقعـت عليـهِ العيـن المجرّدة, جاء وصفه بألفاظ محسـوسة ومدركـة, على نحو ما رأينا في الأشـعار التي تصفُ الرّياض والقصور, والغزل الحسـيّ. ومن هذا ما جاء في وصف أحمد بن عبد الحـقّ الجدلي لشـجر النارنج المزهر حيث يقول:

وثمارِ نارنجٍ نرى أزهارها　　　مع نأتيء النارنجِ في تنضيدِ

فإذا نظرتَ إلى تألُّفِها أتتْ　　　كمباسـمِ أوْمَتْ لِلثمِ خُدودِ(1)

(الكامل)

فالألفاظ التي ساقها الشاعر, جاءت ملبيةً للغرض المطروق, وهو وصف جمال هذه الأشجار, فبدأ الوصف بقوله: "نرى", وهذه الرؤية تتعلق بالعين والمحسوس, والتآلف الذي ظهر بينها يستوجب النظر بالعين المجرّدة, واستطاع الشاعر أن يختم أبياته بصورة حسيّةٍ مناسبة للموقف الذي يراه أمام عينهِ, فاستحضر صورة الفتاة ذات الخدود الجميلة التي يطيب تقبيلها, وهو ما يتناسب مع الأزهار التي يطيب لنا أن نستنشق طيب عبيرها. فالألفاظ كلها تعتمد على المحسوس الذي نلامسه ونشعر به.

ولابن الزمرك أبيات في وصف دار الملك, وما فيها من جمال صنعته وأبدعته يد إنسان حيث يقول في وصفها:

ولله مـبناكَ الجميـلُ فـإنّـهُ　　　يفوقُ على حكمِ السـعودِ المبانيا

بهِ البهوُ قد حازَ البهاءَ وقد غـدا　　　به القَصْرُ آفاقَ السّـماءِ تباهيا

به المرمر المجلوُّ قد شَـفّ نورُهُ　　　فيجلو من الظلماء ما كـان داجيا

---

(1) ابن الخطيب, لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 1. ص: 68.

به البحرُ دفّـــــــاع العباب تخالُهُ إذا ما انبرى وفرُ النســـــيم مُباريا
ولم نرَ قصراً منهُ أعلى مظاهــراً وأرفـــع آفاقاً وأفســـــــح ناديــاً
ولمّا دعوتَ الناسَ نحو صـــــنيعهِ أجابوا لهـــم من جانبِ الغور داعيا[1]

(الطويل)

ويبدأ ابن زمرك وصفه لهذا القصر – وهو الحمراء – بأنّه أجمل القصور التي أبدعتها يد الإنسان, وهو يسلك في هذا السبيل الوصف الحسّي, فيوظّف الألفاظ التي يستطيع من خلالها, أن يجعل هذا البناء ماثلاً أمام أعيننا وكأننا نراه الآن, فيصفُ لنا البهو وما فيه من مرمرٍ وحجارةٍ كريمة تسطعُ بحسن بريقها الذي يبدّد الظلمات, ثمّ يصف المياه التي تنساب من البرك التي تنشر في حدائقهِ, وكأنّها تسابق الرّياح وهذا دليلٌ على غزارة مياهها.

ويعود في نهاية وصفهِ إلى تعبير (لم نرَ, ولما دعوتَ الناسَ إلى حسن صنيعهِ), وهو بهذا يستند على ألفاظ تؤكد على الرؤية بالعين المجرّدة, وهذا أيضاً ما فعله منذ بداية وصفهِ لهذا القصر. فالألفاظ كلها تنطلق من باب المحسوسات, وهو ما يتناسب مع وصف القصور والآثار التي ابتناها أمراء وملوك بني الأحمر.

وظهر هذا أيضاً في الغزل, فجاءت ألفاظ الغزل الحسيّ الذي يعتمد على الشهوة مختلفة عن ألفاظ الغزل العفيف الذي يستند في جوهره إلى الروح والقيم الإنسانية وما فيها من معاني الحبّ والعاطفة الصادقة بين المتحابين. وظهر هذا التفريق واضحاً بين الألفاظ, فالغزل الحسّي جاءت ألفاظهُ مناصرةً للجسد وأوصافه, فوصفوا الشعر والرقبة والعيون والشفاه والرّيق التي شبهوها بالخمرة, وكلّها أوصاف تدخل في باب الحسّ المدرك باللمس والرؤية بالعين. ومن هذا ما جاء في غزل ابن خاتمة حيث يقول:

غُزَيِّلٌ غَزَلَتْ ألحاظهُ جســــــدي أرقُّ من غَزَلي في لُطفِ معناهُ
ساجي الجفونِ وَقاحُ الوَجْه ماجنُهُ مفرَّغُ البال عمَّـــن بات يهواهُ
يَفْتَرُّ عَنْ مَبْســــــمٍ يا ما أُمَلِحَهُ يجولُ فيه رضـــابٌ ما أُحَيْلاهُ

---

[1] ابن زمرك: الديوان. ص: 140 – 141.

كالوردِ وجنتهُ, والشـــــهدُ ريقتهُ   والسِّلْكِ مبسمُهُ, والمســــكِ ريّاهُ
بدرٌ, ولكن ســـواد العينِ مطلعهُ   ظبيٌ ولكن سُوَيدا القلبِ مـــرعاهُ[1]

(البسيط)

والشاعر يرسم صورة باهرةً لمحبوبته, وهو يستفيد من معطيات الجمال الحسّي المتعدّدة بوسائل التعبير المباشرة, فيصفُ العيون الجميلة التي أثرت في جسدهِ, ويصف فمها وابتساماتها التي تدل على الجمال والرّقة, ويشبه حلاوة ريقها بالشهد, وخدودها بالورد, والعيون السوداء بالبدر. وكلها أوصاف حسيّة مستوحاةٌ من البيئة التي عاشها الشاعر وغيره من شعراء بني الأحمر, وهي تدل على مظاهر التّرف والتمتع بملذات الحياة التي انتشرت في هذه المملكة.

أما ألفاظ الغزل العفيف فقد جاءت بعيدة عن ألفاظ الجسد والشهوة فعبرّت عن روح الجمال وجوهره الإنساني الذي يصبو إلى القيم وصدق المشاعر, يقول ابن خاتمة:

في راحتيكِ حـــياةُ الـــرّوح والبَدَن   وفي رضاك مجالُ السِّرِّ والعَـــلَن
وفي ضميري لكم مكنونُ سِرِّ هوى   ما زلتُ أكتمُهُ صوناً فيكتمـــــنُ
خفيتُ عن كلّ شيءٍ غير عِشـــقكُمْ   من السَّقامِ, ولولا الطّبعُ لم يرني
بيني وبين الهوى أجلى مناســــبةٍ   فذاك أعرفُهُ حقّاً ويعــــــــرفُني[2]

(البسيط)

فالشاعر يخاطب المحبوبة دون ذكر اسمها, أو التلميح بصفات جسدها على نحو ما فعله في قصيدته السابقة, فدارت أبياته حول استئثار المحبوبة بجانبي الروح والبدن, وهو يقدّم الروحَ ويجعله محوراً وأساساً لحبّه الذي يكنّه في صدرهِ.

ونرى أن الشاعر قد أكثر من الألفاظ التي تخاطب العاطفة والوجدان، فجاء بكلمات الروح والضمير, وهذا يجعلنا نفكر بهذه المكنونات التي تثير فينا كل العواطف والأحاسيس.

---

(1) ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 80.

(2) ابن خاتمة الأنصاري: المصدر نفسه. ص: 97.

وجاء الشعر الديني بعيداً عن المحسوسات, فهو يخاطب الأفئدة والعقول, فيتحدث عن أسرار الوجود ومواطن راحةِ النفسِ وسكونها, وهذا ظاهر في أشعار التصوف والزهد والمدائح النبوية. ومن هذا ما جاء عند ابن الخطيب في الوعظ حيث يقول:

أعُشّاقَ غَير الواحِد الأحــد الباقي حُنُونُكم والله, أعْيَ على الرّاقي[1]
حننتم بما يَفْنَى وتبقى مضَاضــةٌ تعذِّبُ بَعْدَ البَيْن مهجَةَ مشـــــتاقِ
وتربطُ بالأجسامِ نفســاً, حَياتُها مبايعَةُ الأجســام بالجوهرِ الرَّاقي
فلاهي فازت بالذي عَلِقَتْ بــه ولا رأسُ مالٍ كان ينفعها باقـــــي
فِراقٌ وقبرٌ وانقطاعٌ وظلمــــــةٌ قِني البُعدَ من نَيْلِ السَّعادةِ يا واقـــي[2]

(الطويل)

ونرى أن الوعظ جاء من خلال استخدام ألفاظ خاطبت في جوهرها النفس الإنسانية بمعانيها السامية التي تدخل إلى القلوب, فالعشق لا يكون إلا لله وحَدْهُ, وأنّ هذه الدار الدنيا فانيةٌ لا محال, والخلود الأبدي لا يكون إلا في جوار الله عز وجل, ويمضي ابن الخطيب واصفاً الإقبال على الدنيا بالجنون, والأَجساد عنده تربط فيما بينها برابطٍ معنويٍّ بعيدٍ عن المعاني المجرّدة, فالجوهر الإنساني يكون بالروح لا بالجسد.

والدعاء إلى الله يستلزم التمسك بهذه الروحيّات, وخطاب ذي الجلالة يكون بالمعاني التي تدلّ على الجانب الروحي البعيد عن التخصيص أو التجسيد, يقول ابن الخطيب مخاطباً ربّه ومعترفاً بذنبه:

مولايَ, إن أذنبتُ يُنْكَرُ أن يُرَى منكَ الكمالُ ومنّي النقصانُ
والعفوُ عن سبب الذنوب مسبّبٌ لولا الجنايةُ لم يكن غفران[1]

---

[1] الراقي: وهي التعويذة تستخدم لدفع الشر عن الإنسان وتكتب بالأسماء والحروف, ينظر حاشية الديوان. ص: 703.
[2] ابن الخطيب, لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 703 – 704.
المقرّي, أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 8. ص: 13.
[1] المقرّي, أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 8. ص: 199.

(الكامل)

فالذنوب والنقصان يقابلهما الكمال والعفو والمغفرة من الله عزّ وجل, والكمال والعفو والمغفرة, هي صفاتُ تتسم بالشموليّة, وهي ما تتصف به الذات الإلهية.

ولجأ الشعراء في أشعارهم الحماسية إلى استخدام الألفاظ التي تدل على الجانب الديني, وهم بهذا يعزفون على وتر العاطفة الدينيّة, فيستثيرون الهمم والعزائم في النفوس, فالحال يقتضي مثل هذه الألفاظ. ولم تغب عن أشعارهم طوال حكم المسلمين في الأندلس, ولكن كَثُرَ استخدامها في عصر بني الأحمر، ويرجع هذا إلى التسارع الذي حدث في سقوط المدن خلال القرن التاسع الهجري, يقول الملك يوسف الثالث:

معاذَ مَنْ كتبَ الحسنى لأندلــس مِنْ أن يجوسَ عدوُّ الدِّين أندلسا
مُستعصمُ الدينِ ما كانت فوارسُهُ يوماً ليترك حزب الكفرِ مُفترســا
كم أثبتوا قدما كم جدَّلوا صــنما كم شــيدوا للمعالي أربعا دُرُســا
مَنْ لم تكن لإلاهِ العرش وجهتهُ ألفى على ظمأ وردِ الندى يَبِسَـــا[1]

(البسيط)

ونرى أن الملك يوسف الثالث قد استخدم الألفاظ التي تثير الجانب الديني عند المسلمين فهو يقول: "عدوّ الدين, مستعصم الدين, حزب الكفر, الأصنام" ونراه في البيت الأخير يتوّج ما بدأ به من استثارة الهمم بِقوله: إنّ العمل يجب أن يكون من أجل الله عز وجل ونصرةِ دينهِ, فلا خير في عمل لا يكون في جانب الله, فهو كالورد الذي جفّ من العطش، ففقد رائحته الزكية التي يتميّز بها.

وجاء ذكر المسجد كثيراً في أشعارهم, وهو ما يتلاءم مع الموقف الذي كان يجري في ذلك الوقت, ونقصد في هــذا القــول, الاعتداء الذي كان يجري عليهِ بوصــفهِ رمزاً للإســلام والمسلمين. يقول:

---

[1] يوسف الثالث: الديوان. ص: 154.

تبكي الحنيفيةُ البيضاءُ مِن أســــفٍ كما بكى لفراق الإلــف هيمانُ
على ديارٍ مــن الإســــــلام خاليةٍ قد أقفرت ولها بالكفر عمرانُ
حيث المســاجد قد صارت كنائس ما فيهنَّ إلا نواقيــسٌ وصـــــلبانُ
حتّى المحــاريب تبكــي وهي جامِدةٌ حتى المنابِرُ ترثي وهي عيدانُ
ماذا التقاطع في الإســــــلام بينكم وأنتم يا عبادَ اللهِ إخـــــوانُ
بالأمسِ كانوا ملوكاً في منازلهـــــم واليومُ هم في بلادِ الكفر عَبْدانُ[1]

(البسيط)

فالشاعر يربط بين واقع المسلمين وما حلّ بالمساجد بعد سقوط المدن الأندلسيّة, فهو لم يرَ عزّاً إلا في ظلّ دولة الإسلام. وتأتي الأفكار عندَهُ رتيبةً, وتتفق مع واقع الحال الذي يعيشهُ المسلمون. ولعلّ استخدامه لهذه الألفاظ كان من أهمّ الأسباب التي ساعدتْ على تكوين الصورة التي أراد أن يوصلها إلى بقيّة المسلمين في أصقاع الأرض, واستطاع الشاعر من خلال هذه الرتابة أن يربط بين هذا البكاء والمعاني التي تدلّ في جوهرها على الإسلام ،وما يذكِّر المسلمين بالمكائد التي تحاك ضدهم ،وعبر عن هذا من خلال الكلمات (ديار الإسلام, الحنيفيّة البيضاء, الكفر, المساجد, عبد الله, الكنائس, النواقيس, الصلبان, بلاد الكفر).

وارتبطت معاني الألفاظ التي جاءت في أشعارهم بالحالة النفسيّة التي عاشوها, فالشاعر – كما هو معروفٌ – يخضع لعوامل نفسيّة تقودهُ إلى اختيار الغرض الذي يرمي إليه, مما أدى إلى اختلاف العاطفة من شاعر إلى آخر. وتبدو مسحة الحزن واضحة في أشعار الرثاء, فهم يبكون حبيباً قد مضى, أو مدينةً قد سقطت بيد الأسبان, وفي الحالتين يبكي الشاعر على أيام قد مضت ولن تعود, ومن هذا ما جاء في رثاء أبي الحسن علي بن عمر القيجاطي, حيث يقول في غرض الرثاء:

حَمَامُ حِمَامُ فوق أيك الأسى تشـــدو تهيجُ من الأشجان ما أوجَدَ الوجْدُ
أرى أرجــلَ الأرزاء تشتدُّ نحونا وأيديها تســـــعى إلينا فتمتـــدُّ

---

[1] المقرّي, أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 5. ص: 374.

وإن خطرتْ للمرءِ ذكرى بخاطرٍ ... فتســـبيحةُ السَّاهي إذا سُمِعَ الرَّعْدُ

مصابٌ به قُدَّتْ قلوبٌ وأنفـــــسٌ ... لدينا إذا فـــي غـــــيرهِ قُطِعَتْ برد

تلينُ له الصمُّ الصِّـــلابُ وتنهمي ... عيونٌ ويبكي عنـــــدهُ الحجرُ الصَّلْدُ

فلا مقلةٌ ترنو ولا أذنٌ تعـــــــي ... ولا راحةٌ تعطـــــو ولا قدمٌ تعـــــدو[1]

(الطويل)

ونرى أنّ الشاعر يعيش حياة حزينة بعد فقدِهِ مَنْ أحبّ, وجاءت الألفاظ مناسبة للغرض المطروق, واستطاع الشاعر أن يضعنا في جوٍّ من الكآبة والحزن, ولم يترك لنا مجالاً إلا واستخدمه لكي يضعنا ضمن الأحاسيس التي يشعر بها, فبدأ أبياتَهُ ببيت قلد فيه مَنْ سبقوه من الشعراء في تصويرهم لآلامهم, وهي صورة الحمام وهو يرسل ألحاناً حزينة, ولكنَّ الشاعر جاء بصورة جديدة وهي شجرة الموت التي تقف فوقها هذه الحمامة.

ويستمر في استخدام ألفاظ تدلّ على نفسٍ قد تحطّمت, وفقدت ما هو جميل في هذه الحياة, فالمصائب تتسارع مقبلةً عليه, وكأنّها تتسابق فيما بينها للوصول إليه, ولهذا لم يجد شيئاً يخفّف من مصائبهِ إلا الدّموع التي تغسلُ الهموم. ولكثرةِ بكائه فقد بكى الصخر الذي يعتبر عنواناً للقسوة والجمود. وفي النهاية نراه فاقداً لكل معاني التفاؤل بهذه الحياة. ولجأ الشاعر في أبياتهِ هذه إلى استخدام ألفاظ تتصل بعالمهِ الحزين الذي يعيشهُ, واستطاع من خلال هذه الألفاظ أن يدخلنا إلى هذا العالم ودليل هذا, أننا استطعنا أن نشعر بآلامه, وأن نتعاطف معه, وجاء هذا نتيجة لحسن استخدامهِ لهذه الألفاظ.

وظهرت الألفاظ الحزينة في أشعار السجون والعتاب والغزل, فَعبّروا عما يجول في نفوسهم بسبب فرقة الأحباب, وما يعانون من هذه الأحوال, وهم يتسابقون فيما بينهم إلى خلق الصور التي تدل على هذه المعاناة, ومن هذا ما جاء في قول الملك يوسف الثالث:

هجروا وخَطْبُ الهَجْرِ ليسَ يسيرُ ... بدرٌ يسير البدرُ حيث يسيرُ

---

[1] ابن الخطيب, لسان الدين: الكتيبة الكامنة. ص: 38.

كم ذا تعـــجِّلُهُ القطيعةُ والجفا والدَّهرُ يصدعُ والحمام يجور
زموا ركائبهم وخُلف بعدهـــم تهمـــي وتضرِمِ أمدُع وصُدور [1]

(الكامل)

فالهجر أمر عظيمٌ قد أصابه, وهو غير محتمل عنده, ونرى أن المحبوب بالنسبة إلى الشاعر, يمثّل كلّ معاني الجمال في هذه الحياة, فالبدر يستمد نورَهُ منه, ويسير معه حيث يسير. وهذه من الصور الجميلة التي جاء بها الشاعر، ويستخدم في البيت الثاني ألفاظاً تقليدية استخدمها الشعراء من قبله, وهي صورة الحمام الذي يعتبر رمزاً للوداعة والحزن في آن واحد.

ونرى أن الشاعر يمسك بزمام اللغة, وهذا يدلّ على فصاحته ومعرفتهِ باللغة, فاستخدم تعبير "زمّوا" وهو الربط والعقدُ بشدّة[2] ولم يَقُل: "ربطوا" فقد يكون الربط غير محكم, ولكنّه أراد أن يبيّن أن ربط الأمتعة كان بشدّة وإحكام, لأنّ السفرَ سوف يطول, وهذا دليلٌ على بعد المحبوب, مما يزيد من آلامهِ ومعاناتهِ.

وجاءت ألفاظ الهجاء شديدة ومؤلمة مما جعلها ثقيلةً على النفس, فالمهجو يشعر بوقعها في نفسه, فهي أحَدُّ من السيف. واستخدموا في هجائهم الألفاظ التي تنال من شرف وكرامة الإنسان, واعتمدت ألفاظهم على العوامل والظروف الاجتماعية والسياسية والدينيّة التي كانت سائدة في هذا العصر[1]. ومن هذا ما جاء في هجاء ابن زمرك لابن الخطيب حيث يقول:

هذا وزير الغرب عَبْدٌ آبـــــق لم يلفِ غيرَك في الشدائدِ مِنْ وَزَرْ
كفرَ الذي أوليتهُ من نعمـــــة والله قد حتمَ العذاب لِمَـــنْ كَفَـــــر
إن لم يَمُتْ بالسيف مات بغيظهِ وصلى سعيراً للتأسُّفِ والفِكَـــــــرْ
ركب الفرارَ مطيّةً ينجو بهـــا فجرَتْ به حتى استقرْ على سَـــــقَر [2]

---

[1] يوسف الثالث: الديوان. ص: 76.
[2] الفيروز آبادي, مجد الدين: القاموس المحيط. ص: 1444. مادة: زمم.
[1] ينظر ما جاء في الهجاء: الفصل الثاني من الرسالة.
[2] المقرّي, شهاب الدين أحمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عيّاض. ج: 2. ص: 37.

(الكامل)

فهو يصفهُ بالعبد الآبق وهي لفظة شديدةٌ على النفس, ولا ننسى ابن الخطيب وهو شيخ لهذا الشاعر, فابن زمرك هو تلميذٌ له, وهذا يزيد الأمر تعقيداً, ولم يتوقف ابن زمرك عند هذا الحدَّ, بل وصفهُ بالكفر, وهذا يخرجه عن ملَّةِ الإسلام, لذلك فهو من وجهة نظرهِ لا يستحقُّ إلا الموت. ونرى أن الألفاظ جاءت شديدةً على الأذن والنفس، واعتمد في حشد ألفاظهِ على الناحية النفسيّة ومدى تأثير هذه الألفاظ فيها.

واستخدموا الألوان بما يتناسب والغرض الذي يريدون , فلم تخرج عن المعنى المراد ، ومن هذا ما جاء عند ابن زمرك في وصفه للحسد ،ومن يتَّصف بهذة الصِّفة، حيث يقول في سياق مدحه للسلطان الغنيِّ بالله :

لمَّا أرتكَ الشَّمسُ صُفرَةَ حاسِدٍ لجبينِكَ المتألِّقِ الأنوار[1]

(الكامل)

فابن زمرك يأتي لنا باللّون الأصفر في وصفه للحاسدين ،وهو ما يتّفق والمعنى المقصود ، فصاحب هذة الصِّفة يعيش حياةً يشوبها الحقد والكراهية على الآخرين ، ويميل وجهه إلى الشحوب الذي يشير إلى المرض والقلق ، وهو ما يتّفق مع صفات اللّون الأصفر.

وجاء اللّون الأبيض ليدلّ على النقاء والعفّة ،وهي صورة قديمة ، فقد كان العرب يبغضون اللون الأسود بقدر ما يحبّون اللون الأبيض ، وقد وصفوا كلّ شيء ممدوح عندهم ماديّاً أو معنويّاً بالبياض، وكان مما يمدح به الرجل أو يُفتخر به أنّه أبيض ، وكانت المرأة تمدح بالبياض وكذلك الرجل . والبياض ليس مجرّد لون ، وإنّما يرتبط في المفهوم العام بنقاء العرض من الدنس والعيوب. [1]

يقول ابن خاتمة:

---

[1] ابن زمرك: الديوان. ص: 56.

[1] عودة ،خليل: المستوى الدلالي للّون في شعر عنترة . مجلّة الدارة /العدد2 . السنة 22. 1417 هـــ. ص: 225.

ما بينَ فاترِ طرفها وجُفُوني　　خبر تمازَجَ جِدَّة بِمُجـــــــونِي
قُل للَّتي خَضَبَت بياضَ بنانِها　　بدماء دَمعي أو ســـواد عُيوني
مِن أين للغزلان وهي عواطل　　صَبغُ الحواجبِ أو خِضاب يمين

(الكامل)

فابن خاتمة يستخدم اللّون البيض ليدلّ على جمال ونقاء هذة الفتاة، التي تتّصف بالتمنُّع والعفة ، وجاء استخدامه لهذا اللّون ، ليؤكِّدَ على أمر آخر، وهو الحياة الرغيدة التي كانت تحياها هذة الفتاة ،والتي نستقيها من خلال قوله: (بياض بنانها) فالبياض لا يأتي مع كثرة العمل ، وهذا من صفات النساء الشريفات عند العرب .

وظهر اللّون الأسود عندهم في المواقف الاجتماعية التي تدلّ ترتبط بمظاهر نفسيّة منفِّرة، كالحداد وما يصاحبه من حزن وكآبة. [1]

ونجد هذا واضحا في رثاء ابن زمرك حيث يقول:

وتبكيه حتى الشُّهبُ في أفق العلا　　وتلبسُ جلباب الظلام جواريها[1]

(الطويل)

فالبكاء يتناسب في جوّه الحزين وواقع اللّون الأسود، الذي ينتج عن الظلمة الحالكة، فالشاعر يوجد موازنة بين البكاء والسَّواد ، للدلالة على هذا المُصاب الجلل الذي حلّ بهم .

وعبّروا عن الكفر باللّون الأسود ، لما فيه من الضياع والبعد عن الصراط المستقيم، يقول ابن زمرك في وصفه للكفر:

واسودَّ وجه الكفر من خزيٍ متى　　ما احمرَّ وجه الأبيض البتَّارِ[2]

(الكامل)

---

(1) ينظر : عودة، خليل : المرجع نفسه . ص: 227.
(1) ابن زمرك : الديوان : ص: 127 .
(2) ابن زمرك: المصدر نفسه : ص: 60 .

فالحالة التي يعيشها الكافرون، وما يرافقها من بعد عن الهداية والإيمان ،تتناسب مع اللّون الأسود الذي يعدُّ رمزا للظلم والضلالة .

فالتفاعل بين الألفاظ والمعاني المطروقة كان واضحاً في أشعارهم, فالشعر ينفعل بانفعال صاحبهِ ولهذا جاء مؤثّراً في النفوس, وهذا التأثير يتراوح من شاعر إلى آخر ويعتمد في هذا على مدى إجادة الشاعر لهذا الفن الأدبي.

الخاتمة:

ازدهرت الحركة الشعريّة في هذا العصر نتيجة لعوامل عديدة. والمتتبع لها، يستطيع أن يرى أنّ أغلبها يعود إلى ظروف سياسية، فتشجيع الأمراء للشعراء جاء حرصاً منهم على أن يعطوا حكمهم صفة الشرعية، وهذا الدور الإعلامي لا يقوم به إلا الشعراء، ولذلك ليس من الغريب أن نرى هؤلاء قد تقلّدوا مناصب سياسية مهمة كالوزير لسان الدين بن الخطيب وغيره.

ولعلّ ضياع المدن الأندلسية كان نتاجاَ لهذه الظروف، فمن الطبيعي أن يواكب الشعراء ما يجري لإخوانهم، فصوّروا حجم المأساة التي حدثت لهم، فأرسلوا الصرخة تلو الأخرى، لعلّهم يجدون مجيباً يلبّي هذه الصرخات.

ووجد هؤلاء الشعراء في مدينة غرناطة ملاذاً لهم بعد سقوط مدنهم بيد الأسبان، فانتشرت الهجرات إلى هذه المدينة وازداد عدد سكّانها، وضم العديد من الأدباء والشعراء المهاجرين، فعمرت بهم، ما زاد في تطوّر هذه الحركة ونموّها.

وكان الشـــعراء حريصـــين على شـــخصيتهم العربية الإســــلامية، فواجهوا الأسبان بالسيف والكلمة.

ونظر أهل الأندلس إلى المشرق العربي على أنّه مثالٌ للعلم والأدب، فجاءت الأغراض مشابهة لتلك التي سادت عند إخوانهم من الأمويين والعباسيين. فالعلاقات الثقافية بين المشرق والأندلس لم تنقطع، واستمرّت الهجرات فيما بينهم حتى سقوط الأندلس كاملةً بيد الأسبان.

ولعبت الطبيعة دوراً مهمّاً في رفد الحركة الشعرية بالصور والأخيلة، فكانت سبباً رئيساً في شحذ قرائحهم، فتميّزت بالرّقة والعذوبة، وجرت في أحضانها العديد من المجالس الشعرية، فانتشرت أشعار الروضيات والخمريات، واستهلّ الشعراء قصائدهم بوصفها في مطالع قصائدهم، فأشبهت بذلك أطلال الجاهليين.

وجاءت لغتهم سهلة وجميلة، وانسجمت مع الحضارة والبيئة عندهم. وحرصوا على استخدام المحسّنات البديعية المختلفة، من طباق وجناس وغيرهما. والشاعر في قصيدتهِ يبدو رسَّاماً يُعْنَى بالتلوين وبأدقِّ التفاصيل، فظهر التشخيص والرمز واضحاً في معظم أشعارهم، وخصوصاً الوصف منها.

وأكثر الشعراء من التكرار في قصائدهم، فكان مناسباً للمعنى تارةً، وثقيلاً على القصائد تارةً أخرى، على نحو ما رأينا من وصف الفرس عند ابن زمرك، حيث تكررت المعاني نفسها.

وحاولوا أن تكون ألفاظهم مناسبة للحال والظروف، فاستخدموا الفعل الماضي في الرثاء، والأمر في الاستنجاد، والمضارع في المديح، وضمّنوا قصائدهم الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة وأشعار المشارقة ليزيدوا من قوة المعاني فيها.

وظهرت موسيقا القصيدة عندهم من خلال الوزن والقافية، فالروي جاء متناغماً مع الألفاظ ومعانيها. وأحسنوا استخدام البحور الشعرية، التي استوعبت تجاربهم المختلفة، فأكثروا من استخدام بحريّ الطويل والكامل، لما فيهما من سمات تصلح لأغلب الأغراض الشعرية.

و من خلال عرضنا للأغراض الشعرية التي مرت بنا في هـذا العصـر، نسـتطيع أن نستخلص نتائج عدة منها: أن الأفكار التي جاء بها الشعراء، كانت في أصولها وقواعدها بصورة رئيسية ذات صلة مباشرة بمعاني المشارقة وأفكارهم، ولكنها في الوقت نفسه لم تبتعد عن البيئة الأندلسية التي انفردت بكثير من الخصوصيات. واستطاعوا أن يعبروا عن شخصيتهم بجميع ما تنطوي عليه من السمات والخصائص. ولعلَّ هذا التقليد لم يخرج عن الإطار الطبيعـي لفنـون القول الشعري، فلا نستطيع أن نقول إِن الشعر في العصر الإسلامي جاء مقلدا للعصر الجاهلي، أو أن العصر العباسي جاء مقلدا للعصرين الإسلامي والأموي مع عدم إغفال التأثر والتأثير، إلا أننا نستطيع أن نخلص إِلى القول: إِنَّ كل عصر له خصائصه التي تميزه عن غيره من العصور التي سبقته، لذلك لا نستطيع أن نستثني العصور الأندلسية من هذا الحكـم، والمتصـفح لكتـب المصادر التي تبحث في عصر غرناطة، يرى أن هذه المملكة قد ضمت عددا وفيرا من الشعراء الذين استطاعوا أن يتركوا لنا كمًّا وفيرا من النتاج الشعري، الذي عبر بصـورة صـادقة عـن جميع جوانب الحياة في هذه المملكة، التي دافعت عن كيان المسلمين لمـا يقـرب مـن قـرنين ونصف من الزمن، وجاء هذا في ظل ظروف جعلت الكثيرين يتوقعون سقوطها قبل هذا الوقت بكثير.

إِنَّ هذا التمثيل الصادق للأحداث التي جرت في هذه المملكة، جعلنا نحكم بأن هناك فنونا كان لها انتشار واسع جعلها تتميز عن غيرها من الفنون الأخرى، حيث لعبت الظروف السـائدة آنذاك دورا فاعلا في هذا التميز، ولعلَّ الظروف السياسية وما واكبها من أحداث ، جعلهـا مـن أكثر العوامل التي أسهمت في هذا التأثير، على نحو ما رأينا في فنون المدح والرثاء والهجـاء. وانتشر فن الوصف انتشارا واسعا ، ممَّا جعله يتبوأ القمة بين هذه الفنون، وسـاعده فـي ذلـك طبيعة غرناطة الجميلة من سهول وجبال وأنهار، وكذلك وجود المتنزهات التي عُمِّرت بالقصور

والمظاهر العمرانية التي تباهوا فيها على غرار أجدادهم من بني أمية. ولم يترك هذا الفن جانبا إلا وطرق بابه، فوصفوا الطبيعة وجمالها، وما يدور فيها من مظاهر ترف ولهو، والمعارك وما يجري فيها من قتل وبطولات. وعلى عادة الشعراء في كل زمان، فقد حرصوا على التقرب من أصحاب النفوذ والسياسة، مما دفعهم إلى مدحهم وإظهارهم في مظهر جعلهم يتفـرّدون عن غيرهم من طبقات المجتمع. ولم يكن شعراء غرناطة بمعزل عن هؤلاء فانتشر المدح بينهم، ولم يتركوا مناسبة إلا وأحسنوا استغلالها من أجل هذه الغاية، فمدحوا الملوك والأمراء والوزراء وغيرهم ممن كان لهم كلمة في الدولة. وحاولوا في مدحهم أن يظهروا بني الأحمر بأنهم ملوك شرعيون لهذه الأمة، وهذه الشرعية مستمدة من نسبهم للصحابي الجليل سعد بن عبادة، الذي ينتمي إِلى الأنصار الذين وقفوا مع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته، وإذا ما نظرنا إِلى الحماسة والفخر فإنَّنا نجدهما يأتيان في سياق غيرهما من الفنون، فلم ينظروا إِليهما على أنَّهما فنان مستقلان، على نحو ما رأينا في الفنون الأخرى كالوصف والغزل والمدح، فالشاعر يلجأ اليهما ضمن قصيدته المدحية أو الوصفية ثم يعود إِلى غرضه الذي يرمي إِليه، مما دفعنا أن نبحث عنهما في ثنايا هذه القصائد.

والهجاء من الفنون التي تراجعت في هذا العصر، وجاء هذا نتيجة للظروف السياسية التي سادت آنذاك، واعتقادنا هذا يقودنا أن نقول: إنَّ الشاعر عندهم يمثل المجتمع الغرناطي بطبقاته المختلفة من حكام ومحكومين. وكان الشعور السائد عندهم يتسم بالتشاؤميّة والإحساس بقرب النهاية، وهذا ظهر في رثاء المدن، فالخطر الإسباني يقرع أبواب مدينتهم. ومقابل هذا التراجع للهجاء، فقد شهدت فنون أخرى إزدهارا على نحو ما حدث في فنون الرثاء والإستعطاف، فأكثر الشعراء من إثارة الدافع الديني عند الملوك وعامة الناس، وهذا بدا واضحا في رثاء المدن الضائعة. و جاءت هذه الفنون لتكون مرآة نقية تعكس الوقائع جميعها بصورة واضحة جلية، يستطيع الناظر إليها أن يلمّ بتاريخ استطاع شعراؤه أن يدوّنوه؛ ليشكل وثيقة تاريخية قد تنصف هذه المملكة التي أضاع الإسبان جزءا كبيرا من تاريخها الحضاري.

المصـــادر والمراجـــع

أولاً: الــمــصـــــادر:

1. القرآن الكريم.

2. ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل: **نثير الجمان في شعر مَنْ نظمني وإياه الزمان**. ت: محمد رضوان الداية. بيروت: دار الثقافة. 1967.

3. ابن الأحمر، إسماعيل: **نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**. ت: محمد رضوان الداية. بيروت: دار الثقافة. 1967.

4. البخاري، محمد بن إسماعيل: **صحيح البخاري**. ت: طه عبد الرؤوف سعد. المنصورة: مكتبة الإيمان. 2003

5. ابن برد، بشار: **الديوان**. شرح مهدي محمد ناصر الدين. ط: 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1993.

6. أبو تمّام، حبيب بن جاسم بن أوس الطائي: **الديوان**. ت: إيليا حاوي. ط: 1. بيروت: دار الكتاب اللبناني.

7. الجرجاني، عبــد القاهر: **دلائل الإعجاز**. ت: الدكـــتور فايز الداية ومحمد رضوان الداية. ط: 2. دمشق: مكتبة ســعد الدين. 1987.

8. الجاحظ: **البيان والتبيين**. ج: 3. ت: عبد السلام هارون. ط: 3. القاهرة. 1968.

9. أبو حيّان، محمد بن يوسف: **تذكرة النحاة**. ت: عفيف عبد الرحمن. ط: 1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1986.

10. ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد: **التقريب إلى المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامّية والأمثلة الفقهيّة**. ت: إحسان عبّاس. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

11. ابن خاتمة، جعفر: **الديوان**. ت: محمد رضوان الداية. ط: 1. دمشق: دار الفكر. 1994.

12. ابن الخطيب، لسان الدين: **تاريخ إسبانيا الإسلامية (كتاب أعمال الأعلام في مَنْ بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام)**. ت: ليفي بروفنسال. دار المكشوف.

13. **الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة**. ت: إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة. 1983.

14. **كناسة الدكّان بعد انتقال السكّان**. ت: محمد كمال شبانة. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

15. **الديوان**. ت: محمد مفتاح. ط: 1. الدار البيضاء: دار الثقافة. 1989.

16. **الإحاطة في أخبار غرناطة**. ت: يوسف الطويل. ط: 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 2003.

17. **اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النّصرية**. القاهرة: المطبعة السلفية. 1347 هجري.

18. **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**. ت: أحمد مختار العبادي. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

19. ابن خفاجة: **الديوان**. شرح يوسف فرحان. بيروت: دار الجيل.

20. ابن خلدون، عبد الرحمن: **تاريخ ابن خلدون**. ج7. ط1. ت: تركي فرحان المصطفى. بيروت: دار إحياء التراث العربي. 1999.

21. الخنساء: **شرح الديوان**. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

22. ابن رشيق، الحســن: **العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقدهِ**. ج: 2. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط: 3. مصر: المكتبة التجارية الكبرى. 1964.

23. ابن زمرك: محمد الصريحي. ت: أحمد سليم الحمصي. ط: 1. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر. 1988.

24. ابن زمرك، محمد: **الديوان**. ت: محمد النيفر. ط: 1. بيروت: دار الغرب الإسلامي. 1997.

25. الزوزني، الإمام أبو عبد الله: **شرح المعلقات العشر**. ت: عمر أبو نصر. حلب: منشورات جامعة حلب كلية الآداب. 1966.

26. السيوطي، عبد الرحمن: **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**. ج: 2. ضبط وتصحيح: محمد جاد المولى. بيروت: دار إحياء الكتب العربية.

27. ابن أبي سلمى، زهير: **الديوان.** شرح علي حسن فاعور. ط: 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1993.

28. ابن العبد، طرفة: **الديوان.** ت: فوزي عطوي. بيروت: دار صعب. 1980.

29. العسكري، أبو هلال: **كتاب جمهرة الأمثال.** ت: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: 2. بيروت: دار الفكر. 1988.

30. الفيروز آبادي، مجد الدين: **القاموس المحيط** (مجلّد واحد). ط:2. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1987.

31. القزويني، جمال الدين: **الإيضاح في علوم البلاغة.** ت: محمد عبد المنعم الخفاجي. ط: 4. بيروت: لبنان: دار الكتاب اللبناني. 1975.

32. امرؤ القيس: **الديوان.** شرح: حسن السندوبي. ط: 5. القاهرة: مطبعة الاستقامة.

33. مؤلف مجهول: **أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر**: ت: حسين مؤنس. ط: 1. القاهرة: الزهراء للإعلام العربي. 1991.

34. مؤلف مجهول (مجاهد من المقاومة الإسلامية في غرناطة) 900 ــ 1000 هــ . آخر أيام غرناطة وهو كتاب (نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر) ت : محمد رضوان الداية. ط:2 .دمشق :دار الفكر المعاصر. 2002 .

35. المتنبي، أبو الطيّب: **الديوان.** ت: بدر الدين حاضري. ط: 1. بيروت: دار الشرق العربي. 1992.

36. المعرّي، أبو العلاء: **شروح سقط الزند.** ت: طه حسين ومصطفى السقّا. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر. 1954.

37. المقّري، شهاب الدين: **أزهار الرياض في أخبار القاضي عيّاض**. ت: مصطفى السّقّا وآخرون. الرباط: مطبعة فضاله– المحمدية. 1979.

38. **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**. ت: يوسف الشيخ محمد البقاعي. ط: 1. بيروت: دار الفكر. 1998.

39. ابن منظور، جمال الدين: **لسان العرب**. ط: 3. بيروت. دار صادر. 1994.

40. النباهي، ابو الحسن: **تاريخ قضاة الأندلس**. (المَرْقَبَة العليا فيمن يستحقُّ القضاء والفتيا). ت/ د: مريم الطويل .ط:1. بيروت :دار الكتب العلمية .1995.

41. أبو نواس: **الديوان – الخمرّيات**. ت: فوزي عطوي. بيروت: دار صعب. 1971.

42. ابن هاشم الأنصاري، جمال الدين: **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**. ت: مازن المبارك وآخرون. دمشق. 1972.

43. يوسف الثالث، **الديوان (ديوان ملك غرناطة)**. ت: عبد الله كنّون. ط: 2. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. 1965.

ثانياً: الــمــراجـــــع:

1. إبراهيم، مصطفى وآخرون: **المعاني**. القاهرة: المطبعة الأميريّة. 1951.

2. أرسلان، شكيب: **خلاصة تاريخ الأندلس**. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة. 1983.

3. إرفنج، داشنجتن: **قصر الحمراء**. ترجمة إبراهيم الإبياري. ط2. مصر: دار المعارف. 1957.

4. أسعد، عبد المنعم: **علم العروض والقافية.** ط: 1. القدس: كلية الآداب للبنات – جامعة القدس. 1987.

5. الأسعد، عمر: **علم العروض والقافية.** ط: 4. الأردن: عالم الكتب الحديث. 2004.

6. أمين، إسماعيل: **العرب لم يغزوا الأندلس.** ط: 1. لندن. رياض الريِّس للكتاب والنشر. 1991.

7. أنيس، إبراهيم: **موسيقا الشعر.** ط: 4. مصر: مكتبة الأنجلو. 1972.

8. **الأصوات اللغوية.** ط: 5. مصر: مكتبة الأنجلو. 1979.

9. بالنثيا، آنخل، **تاريخ الفكر الأندلسي.** ترجمة حسين مؤنس. ط: 1. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 1955.

10. بروفنسال، ليفي: **حضارة العرب في الأندلس.** ترجمة ذوقان قرقوط. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

11. بسبح، أحمد: **لسان الدين بن الخطيب،** عصرهُ، بيئتهُ، حياتهُ وآثارهُ. ط: 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1994.

12. البستاني، بطرس: **أدباء العرب.** وهو عصر الأندلسي. بيروت: دار مارون عبّود.

13. بشتاوي، عادل: **الأمة الأندلسية الشهيدة.** ط: 1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 2000.

14. بشر، كمال: **علم اللغة العام – الأصوات –** . مصر: دار المعارف. 1980.

15. التميمي، قحطان: **اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري.** بيروت: دار المسيرة.

16. الجارم، علي وآخرون: **البلاغة الواضحة.** ط: 21. مصر: دار المعارف. 1969.

17. جبّور، جبرائيل: **الملوك الشعراء.** ط: 1. بيروت: دار الآفاق الجديدة. 1981.

18. **من رياض الأدب والتاريخ.** ط: 1. بيروت: دار الآفاق الجديدة. 1981.

19. جرّار، صلاح: **زمان الأنس، دراسات في التفاعل الحضاري والثقافي في الأندلس،** ط:1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2004.

20. جطل، مصطفى: **النحو والصرف.** حلب: منشورات جامعة حلب. 1985.

21. جودة، صادق: **تاريخ المغرب والأندلس.** ط: 1. عمان: منشورات جامعة القدس المفتوحة. 1985.

22. جوميث، إميليو: **الشعر الأندلسي.** ت: حسين مؤنس. ط: 2. القاهرة: دار الرشيد. 2005.

23. الجيوسي، سلمى: **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس.** ط: 1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 1998.

24. حاوي، إيليا: **فن الهجاء وتطوّره عند العرب.** بيروت: دار الثقافة. 1998.

25. الحجّي، عبد الرحمن: **التاريخ الإسلامي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة.** ط: 1. الإمارات العربية المتحدة: دار الاعتصام. 1983.

26. حزّان، حبيب: **الأدب الأندلسي من الاحتلال إلى الارتحال.** فلسطين: دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر.

27. حسنين، محمد: **أساليب الصناعة من شعر الخمرة والأسفار بين الأعشى والجاهليين.** بيروت: دار النهضة العربية.1972.

28. أبو حسين، محمد: **صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين.** الأردن: عالم الكتب الحديثة. 2003.

29. الحمصي، أحمد: **ابن زمرك الغرناطي سيرته وأدبه**. ط: 1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1985.

30. حمودة، سعد: **دروس في البلاغة العربية**. مصر: دار المعرفة. 2000.

31. الحنفي، الشيخ جلال: **العروض، تهذيبيهُ وإعادة تدوينهُ**. ط: 2. بغداد: مطبعة الإرشاد. 1982.

32. حميد، بدير: **قضايا أندلسية**. ط: 1. القاهرة: دار المعرفة. 1964.

33. الحوفي، أحمد: **الغزل في العصر الجاهلي**. بيروت: دار العلم. 1961.

34. أبو الخشب، إبراهيم: **تاريخ الأدب العربي في الأندلس**. ط: 1. مصر:دار الفكر العربي. 1966.

35. خضر، حازم: **وصف الحيوان في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين**. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة. 1987.

36. الخطيب، حسام وآخرون: **اللغة العربية**. ط: 2. حلب: منشورات جامعة حلب.

37. الخطيب، رشا: **تجربة السجن في الشعر الأندلسي**. ط: 1. أبو ظبي: المجمع الثقافي. 1999.

38. خفاجة، محمد: **قصة الأدب في الأندلس**. بيروت: منشورات مكتبة المعارف. 1962.

39. خفاجي، محمد: **الأصول الفنيّة لأوزان الشعر العربي**. ط:1. بيروت: دار الجيل. 1992.

40. **الأدب الأندلسي التطوّر والتجديد**. ط: 1. بيروت: دار الجيل. 1992.

41. الداية، فايز: **جماليات الأسلوب (علم المعاني)**. حلب: منشورات جامعة حلب. 1989.

42. الدقّاق، عمر: **ملامح الشعر الأندلسي**. بيروت: منشورات دار الشرق.

43. الدوسري، أحمد ثاني: **الحياة الاجتماعية في غرناطة في دولة بني الأحمر**. الإمارات العربية المتحدة: المجتمع الثقافي. 2004.

44. الرّكابي، جودت: **في الأدب الأندلسي**. ط: 2. مصر: دار المعارف 1966.

45. **الطبيعة في الشعر العربي**. ط: 2. دمشق: مطبعة الترقي. 1970.

46. الزين، نبيل: **المرشـــــد في البلاغـــــة**. ط: 1. عمّان: دار أســـــامة. 1996.

47. السعيد، محمد: **الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس**. ط: 1. بيروت: الدار العربية للموسوعات 1985.

48. السيِّد، سالم: **تاريخ مدينة المريّة الإســــــــلامية، قاعدة أســــــــطول الأندلــــــس**. ط:1. بيروت دار النهضـــــــــة العـــربيــــــة للطباعـــــــــة والنشر. 1969.

49. السيّد، عز الدين: **التكرير بين المثير والتأثير**. ط: 2: بيروت: عالم الكتب. 1996.

50. سعد، عبد المنعم: **علم العروض والقافية**. ط: 1. القدس: كلية الآداب للبنات – جامعة القدس. 1987.

51. سعيد، محمد: **دراسات في الأدب الأندلسي**. ط: 1. ليبيا: منشورات جامعة سبها. 2001.

52. سليمان، نايف: **الواضح في العروض وموسيقى الشعر**. ط: 1. عمّان: دار الفكر للنشر. 1991.

53. الشايب، أحمد: **الأٍسلوب، دراسة بلاغية لأصول الأساليب الأدبية**. ط: 12. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 2003.

54. شايندلين، ريموند: **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**. ط: 1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 1998.

55. الشكعة، مصطفى: **الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه.** ط: 5. بيروت: دار العلم للملايين. 1983.

56. شلبي، إسماعيل: **البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر- عصر ملوك الطوائف.** القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

57. شلبي، سعد: **الأصول الفنيّة للشعر الأندلسي، عصر الإمارة.** مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر. 1982.

58. الشنّاوي، علي: **دراسات في الشعر الأندلسي.** ط: 1. مكتبة الآداب. 2003.

59. الصائغ، عبد الإله: **الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنيّة.** ط: 1. بيروت: المركز الثقافي العربي. 1999.

60. الصابوني، محمد: **الموجز في البلاغة العربية والعروض.** ط: 1. بيروت: المكتبة العصرية. 1988.

61. ضيف، أحمد: **بلاغة العرب في الأندلس.** ط: 2. تونس. دار المعارف للطباعة والنشر. 1998.

62. ضيف، شوقي: **الفن ومذاهبه في الشعر العربي.** ط:10. القاهرة: دار المعارف. 1960.

63. **العصر الجاهلي.** ط: 7. مصر: دار المعارف. 1960.

64. الطوخي، أحمد: **مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر.** الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة. 1997.

65. الطويل، يوسف: **مدخل إلى الأدب الأندلسي.** ط: 1. بيروت: دار الفكر. 1991.

66. الطيبي، أمين: **دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس.** ليبيا: الدار العربية للكتاب. 1984.

67. عاشور، سعيد: **محاضرات في التاريخ العباسي والأندلسي**. بيروت: منشورات جامعة بيروت العربية. 1975.

68. عاصي، ميشال: **الشعر والبيئة في الأندلس**. ط: 1. بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر. 1970.

69. عبّاس، فضل: **إعجاز القرآن**. ط: 2. الأردن: منشورات جامعة القدس المفتوحة. 1977.

70. عبد البديع، لطفي: **الإسلام في إسبانيا**. ط: 1. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة. 1958.

71. عبد المهدي، عبد الجليل: **تاريخ الأدب والنصوص**. الأردن: منشورات وزارة التربية. 1994.

72. عبد الله، محمد: **جماليات اللغة وغنى دلالاتها من الوجهة العقدية والفنيّة والفكرية**. ط: 1. القاهرة: دار إحياء الكتب العلمية. 1993.

73. عتيق، عبد العزيز: **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**. ط: 3. بيروت: دار النهضة العربية. 1980.

74. **علم البديع**. بيروت: دار النهضة العربية. 1985.

75. **علم المعاني**. بيروت: دار النهضة العربية. 1978.

76. **الأدب العربي في الأندلس**. القاهرة: دار الآفاق العربية.

77. عَدس، محمد: **الواضح في قواعد النّحو والصرف**. ط: 1. عمّان. دار مجدلاوي للنشر. 1991.

78. العشماوي، محمد: **موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العبّاسي**. بيروت: دار النهضة العربية. 1981.

79. العلي، فيصل: **الميَّسر الكافي في العروض والقوافي**. عمّان: مكتبة الثقافة للنشر.

80. **البلاغة الميّسرة في المعاني والبيان والبديع**. ط: 1. الأردن مكتبة دار الثقافة. 1995.

81. أبو علي: محمد وآخرون: **علم البلاغة**. ط: 1. عمّان. منشورات جامعة القدس المفتوحة. 1997.

82. عنان، محمد عبد الله: **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين وهو العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس**. ط: 3. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. 1966.

83. عناني، محمد: **تاريخ الأدب الأندلسي**، مصر: دار المعرفة الجامعية. 1999.

84. عودات، أحمد وآخرون: **تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس الهجري حتى القرن العاشر الهجري**. اربد: دار الأمـــــــــل للنشر والتوزيع. 1989.

85. عيد، يوسف: **أصوات الهزيمة في الشعر الأندلسي**. ط: 1. بيروت: دار الفكر. 1993.

86. **الشعر الأندلسي وصدى النكبات**. ط: 1. بيروت: دار الفكر. 2002.

87. عيسى، فوزي: **دراسات في أدب المغرب والأندلس**. مصر: دار المعرفة الجامعية. 2000.

88. غريب، جورج: **شعراء اللهو والخمر، تاريخه وأعلامه**. ط: 1. بيروت: دار الثقافة. 1966.

89. الغلاييني، لشيخ مصطفى: **جامع الدروس العربية**. ط: 38. بيروت: المكتبة العصرية. 2000.

90. غومث، إميليو: **مع شعراء الأندلس والمتنبي**. ترجمة الطاهر أحمد مكي. ط: 3. القاهرة: دار المعارف. 1983.

91. الفاخوري، حنّا: **الموجز في الأدب العربي وتاريخه**. ط: 1. بيروت: دار الجيل. 1985.

92. فاخوري، محمود: **موسيقا الشعر العربي**. حلب: منشورات جامعة حلب – كلية الآداب. 1987.

93. فيصل، شكري: **تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من أمريء القيس إلى ابن أبي ربيعة**. ط: 4. بيروت: دار العلم للملايين. 1959.

94. **المجتمعات الإسلامية في القرن الأول وتطورها اللغوي والأدبي**. بيروت: دار العلم للملايين.

95. الفيّومي، محمد: **تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس**. ط: 1. بيروت: دار الجيل. 1997.

96. فيّود، بسيوني: **دراسة تاريخيّة وفنيّة لأصول البلاغة ومسائل البديع**. ط: 2. القاهرة: مؤسسة المختار للطباعة والنشر. 1998.

97. القاسمي، جاسم: **تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة. 2000.

98. القطّان، منّاع: **مباحث في علوم القرآن**. ط: 7. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1980.

99. كرّو، محمد: **شخصيات أدبية من المشرق والمغرب**. ط: 2. بيروت: دار مكتبة الحياة. 1966.

100. لوبون، غوستاف: **حضارة العرب**. ترجمة عادل زعيتر. ط: 2. مطبعة دار إحياء الكتب العربية. 1948.

101. مؤنس، حسين: **معالم تاريخ المغرب والأندلس**. ط: 1. القاهرة: دار ومطابع المستقبل. 1980.

102. محمد، سعيد: **دراسات في الأدب الأندلسي**. ط: 1. ليبيا: منشورات جامعة سبها. 2001.

103. **الشعر في قرطبة**، أبو ظبي: المجمع الثقافي. 2003.

104. محمد، محمود: **الأصوات العربية بين اللغوين والقرّاء:** المدينة المنوّرة: مكتبة دار الفجر الإسلامية. 1998.

105. المطعني، عبد العظيم: **البديع في المعنى والألفاظ**. ط: 1. القاهرة: مكتبة وهبة للطباعة والنشر. 2002.

106. معطي، يحيى: **البديع في علم البديع**. ت: محمد أبو شوارب. ط: 1. الإسكندرية. 2003.

107. مكّي، محمد: **الحضارة العربي الإسلامية في الأندلس**. ط: 1. بيروت: منشورات مركز دراسات الوحدة العربية. 1998.

108. الملائكة، نازك: **قضايا الشعر المعاصر**. ط: 9. بيروت: دار العلم للملايين 1996.

109. الملاح، ياسر: **من الفجر إلى الغروب، قصة الأدب العربي في الأندلس**. ط: 1. القدس: مطبعة الإسراء. 1993.

110. ملحس، محمد: **أحكام تجويد القرآن على رواية حفص بن سلمان**. ط: 16. نابلس: مطبعة عبد الرحمن حجاوي.

111. ملحم، إبراهيم: **الأنا في الخطاب الشعري "دراسة في شعر بشار بن برد"**. ط: 1. الأردن: دار الكندي. 2004.

112. ناصيف: إميل: **أروع ما قيل في الزهد والتصوف**. بيروت: دار الجيل.

113. نافع، عبد الله: **الهجاء في الشعر الأندلسي.** ط1. بيرزيت: منشورات كلية الآداب. 1984.

114. النّاطور، شحادة: **مدخل على تاريخ الحضارة العربية والإسلامية.** ط: 1. اربد: دار الأمل. 1989.

115. النّوري، محمد جواد: **علم الأصوات العربية.** ط: 1. الأردن: منشورات جامعة القدس المفتوحة. 1996.

116. **فصول في علم الأصوات العربية.** ط: 1. نابلس: مطبعة النصر التجارية. 1991.

117. هدّارة، محمد: **اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري.** القاهرة: دار المعارف. 1963.

118. هلال، محمود: **الأدب المقارن.** ط: 9. بيروت: دار العودة. 1953.

119. هونكة، زيغريد: **شمس العرب تسطع على الغرب.** ترجمة: فاروق بيضون وكمال الدسوقي. ط: 8. بيروت: دار صادر. 2002.

120. هيكل، أحمد: **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة.** ط: 7. مصر: دار المعارف. 1979.

121. الوائلي، عبد الحكيم: **موسوعة قبائل العرب.** ط:1. الأردن: دار أسامة. 2002.

122. اليازجي، كمال: **الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم.** ط: 1. لبنان: دار الجيل. 1986.

123. ياغي، هاشم وآخرون: **تاريخ الأدب العربي.** ط: 1. عمان: منشورات جامعة القدس المفتوحة. 2005.

ثالثاً: الرسائل الجامعية:

1. جبالي، أسعد: **الاستعطاف في الشعر الأندلسي**، عصر ملوك الطوائف. رسالة جامعية غير منشورة. نابلس: منشورات جامعة النجاح الوطنية – كلية الدراسات العليا. 2003.

2. عتيق، عمر: **دراسة أسلوبية في شعر الأخطل**. رسالة جامعية: نابلس: منشورات جامعة النجاح الوطنية. 2000.

3. مصطفى، محمود: **الفخر عند الشاعر يوسف الثالث**. رسالة جامعية. نابلس: منشورات جامعة النجاح الوطنية – كلية الدراسات العليا. 2004.

الــدوريـــــات:

1. أعراب، الطرايسي: *الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي*. **مجلة عالم الفكر**: المجلد الثاني عشر. الكويت: منشورات وزارة الإعلام. 1981.

2. العبادي، أحمد: *الإسلام في أرض الأندلس*. **مجلة عالم الفكر**: العدد 2. الكويت: منشورات وزارة الإعلام. 1979.

3. د: عودة، خليل : *المستوى الدلالي للّون في شعر عنترة*. **مجلّة الدارة** . العدد الثاني، السنة الثانية والعشرون . 1417هـ .

فِهْرِسْـــــتْ الأشْـــــعَاْرِ

والزّهر في نهـــر المجرّة بعضها يطفو بصـــفحتها وبعضٌ يرسبُ	الكامل	51
ألا ربّ رأس لا تـــزاور بينــهُ وبيــن أخـيه والمــزار قــريب	الطويل	61
البحــر أعظــم مما أنت تحسبهُ مَنْ لم ير البحر يوماً ما رأى عجبا	البسيط	63
وقــد امتطـــينا زورقاً فيه فقل صــبح تمشـــي في ســناهُ غيهب	الطويل	78
أنا الهمام الذي تخشــى عزائمهُ في الحرب أن كتّب الأجناد أو كتبا	البسيط	90
ســعودك لا ما تدعيه الكواكب وجودك فينا لا السَّـحاب الســواكب	الطويل	108
يا أيّها السّــيد الأعلى الذي يده حازت ندى السُّحب مسكوباً بمسكوب	البسيط	108
أروم امتداح المصــطفى فيصدّني قصوري عن إدراك تلك المناقب	الطويل	109
يا خير مَـــنْ خلصـــت لله نيّته في الملك أو خطب العلياء خاطبهُ	البسيط	110
أقبــل العيــد فــابتدرت مُهـــلاً نحو أمّ العزيز أبغي احتســـابا	الخفيف	118
تباعــد عنّـــى منــزلٌ وحبيــب وهاج اشـــتياقي والمزار قريب	الطويل	135
أيا دهرُ إني قد ســـــئمتُ تهدمي أجرني فإنّ الســهم منك مصيب	الطويل	135
غــريب كلّــما يلقـــى غــريب فلا وطــن لديــه ولا حـــبيب	الوافر	136
إلهــي أجرني إنـــي لك تائــب وإنّي من ذنبــي إليك لهـــاربُ	الطويل	141
وكـــلُّ ذي غيبـــةٍ يـــؤوب وغــائب المــوت لا يـــــؤوب	المتقارب	147
يا طلعة الشؤم التي مهما بــدت يئســـت عفــاةُ النجح من أسبابهِ	الكامل	155
والملحدون بما قالوا ومــا فعلوا للســـيف ما كتّبوا والمحو ما كتبوا	البسيط	177
إذا شئت أن تُعطي المقادةَ أهلها وتلقى حسامَ النصر في كفِّ ضارب	الطويل	181
الله يكـــفي عاذلي ورقــيبها حتـــى تثيب على الهــوى وأثيبها	الكامل	194
حرف التاء`		
أحييك يا معنى الكمال بواجب وأقطــع في أوصـــافكَ الغرِّ أوقاتي	الطويل	67
بعدنا وإن جـــاورتنا البيوت وجــئنا بوعــظ ونحــن صـــموت	المتقارب	134
تفرّدت لما أن جمــعتُ بذاتي واســـكنتُ لمــا أن بدت حركــاتي	الطويل	142
لســانك كالسّــيف في شكلهِ وأعــدى من السّــيف في ســـطوتهِ	المتقارب	170
حرف الجيم		
لِمَ لا تنال العلى أو يعقدُ التّاج والمشـــتري طالع والشــمس هيلاج	البسيط	129
هبّ النســـيم معطرّ الأراج فشـــفى لواعــج قلبــي المهـــتاج	الخفيف	138
حرف الحاء		
لا توقد المصــباح وأعلم أنّ لي مــن وجــه مَــنْ أحببته مصــباحا	الكامل	124

كدحتُ إلى ربّ الجمال مــلاقيا	فــيا أيّها الإنســـان إنّك كـــادحٌ	الطويل	172
أنا من خالــص الحــديد غديرٌ	فتــرى وســطيّ الرّدى وهو سابح	الخفيف	178
حرف الدال			
أفــلا تــذوب قلوبكــم إخـــــواننا	مما دهانا من ردى أو مِن ردي	الكامل	34
الــورد ســـــلطان كـــلّ زهـــر	لـــه أنّـــهُ دائـم الـــورود	السريع	72
ووردیّـــة الجلباب أعجبتها الــورد	فغنّــت وما بالغانيات لها عهــدُ	الطويل	77
إنّ النصارى قد تجمّع شــــــملها	فعســـى ببأس ســيوفكم تتبدّدُ	الكامل	82
مَنْ ذا يطهِّر نفســــه بعزيمـــةٍ	مشـــحوذةٍ في نصر دين محمد	السريع	84
ألائمة في الجود والجود شـــيمتي	جــلبت على آثارها يــوم مولدي	الطويل	89
كـــم جامع فيها أعــيد كنيســـةٍ	فاهلك عليه أســـى فلا تتجـــلد	الكامل	95
أيا زفرتي زيدي ويا عبرتي جودي	على فاضل الدنيا على ابن مسعود	الطويل	97
ضـــــريح أمير المؤمنين محمد	يخصـّــك ربي بالسّـــلام المردّد	الطويل	98
ومَــنْ كبني نصرٍ جلالة منصبٍ	بهم نصر الرحمن دين الهدى محمدا	الطويل	106
بحيث البنود الحمرُ والأسد الوَرْدُ	كتائب ســـكّان السّـــماء لها جند	الطويل	107
أشكو إليك ولا أشـــكو إلى أحدٍ	يا مَـــنْ عليها من الأقوام معتمدي	البسيط	114
بهرت كشمس في غلالة عســجد	وكـــبدر تــم في قضــيب زبرجد	الكامل	117
وإذا ابتســـمت يروقك مبســم	يــزرى بعقـــد اللؤلؤ المنضـــود	الكامل	117
فهــل عنــد ليلى نَعَّــمَ الله ليلها	بأنّ جفـــوني ما تلمُّ من الســـهر	الطويل	118
أدرهـــا بيـــن مــزمار وعود	ودونك فاغتنم زمـــن الســـعود	الوافر	122
تسقيك من يدها خمراً ومن فمها	خمَــراً فما لك من ســكرين من بدٍّ	البسيط	123
لقد ذمّ بعض الخمــر قومٌ لأنّها	تكـــرُّ على دين الفتــى بفســـادِ	الطويل	126
يهنيك نيروز ســعيد قد انقضى	أتتك علـــى آثـــارهِ منــه أعــداد	الطويل	128
حيّ حــيّ بالله يا ريــح نجــد	وتحمّــل عظيم شـــوقي ووجـــدي	الخفيف	136
يا ربّ إنّ ذنــوبي قد عظمت	فمـــا أطــيق لها حصــراً ولا عددا	البسيط	141
لقد حاز أصحاب الحديث وأهله	شـــأواً وتيراً ومجـــداً ملحـــداً	الطويل	144
به يُعرف القرآن والســنّة التي	همـــا أصـــل الدِّين ذو أنــتَ عابده	الطويل	145
فمنهم أبــو بكــر خليفتهُ الذي	له الفضـــل والتقديم في كل مشــهد	الطويل	145
ومَن كعليّ ذي الشجاعة والرضا	للإصــراخ مذعــور وإيواء مطرود	الطويل	159
يا أمّة المحراب والحرب أخلصوا	لســـامع نجــوى حيِّهِ وجــمادِهِ	الطويل	160

في ســــبيل الإلـــــه مجــــــدٌ تــوارثـــت كـــريم الإصدار والإيراد	الخفيف	161
ومحتمل الركــــــبان طيبَ حديثهِ فيأتيك بالأخـــــبار مَـــنْ لم تــزوّدِ	الطويل	168
ســتبدي لك الأيام ما كنتَ جاهلاً ويأتيــك بالأخــبار مَــنْ لــم تزوِّد	الطويل	168
ومَنْ كعمرو مضنى الراجم والمُد ن وقـــــد ألحقــت حروب الشِّـداد	الخفيف	170
وكـــــم لي في غرناطة من مــبادر لمســــــجد تقواه وســــبق جواده	الطويل	178
ومدّ ظلال العدل في كــلّ وجهةٍ وكــــــفّ أكــفّ البغي من كلّ معتد	الطويل	180
أوطانكــــم إخوانكــم وبلادكــم عــــودوا وعهــدكم القديم مجّــدوا	الكامل	180
وثـــــمار نارنـــــج أزهـــــارها مـــــع ناتيء النارنج في تنضــــــيد	الكامل	187
حمامُ حمامٍ فوق أيك الأسى تشدو تهيجُ من الأشــجان ما أوجد الوجدُ	الطويل	198
أبني مرين والحماية شـــــــأنكم وبكفكـــــم ســـــيف الجهاد يجرّدُ	الكامل	199
حرف الراء		
يا ابن الألى قد أحرزا فضل العـــــلا وســـموا بطيب أرومة ونجـــار	الكامل	17
أبني عـــــبادة إنّ فخــــــر قديمكــم تليت بفرقان الهدى أســــطاره	الكامل	18
ليـــــس لنـــــا ملجـــــأ نؤملـــــــه ســــــواك أنتَ الثّمال والوَزْرُ	المنسرح	35
معاشـــر أهل الدين هبّوا لصعقـــــةٍ وصاعقةٍ وارى جســوم ظهورها	الطويل	39
بلدٌ تحـــــفّ به الريــاض كــأنّــهُ وجه جميل والرياض عـــــذارهُ	الكامل	46
ســكانها مَــنْ اســـكنوا جنّــــةً فهم يلقـــــون بهــا نضـــــــرة	السريع	57
غـــرناطـــة مـــا مثلها خضــــرة الماء والبهجـــة والخضـــــــرة	السريع	57
هبّ النسيم على الرياض مع السَّحر فاستيقظت في الدوح أَجفان الزهر	الكامل	61
يا قصـــر شنيل وربعك آهــلٌ والروض منك على الجمال قد اقتصر	الكامل	69
وشيخٍ جليل القدر قد طال عمــره وما عنــدهُ علــمٌ لطولٍ ولا قصر	الطويل	73
وأُزرق محفوف بزهر كـــــــأنّه نجــوم بأكــــــناف المجرّة تزهر	الطويل	75
وزنجيّة فـــإن الكؤوس بنحـــــرها قلائـــــد ياقوتٍ عليها الجواهـــرُ	الطويل	75
وأقول والبدرُ يسمو في السما صعداً لصـــاحبي والدجى مستقبل العمر	البسيط	77
أتبعتها غــــــرر الجياد كـــواكباً تنقــضُّ رجماً في ســماء غبار	الكامل	79
أركــبتهُ فـــي المنشــــآت كأنّــما جهّـــزته في وجهـــة المـــزار	الكامل	80
قصدناك يا خير الملوك على النوى لتنصفنا مما جنـــــى عبدك الدهرُ	الطويل	87
أرى الناس يولّون الغني كرامـــــة وإن لم يكـــــن أهلاً لرقعة مقدار	الطويل	101
قل للوزير البليد قــد ركضـــــت فـــي ربعــك اليوم غــارة البعير	المنسرح	103

يا ناقص الديــن والمروءة والعقل	ومجـــــرى اللســــــــان بالهذْر	المنسرح	104
فلله ذاك القدّ وهو مهفهـــــــــــفٌ	ولله ذاك الثغــــر وهو مؤشــــــر	الطويل	114
حيّا الربيع بنرجــــــسٍ وبهـــار	فــــاردد تحيتهُ بكــــأس عُقـــــار	الكامل	120
وغانية يُغْني عن العود صــوتها	وجاريةٍ تســــقى وســـــاقيةٍ تجري	الطويل	122
في كفّ شـــــــقّاف تجسّد نوُرهُ	مــن جوهـــــر لألاءِ بهجتـــهُ بهر	الكامل	124
هي نفحةٌ هبــّت من الأنصـــــار	وأهــــدتك فتــح ممالك الأمصـــار	الكامل	127
يا قادماً عمّــت الدنيا بشـــــائرهُ	أهــــلاً بمقدمــك الميمون طائــرهُ	البسيط	128
لقد خاض لجّ الحبّ منّي فتى غِرٌّ	وشـــــبتُ فشبّت في ضلوع له جمرُ	الطويل	134
الحرُّ يصفح وإن أخـــــلّ خليلهُ	والبرّ يســــــمحُ وإن تجرأ جــارُهُ	الكامل	148
اقنـــع بمـــا أوتيتهُ تنل الغنى	وإذا دهـــتك ملمّـــةُ فتصــــبّر	الكامل	148
ومن ينفق الساعات في جمع مالهِ	مخافـــةَ فقـــرٍ فالذي فعل الفقر	الطويل	149
ما شئت من حُسْــنٍ ومن حَسَنٍ	ما شـــئت من شـــمس ومن بدرٍ	الكامل	153
لو أن ما بي بالأفق مِن أســـفٍ	مـــا لاح نـــورٌ للأنجم الزُّهــر	الكامل	157
والعمرُ مثل البدر يونـق حسـنه	حـيناً يعقـــبُ بعد ذلك ســرارُهُ	الكامل	157
وأنعــــمْ على مــن تشـــاء	فأنـــت حتمـــاً أميـــــرَهُ	المجتث	158
ألبست عبدك من ثيابك ملبســاً	وقــد قصرْت عنه مدارك شــكرهِ	الكامل	158
لِمنْ رايةٌ حمراء ترتاح بالنصــر	تطيـــف حــواليها حماةُ بني نصر	الطويل	166
هيهات يجحد فضل مجدك جاحدٌ	إنّ العـــلا علــمٌ وفخـــرك نارُهُ	الكامل	169
وإن صــــــخراً لتأتمُّ الهداةُ به	كـــأنّهُ علم فـــي رأســـهِ نــــار	الكامل	169
وهـــزّي إليك بجــذع الرّضى	تســـــاقط عليك الأمانــي ثمــارا	المتقارب	172
مطلُ الغنيّ ظلمٌ ففيـــم ظلمتني	ولــويت ديني عـــن وجود يســار	الكامــل	172
محلُّك بالدنيا، بالدين معمـــــور	فشــانيك مخذول وراجيك منصور	الكامل	180
خضــت بحر الحبّ والدمع وهل	تــدرك الآمـــال إلا بالغـــــرر	الرمل	188
هجروا وخطب الهجر ليس يسير	بدرٌ يســــير البدر حيث يســير	الكامل	210
هذا وزير الغــرب عبدٌ آبـــق	لــم يلف غيرك في الشدائد مِنْ وزر	الكامل	211
عيناي تفهم من عينيك أســراراً	وورد خدّيك يزكي في الحشـــا ناراً	البسيط	200
حرف السين			
أدرك بخيلك خـــيل الله أندلســا	إن الســــبيل إلى منجاتها درسا	البسيط	32
أطلعن في سدف الفروع شموســاً	ضـــحك الظلام لها وكان عبوسا	الكامل	44

أقشـــــــيب ربعهـــم أراك دريسا تقري ضيوفك لوعـــــة وريســـــا	الكامل	44
معاذ مَنْ كتب الحســـــنى لأندلس مِنْ أن يجوس عدو الدِّين أندلســـــا	البسيط	85
أيا سيّدي الأعلى وشـــمس هدايتي ووجهـــة تعظمي وروضة إيناسي	الطويل	109
حَمى حِمى الحـــقّ إرغاماً لمبطله فالشرك في مأتمٍ والدين في عرسي	البسيط	110
طرقنا ديور القوم وهنا وتغليســـا وقد شرفوا الناسوت إذا عبدوا عيسى	الطويل	123
سقت ساريات السحب ساحة فاس ســــــوانح تكسو السَّرح حسن لباس	الطويل	187
حرف الشين		
وعصبة شـــــرٍّ من يهود لقيتها يجانبها داعـــي الهـــدى ويحاشــــيها	الطويل	88
يا غزالاً وردهُ فــــي أدمعـــي كـــــلّما شــــاء ومـــرعاهُ الحشــــا	الرمل	115
حرف الصاد		
خرجـــنَ ولم يتقين القصـــــاصا وأوثقـــن ثـــم منعـــن الخلاصـــــا	المتقارب	110
حرف الضاد		
شـــلير لعمري أســـــاء الجوارا وســــدّ عليَّ رحـــــيب الفضـــــا	الطويل	74
حرف الطاء		
شــــــحطت وفود الليل بأن به الوخط وعســـكرهُ الزنجي همَّ به القبط	الطويل	129
حرف العين		
إذا كـــــان عيـــن الدمــــــع حقيقة فإنســــــانها ما نـــحن فيه ولاعٍ	الطويل	58
أعرض عن الشيء إن تهواه تحظ به وأحـــــرص عليه إذ تأباهُ يمتنعُ	البسيط	166
حرف الفاء		
ملكتكِ القلب وإنّــــي امـــــرؤ علـــــيّ ملك الأرض قــــد وقِّفــــا	السريع	15
وبالسيفِ ســـفاحٌ وبالهدي مهتدٍ وبالرعب منصور وبالله مســــــتكفي	الطويل	28
وروضةٍ قد وطئنا من رياحينها فرشـــــاً وظلّنا من الأظلال في لحف	البسيط	60
أجرُّ ذيل التصابي فيه محتســـباً أجـــري بردِّ عذول فيه معتســـــــف	البسيط	61
يقرُّ بعيني لأن أرى الزهرَ يانعاً وقد نازع المحبوب في الحسن وصفهُ	الطويل	71
أإخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا فقد كـــــان نور الله بالكفر أن يطفا	الطويل	84
واعدني وعداً وقـــــد أخلفــــا أقــلّ شـــــــيء في المليح الوفــــا	السريع	114
أنت ابن أنصار الهد ى وحماتهِ هنيئاً لهــــم هـــــذا الثناء المخـــلّف	الطويل	114
عزاءً فإنّ الشجو قد كان يسرف وبشرى بها الداعي على الغور يشرف	الطويل	115

كالمســك ريحاً واللمى مطمعاً	والتِّبر لونـا والهـــوى في اعتــدل	السريع	128
بما قد حزتَ من كرم الخــلال	بمــا أدركــت مــن رتب الجــلال	الوافر	132
الحقَّ يعلو والأباطل تســفل	والله عـــن أحكامــه لا يُسْــــأل	الكامل	137
يا ابن الإمام ابن الإمام ابــن الإما	م ابــن الإمـــام وقدرها لا يجهل	الكامل	154
مِنْ أين للشــمس المنيرة منطــق	ببيانــه دُرُّ الكـــلام يفصّــــلُ	الكامل	160
مثير رياح العزم في حومة الوغى	ومختطـــف الأبطال يــوم نزاله	الطويل	156
يهـــنيك صــنع الله حين تبلّدت	فيـك الحجـــى وتأوّل المتــأوّل	الكامل	161
ثلاثة بســـــماط الملك مطهرُهم	تتابعـــوا للرّدى كالســابق العجل	الكامل	161
فمن استجار علاك عزّ جـــوارُهُ	وعـــــزيز قــوم لم يطعك ذليل	الكامل	165
يا ناصر الإســـلام يا ملك العلا	الله يؤتيـــك الجـــزاء جـــزيلا	الكامل	199
حرف الميم			
لولا صـــبرنا فـــي كـــلّ حربٍ	لكـــان لجانب الدِّين اهتضام	الوافر	36
ومنوّع الحركات مـــن ركـب الهوا	فيمشـــي على خطّ به متوهّم	الكامل	43
ومـــن هاب أســـباب المنايا ينلنه	وإن يرق أسـباب السماء بسلّم	الطويل	44
وكـــم ليلةٍ قـــد جئتُ فيهـــا بليلةٍ	مــن النّقع فيها للأسنّة وأعجم	الطويل	44
يا آل نصـــر أنتم ســـرج الهدى	في كــل خطب قد تجهّم مظلم	الكامل	85
ألا يا رســـول الله ناداك ضــارع	على البعد محفوظ الوداد سليمه	الطويل	86
لنا الأيدي الطــوال بكـــلّ ضربٍ	يهزّ به لدمى الروع الحســـام	الوافر	86
مـــولى ملــوك العـــرب والعجم	رعيا لما مثلهِ يرى من الذّمـــم	البسيط	87
مَنْ لــم يصب فـــي نفســهِ فمصابه	بحبيبـــه نفذت بذا الأحكـــام	الكامل	97
قــد هــجوتُ النســـــاء دهـــــراً	فلم أبلغ أداني صفاتهن الذميمة	الكامل	102
أيا لبنـــى الرّقاء تنضـــى ظباؤهـــم	جفـــون ظباهــم والفؤاد كليم	الطويل	116
يومنا يـــــوم ســــرور فلتقـــم	تصـــدع الهمّ بكاســات المدام	الرمل	125
عادت ببـــرئك بهجـــــة الأيـــام	واســـتقبلتك بثغرها البّســـام	الكامل	129
والنــــاس إمّـــا جائـــــرٌ	أو جائـــر يشـــكو ظلمـــة	مجزوء الكامل	130
يا مَـــنْ إذا ينفق العمر الثميــن بلا	جدوى سوى جمع مالٍ خيف العدم	البسيط	149
موْلاي موْلاي إن أرضاك بذل دمـــي	فقد أتيتُ به أســـعى على قدمي	البسيط	155
رحيبة ألطافٍ إذا الوفـــدُ حلّهـــا	تكـــنّفهم غمـــرُ النوال عميمــه	الطويل	156
وأحمر قد أذكى بـــــه البأس جذوةً	إذا ابتلّ عطفـــاً في الوغى يتضرّم	الطويل	156

رضيتُ بما تقضي عليّ وتحكـــــمُ أُهــــان فأقصى أم أعزٌّ فأكرم	الطويل	164
أنت الأمير وأنت خصـــمي فاحكمي لـــي أو عليَّ فلن أسائل: ذا لمه؟	الكامل	169
يا أعدلَ الناس إلا فــي معامـــلتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم	البسيط	169
الفاتحون لكـــلّ صـــعب مقفــل والفارجـــون لكـل خطب مبهم	الكامل	170
يهنيك بسرى قد استبشرتُ مذ وردت بهــا لعمرك وهو البرّ في القســم	البسيط	170
حرف النون		
شـــيّدت بملكك للهدى أركان وســـام فوق الســـها بنيان	الكامل	18
وطَفْلَةٍ ما رأتاه الشمس إذ برزت كــأنما هـــي ياقوت ومرجان	البسيط	23
لكلّ شــــيء إذا ما تمّ نقصان فلا يغرّ بطيب العيــش إنســـان	البسيط	34
فتحٌ قضـــاه لملكك الرحمـــن لـــم تأت قطّ بمثلـــهِ الأزمـــان	الكامل	36
لمثل هذا يذوب القلبُ من كمــدٍ إن كــان في القلب إســـلامٌ وإيمان	البسيط	38
بالحسن من مكناســـة الزيتون قد صــــح عذر الناطــق المفتــون	الكامل	61
وأخضر فســـتقيّ اللون غضٍّ يروق بحســن منظــره العيـــونا	البسيط	72
بسط البياض كرامـــةً لقدومهِ وافترّ ثغـــراً عــن كــرامة معتني	الكامل	73
ليلتي هذه عــروس من الزنج عليهـــا قلائــدٌ مــن جمـــان	الطويل	77
مـــا حيوان فــي اســـمه إذا اعـــتبرتـــه فنـــــون	مجزوء الرجز	77
تبكي الحنفيّةُ من أســـفٍ كـــما بكى لفـــراق الإلف هيمان	البسيط	94
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتـــم يا عـــباد الله إخـــوان	البسيط	95
كم قلتُ للبـــدر المنيــر إذا بدا هيهات وجــه فلانــةٍ تحكـــي لنا	الكامل	116
أطاع لساني في مديحك إحساني وقد لهجت نفســي بفتح تلمســـان	الطويل	127
أيّام قربك عندي ما لها ثمــــن ولكننـــي صدّني عــن قربك الزمن	البسيط	136
حديث الأمان في الحياة شجون إن أرضــــاك شــأن أحفظتك شؤون	الطويل	140
يا مَنْ لذلّة قومٍ بعد عزّهـــــم أحــــال حالهــم كـــفرٌ وطغــيان	البسيط	140
في راحتيك حياة الروح والــبدن وفي رضـــــاك مجال السرِّ والعلن	البسيط	188
مولاي، إن أذنبتُ ينكرُ أن يُرَى منــك الكـــمال ومنـــي النقصـــان	الكامل	207

فِهْرِسْـــــتْ الآيات القرآنيـــة

متن الآيـــــــة	السورة	الآية	الصفحة
"الله يعلمُ ما تحمل الأنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عندهُ بمقدار"	الرعد	8	77
"الله يبسط الرّزق لمن يشاءُ مِن عبادهِ ويقدرُ له إنّ الله بكلّ شيء عليم"	العنكبوت	62	146
"يا أيّها الإنسان إنّك كادحٌ إلى ربّك كدحاً فملاقيه"	الانشقاق	6	172
"وهزّي إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رُطباً جنيّاً"	مريم	25	172

فِهْرِسْــتْ الأحاديث الشـــريفة

متن الحديث الشريف	الصفحة

فهرســت الأمثال

An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

The Poetic Movement in Andalucia
(The Era of Beni-Al-Ahmer)

By
Aymen Yousef Ibrahim Jarrar

Supervised by
Prof. Dr. Wa;il Abu-Saleh

Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Arts in Arabic Language and Literature, at An-Najah National University, Nablus, Palestine.

2007

The Poetic Movement in Andalucia
(The Era of Beni-Al-Ahmer)

By
Aymen Yousef Ibrahim Jarrar
Supervised by
Prof. Dr. Wa;il Abu-Saleh

Abstract

The poetic movement flourished in the kingdom of "Bani Al – Ahmar" which wad established in 637 hejri within many conditions. The most important of which was the political aspect which came as a supporter for a variety of poetic purposes; at the foreground of which were the poetry of fighting for the sake of Allah "Al - Jihad"، and raising the potentials of people.

The one who is following up the incidents that took place in that kingdom can obviously see that it passed three stages that had a clear influence in the spread of some poetic purposes more than the other ones:

The first stage: This stage is described as having a spread of the enthusiastic poetry that calls for going back to religion and gaining what was lost of the cities of Al – Andalus. This stage lasted five centuries.

The second stage: In it، prosperity and wealth spread all over the kingdom. The poetry of wine and compliment as well as the life of luxury shaped this stage that lasted about five centuries.

The third stage: It is considered the last stage that is described as having the retreat and fall down. There is also a return to the poetry of enthusiasm and condoling cities.

The nature played an important role in the prosperity of this movement. Granada was famous of having a beautiful nature since it had a lot of water، gardens and marvelous palaces. The kings of "Sons of Al - Ahmar" did the same as their former kings of Al – Andalus in that they encouraged arts and sciences and built palaces in which literary meetings and poetic arts were held. These appeared in this era which were the same as the ones in the previous eras. In the forground of which came the description of nature. In its laps، the poets wrote the poems of win and flirt.

The poetry of fighting for the sake of Allah "Al - Jihad" boomed as a result of the acceleration that happened in losing their cities.

So، they hurried to motivate and strengthen the potentials of people to gain back these lost cities. Their poems of compliment focused mostly on clarifying the kinship of their kings that reached to the honoured companion Sa’d Ibn Obada Al – Ansari.

Their poetry came fresh and smooth، and had kind examples of metaphors and imaginations that cheered hearts. Also، their poets took care of ornamenting their vocabularies، so they obtained different language styles like alliteration، antethesis، quoting in addition to other kinds of eloquence، rhetoric. All these made their vocabularies suitable for the meanings they aimed to convey. Moreover، they used poetic styles which

suited their real situation. Mostly، they used the styles of Al – Kamel Al – Wafer، At – taweel and Al – baseet.